سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة



هيميان الزاد إلى دار المعاد

للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الإباضي المصعبي

القسم الأول

الجزء السادس

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



القطعة السادسة من التفسير الكبير المسمى هيميان الزاد الى دار المعاد ، هو للشيخ العالم الفقيه ، الجبهذة النبيه ، الذى بلغ من العلوم فى زمانه ، مالم يلحقه فيها أحد من أقرانه من العلوم النقلية والمواهب العقلية ، الشيخ محمد بن يوسف الوهبى الإباضى اليسجنى المصعبى ، فإنه قد أتى فيه بالعجب العجاب ، مـن كل معنى مسـتطاب ، من النكت الأدبية ، والمعانى العربية ، لاسيما وقد أظهر فيه عقائد أهل الاستقامة ، محتجاً على أهل الزيغ بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، من الكتاب والسنة ، وإجمـاع المحققين من الأمة ، كافأه الله تعالى عن الإسـلام وأهلـه بنعمتـه الوافرة ، وآلائه المتواترة فى الدنيـا والآخرة

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

قد أوقف سيدنا ومولانا الأجل الأكرم ، المحترم المعظم الهمام ، خليفة بن سعيد بن سلطان بن الإمام هذا الكتاب ، وهو تفسير القرآن العظيم ، المسمى بـ « هيميان الزاد إلى دار المعاد » علـى طلبة العلم المتعلمين والراغبين فيه ، ابتغاء ما عند الله تعالى من الثواب ، وهربا من أليم العقاب ، وأنه قد أخذ عهد الله وميثاقه على من صار فى يده شىء من هذا الكتاب أن لا يبيعه ، ولا يهبه ، ولا يرهنه ، ولا يتملكه ، وأن لا يمنعه من كان مستحقا للقراءة منه ، وأن لا يعطيه من هو غير مأمون عليه ، خوفاً من ضياعه .

وإن احتاج إلى إصلاح فليصلحه من صار فى يده وأجره على الله تعالى ، وقفاً مؤبداً صحيحاً شرعياً ، لا يحال ولا يزال ولا يباع هـذا الكتاب ، ولا يورث ولا يوهب ، ولا يرهن ، ولا يملك حتى يرث الأرض وارثها ، أشهد الله تعالى على ذلك ، وكافة المسلمين ، فمن بدله بعد مـا سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم .

وكتب هذا عن أمر خادمه الفقير لله يحيى بن خلفان بن أبى نبهان الخروصى بيده فى ١٠ من شهر شعبان سنة (١٣٠٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام مكية

قال ابن عباس : إلا ست آيات من قوله تعالى : (قل تَعالَوا) وقيل : إلا ست آيات من قوله تعالى : (قل تعالوا) وهو أيضاً مروى عن ابن عباس ، وعنه إلا ست آيات ثلاثاً من قوله : (وما قدروا الله حق قدره) وثلاثاً من قوله : (قل تَعالَوا) وقيل : إلا آيتين (وما قدروا الله حق قدره) (وهو الذى أنشأ جنات) الآيتين ، وقيل : إلا تسع آيات ، هذه الثلاث (وما قدروا الله حق قدره) الآية إذ قيل : نزلت فى مالك ابن الصليق (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) الآيتين نزلتا فى مسليمة (والذين آتيناهم الكتـاب يعرفونه) الآيـة (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك) الآية ، وقال الكلبى : الآيتان نزلتا فى المدينة بسبب يهودى (قل ما أنزل الله على بشر) وقيل الآيتان من قوله تعالى : (قل تعالوا) .

وآيها مائة وخمس وستون ، وقيل : مائة وست وستون ، وقيل مائة وسبع وستون ، وكلمها ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون ، وحروفها اثنى عشر ألف حرف ، وأربعمائة واثنان وعشرون ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزلت علىّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد ، فمن قرأ سورة الأنعام صلى عليـه واستغفر لهُ أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة » ودعا الكتّاب فكتبوها من ليلتها .

وقال ابن عباس : « نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة حولهـا

سبعون ألف ملك » ورواه ابن عمر مرفوعاً ولم يذكر ليلا ، وزاد لفظ على إذ قال : « نزلت علىّ » وقال على : أنزل القرآن خمساً خمساً إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة فى ألف ، يشيعها من كل سماء سبعون ملكاً حتى أدوها إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن مجاهد : نزلت الأنعام كلها جملة واحدة ، معها خمسمائة ملك ، وعن أنس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين لهم زجل بالتقديس والتسبيح والأرض ترتج » وقال جابر بن عبد الله : لما نزلت سورة الأنعام ، سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق » والله أعلم .

قال ابن عباس رضى الله عنه : نزلت سورة الأنعام بمكة جملة واحدة ليلا ، ومعها سبعون ألف ملك ، ولهم زجل ، أى صوت ، بالتسبيح والتحميد حتى كادت الأرض ترتج ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « سبحان ربى العظيم » وخرّ ساجداً ، وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الأنعام صلى الله عليه سبعون ألف ملك ليله ونهاره » وقال سعيد بن جبير : لم ينزل من الوحى شىء إلا ومع جبريل من الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، وهو قوله تعالى : (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) إلا الأنعام فإنها نزلت ومعها سبعون ألف ملك .

وقال كعب الأحبار : فتحت التوراة من أول سورة الأنعام إلى قوله : (بربهم يعدلون) وختمت بآخر سورة بنى إسرائيل : (الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) إلى آخر السورة ، وقيل : ختمت بآخر سورة هود

(ولله غيب السموات والأرض) إلى (عما يعملون) وعنه صلى الله عليه وسلم رواه كعب الأحبار : « من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى قوله : (تكسبون) حين يصبح ، وكّل الله تعالى به سبعين ألف ملك يحفظونه ، وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة ، ونزل ملك من السماء السابعة معه مرزبة من حديد ، كلما أراد الشيطان أن يلقى فى قلبه شيئاً من الشر ضربه بها ، وجعل بينه وبين الشيطان سبعون ألف حجاب ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : يا ابن آدم امش تحت ظلى ، أى الظل الذى هو ملكى أو ظل مملكته ، وكل من ثمار جنتى ، واشرب مـن ماء الكوثر ، واغتسل من ماء السلسبيل ، فأنت عبدى وأنا ربك ، لا حساب عليك ولا عذاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمدُ للهِ الّذى خَلَقَ السّموات والأرضَ) إخبار بأن الله جل جلاله هو أهل الحمد ، فإذا كان إهلاله وجب حمده ، فهو مقيد للأمر من هذه الجهة ، وقيل : اللفظ إخبار ، والمعنى أمر ، أى احمدوا الله ، أو قالوا : « الحمد لله » ولو قال : احمدوا الله لم يفد الدوام والثبوت ، ولم يفد تعليل صفة الحمد ، وعلل الحمد بخلق السموات والأرض ، لأن فيهن منافع الدنيا والآخرة لنا ، ولكونهن منافع وعبراً ، وأعظم ما ترى من الأجسام خصّهن بالذكر ، فهو حقيق بالحمد لخلقه هذه المنافع والأجسام العظام ، حمد أو لم يحمد ، فهو حجة على الذين كفروا وعدلوا بربهم ، وجمع السماء دون الأرض ، مع أن الأرض أيضاً أرضون ، لأن طبقات السموات مختلفات ، بعضها موج ، وبعضها فضة ، وهكذا ... ومتفاوتات الآثار والحركات والأرضين كلهن تراب وحجر ، ساكنات لا تفاوت فيهن بحركة أو أثر .

وقدم السموات لشرفهن بالملائكة وبالعبادات الدائمة والخلو عن المعاصى ، وبالنيرات ، وعلوّ مكانهن وتقدم وجودها كذا قيل إنه تقدم وجودها ، وذلك تفضيل يظهر للحسن ، وأما باعتبار أن رسول الله صلى الله وسلم خلق من الأرض ، فهذه الأرض أفضل ، وذلك الحمد شكر أيضاً لتعلقه بالمنافع ، وإنما جعلت قوله : (الذى خلق) تعليلا وتعليقاً ، لأن الموصول وصلته كالوصف ، وتعليق الحكم بالوصف يؤذن بعليته .

وحكى الفخر عن سيبويه أنهُ لا يقال : الحمد بالتعريف إلا فى الله ، لأنه يدل على التعظيم ، وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « ما من شيء أحب إلى الله من الحمد » وقالوا : أبلغ الحمد الحمد لله على كل حال ، وما من نعمة عظمت إلا والحمد لله أعظم منها ، والمراد خلق السموات والأرض وما فيهما وغير ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : « أذن لى أن أحدث عن ملك من حملة العرش ، رجلاه فى الأرض السفلى ، وقرناه على العرش ، ما بين شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير مسيرة مائة عام ، وهو يقول : سبحان الله ، وهو اسمه روقيل » .

(وجَعَلَ الظُّلمات والنُّور) جعل بمعنى أنشأ ، ولذلك تعدى لواحد ، والفرق بين الجعل الذى بمعنى أنشأ الخلق ، وأن الخلق فيه معنى التقدير ، والجعل فيه معنى التضمين ، قال السعد فى حاشية الكشاف : معنى التضمين جعل شيء فى ضمن شيء ، بأن يحصل منه أو يصير إياه ، أو ينتقل منه إليه ، وذلك أن النور والظلمة لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنوية وهم مجوس ، والآية رد عليهم إذ أضافوا خلق النور إلى يزدان ، يعنون الله ، وخلق الظلمة إلى هرمز وهو الشيطان ، وبنوا على ذلك أن الله خلق الخير ، والشيطان خلق الشر .

زعمت المانية منهم أن النور والظلمة حيان فعالان دراكان حساسان ، وما زالا مفترقين حتى بغت الظلمة على النور فمازجته ، فعند ذلك تكونت الأشياء من امتزاجهما ، فكل ما حدث من نور وخير وعلم وبر ، فهو من الأصل النورى ، وكل ما يحدث من ظلمة وشر وجهل وفجور ، وكل شيء قبيح ، فهو من الأصل الظلمى ، ورد عليهما أن افتراقهما قبل الممازجة إن كان لطبيعة فلا يتمازجان بعد ، لأن الطبيعة تلزم ، وإن كان اختياراً فلعلهما قد امترجا قبل هذا الافتراق الذى أثبتم ، ومن أين لكم أنهما لم يمترجا قبل ، ويرد عليهما أيضا أنهما لم يزل بصفة كذا لا يزول عنها ، فإذا قلتم : لم يزالا مفترقين فكيف يزول الافتراق ؟ فإن ما لا أول له

لا يزول ، وأيضا إن لم يحدث عن ممازجتهما شيء فلعلهما لم يفترقا ، وإن حدث بها نور أو ظلمة لزم حدوث النور كلــه أو الظلمة كلها ، لأن الشاهد يدل على الغائب ، والقليل على الكثير ، والكثير على القليل ، وأنتم قلتم لم يزالا قديمين ، وإن حدث شيء غير نور ولا ظلمة بطل قولهم إذا ثبتوا ثالثاً ، وأيضا إن كان الامتزاج لتحركها إلى النور حتى مازجته فالتحرك أماله ابتداء فقبله سكون طبعي لها فلا تتحرك ، أو سكون غير طبعي كتحرك غير طبعي ، فلزم الاختيار وأقروا بالحادث وأما مــا لتحريكها ابتداء فكيف تصل النور والمسافة بينهما لا تتناها ؟

وأيضا من أين لهم أنهما امتزجا ثم افترقا ، ولا يمتزجان أبداً ، ولعلهما يمتزجان ويفترقان ألف مرة فأكثر ، وأى شاهد لهم على ذلك ٠

وأيضا إن قتل رجل رجلا فإن قالوا : قتله النور تركوا قولهم ، وإن قالوا : الظلمة فقد أقرت والإقرار خير لا شر ، فإن تاب وقالوا : تابت الظلمة ، ففساد قولهم ظاهر ، وإن قالوا تاب النور فلا قتل لــه فضلا عن أن يتوب ، فكذب النور وكان فاعلا للشر وهو الكذب ، وإن أقرت الظلمة بالقتل واعترفت ، فذلك صدق ، والصدق خير ٠

وأيضا من فعل خيراً ثم شراً فإن قالوا : الذى فعل الشر هــو الذى فعل الخير تركوا مذهبهم ، وإن قالوا غيره فهذا هو أعجب شيء فى الدنيا ، رضى عمرو على زيد ، ولما غضب عليه صار غير عمرو ٠

وأيضا إن أراد رجل قتل آخر ، فجاء من شفع ، فإن كان مريد القتل النور تركوا مذهبهم ، وإن كان الظلمة فالشافع إما ظلمة والشفعة خير ، وأما نور فمريد القتل الظلمة وعفت ، والعفو خير ، وإن عفا نور فالعاف

مريد الشر ، ومن قال أنا ظالم فإن كذب فالنور لا يكذب ، وإن صدق فالظلمة لا تصدق .

وقالت الديصانية كالمنانية ، إلا أنهم قالوا : النور حى والظلمة ميتة ، وأن النور هو الذى مازج الظلمة ، ويرد عليهم أن هذه الممازجة إن كانت خيراً فكيف تكون ممازجة الخير لشر خيراً ؟ وإن كانت خيراً لقدرته على التخلص منها ، فعدم مخالطته لها أولى ، وكان هو الحكمة ، وهو أولى بالحكمة ، وإن مازجها ليدع فيها جزءاً منها تستلذ به ناحيتها ، فلعل هذا الجزء لا يتخلص فيعود من جنسها .

وأيضاً إذا كانت الظلمة ميتة فكيف تفعل الشر ، فإن فعله النور فهو لا يفعل الشر ، وإن كذب فالكاذب غير حكيم ، ولا يتناقض قوله أو قوله مع فعله ، وما ورد على المنانية ورد عليهم ، وكل ما يرد به على الدهرية يرد به عليهما وعلى المرنية أيضا ، الزاعمين أن الأشياء من نور وظلمة قديمين وثالث متوسط بينهما وهو الإنسـان . والرد عليهم فى نحو الممازجـة كالرد عليهما .

وإن قالوا : الإنسان طلب المزاج بينهما بنفسه ، فإن كان شريراً فلا يكون ثالثاً لهما وهو جاهل شرير التحق بالظلمة ، والظلمة شر منه ، وإن كان خيراً التحق بالنور ، وإن كان حكيما فكيف يجب ممازجة الظلمة ، وجمع الظلمة لكثرة أسبابها ، والأجرام حاملة لها ، وسببها تخلل الجرم الكثيف بين النير وبين ما يقع عليه نوره ، بخلاف النور ، فسببه النار والشمس والقمر وسائر الكواكب والبرق ونحو ذلك ، والنور كيفية محسة تدركها الباصرة أولا بواسطتها تدارك سائر المبصرات ، والظلمة عدم النور فى الجسم الذى من شأنه قبول النور .

وقيل : الكيفية الوجودية المضادة للنور زعما أن الإعدام غـير مخلوقه والحق إلا الإعدام الصرفة غير مخلوقة ، كعـدم خلق جبل فى موضع من الأرض ليس فيها ، وكعدم خلق زيد قبل أن يخلق ، والإعدام الوجودية مخلوقة كالظلمة إذا قيل إنها عدم النور ، فقبلت الجعل لأنها ليست عدماً محضاً ، والموت إذا قيل إنه عدم الحياة والتقابل بين النور والظلمة تقابل العدم والملكة ، أى الوجود إذا قلنا إنها عدم النور عما من شأنه أن يقبل النور أو استدل على أنها عدم بقوله : « جعل الظلمات والنور » ولم يقل خلق وهو استدلال مشكل لذكر النور بجعل أيضا •

والدليل على أنها أمر عدمى رؤية الجالس فى الغار المظلم الخارج إذا وقع على الخارج ضوء ، والخارج عنه لا يرى الجالس فيه ، فهذا مما يبطل قول من قال : إنها كيفية وجودية مانعة عن الإبصار وإن تقابل بينها وبين النور تقابل الضدين ، فهى عرض مضاد للنور ، ولو كانت الظلمة أمراً حقيقياً قائماً بالهواء ، مانعاً من الإبصار لم ير أيضاً داخل الغار خارجه الواقع عليه الضوء ، إلا أن يقال : قد يكون العائق عـن الرؤية ظلمـة تحيط بالمرئى ، لا الظلمة المحيطـة بالرائى ، ولا الظلمة مطلقاً ، كما أن شرط الرؤية ضوء محيط بالمرئى لا الضوء مطلقاً ، ولا الضوء المحيط بالرائى ، ومراد بالإحاطة أن يحيط بما رئى وبعضاً ، فإذا رئى بعض الإنسان فقط لكون باقيه فى الظلمة ، فقد أحيط بذلك لبعض ، واستدل أيضا بكونها عدمية بأنا إذا قدرنا خلو الجسم من النور من غير انضياف صفة أخرى إليه ، لم تكن حاله إلا هذه الظلمة التى نتخيلها أمراً محسا فى الهواء ، وليس هناك أمر محس •

ألا ترى أنا إذا أغمضنا العين كان حالنا كما إذا فتحناها فى الظلمة الشديدة ، ولا شك أنا لا نرى فى حال التغميض شيئاً فى جفوننا ، بـل

لنا فى هذه الحالة أن لا نرى شيئاً فنتخيل أنا نرى كيفية السواد ، وكذا الحال فى تخيلنا الظلمة أمراً محساً ، والضوء شرط وجود اللون فى نفسه ، فاللون إنما يحدث فى الجسم بالفعل عند حصول الضوء فيه ، وأنه أى اللون غير موجود فى الظلمة ، لفقد شرط وجوده ، بل الجسم فى الظلمة مستعد لأن يحصل فيه عند الضوء اللون المعين ، فإنا لا نراه فى الظلمة ، فعدم رؤيتنا له إما لعدمه فى نفسه أو لوجود العائق وهو الهواء المظلم ، والثانى باطل ، لأن الهواء المظلم غير مانع من الإبصار ، فإن الجالس فى الغار المظلم يرى من وقع عليه الضوء خارجه ، فلم يعقه الهواء المظلم بينهما ، والمختار عندى وعليه الفخر أن الضوء شرط لرؤيته لا لوجوده ، لأن رؤيته زائدة على ذاته ، والمتحقق المتيقن عدم رؤيته فى الظلمة ، وأما عدمه فى نفسه فلا .

والجالس فى الغار إنما لا يراه الخارج لعدم إحاطة الضوء به ، والألوان تصفف بحسب ضعف الضوء ، فكل طبقة من الضوء شرط الطبقة من اللون ، فإذا انتفى طبقات الأضواء انتفى طبقــات الألوان ، كــذا قيل . قلت : لا يصح بل الألوان باقية فى الظلمة ، لكن عجزت الأبصار عن إدراكها ، فالمختلف بحسب مراتب الأضواء الرؤية لا اللون ، فالرؤية جلاء وخفاء بحسب شدة الأضواء وضعفها ، والمرئى باق على حاله من اللون ، والله أعلم .

وقيل : إن الظلمات الشرك والمعاصى والجهل ، وإن النور غير ذلك من الهدى ، وعلى هذا فجمع الظلمات التعدد الضلال والحق واحد ، وقدم الظلمات لتقدم وجودها ، والنور حادث ، وكذا الذى هو مطاق عــدم المعرفة بالله ، وعدم العمل سابق حتى الذى يولد على الفطرة وهو الطفل ، فقد مضى وقت وليس موجوداً فى البطن ، ومضى عليه وقت فى البطن

لا روح فيه ، وعن قتادة والسدى وجمهور المفسرين : الظلمات الليل ، والنور النهار ، والظلمة سابقة على النهار ، والأولى أن ينسب إلى الجمهور أن الظلمات كل ظلمة ، ولو فى نهار كظلمة البيت المغلق ، والنور كل ضوء ولو ليلا ، ولعل هـذا المراد ، والليل والنهار تمثيل ، وقيل : الظلمات الجهل ، والنور العلم ، وقيل : هما الجنة والنار ، والجنة مخلوقة قبل النار ، والسموات قبل الأرض ، والظلمة قبل النور ، قاله قتادة ، وقيل : خلقت الأرض قبل السماء ثم دحيث بعد السماء .

(ثُم الذين كَفرُوا بربهم يَعْدِلونَ) العطف على قوله : « الحمد لله » وثم تفاوت وتباعد أن يسووا غير الله به فى العبادة ، ويميلوا منه إلى غيره ، ويكفروا نعمته التى هى من السموات والأرض ، ومن الظلمات والنور ، فمن منفعة الظلمة استراحة البصر عن النظر المؤيدة إلى النوم ، مع أن غيره لا يقدر على خلق السموات والأرض ، ولا جعل الظلمات والنور ، ولا على ترتيبهم من طور إلى طور ، والله هو المربى لهم ، أو العطف على خلق السموات والأرض عطف اسمية على فعلية ، فهى صلة للذين أيضا بواسطة العطف ، والرابط هو لفظ رب من وضع الظاهر موضع المضمر ، ليدل أنه مربيهم بمنافع السموات والأرض ، والظلمات والنور ، فكيف يكفرون نعمته ، ويميلون عنها إلى غيره ، أو يسوون به غيره ، مع أن غيره لا نعمة له عليهم بالحقيقة ، ولا يخلق ما يخلق الله .

والباء على كل وجه تتعلق بيعدلون ، سواء فسر بيميلون عن عبادة الله وشكر نعمه ، أو يسوون به غيره ، وعلى كل وجه أيضاً يجوز تعليقها بكفروا ، أى الذين كفروا بربهم يعدلون به غيره ، أو يميلون عنه فيعدلون بمعنى يميلون متعد بالحرف ، أى يميلون عنه ، وبمعنى يسوون متعد بنفسه ، أى يسوون به غيره وهو ما يعبدون من الأصنام وغيرها ، والمستبعد على تعلق الباء بيعدلون هو قوله : « بربهم » فقدم لذلك ، وللفاصلة إذا كانوا

يعدلون ، فكيف يكون العدول بربهم ، والمستبعد على تعليقه بكفروا هو قوله : يعدلون ، قال النظر بن شميل : الباء بمعنى عن متعلق بيعدلون بمعنى يميلون ، قال عمرو بن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » .

(هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِن طِينٍ) بخلق أبيكم آدم منه ، وعن ما ظهر لى بلفظه ومعناه ، والله الذى لا إله إلا هو ، ثم رأيت السيوطى ذكره ولم يتقدم لى فيه مطالعة ، ولأن المأكول نبت من الطين ، وما لم ينبت منه كاللحم غير الحوت فغذاؤه يكون مما نبت ، واللبن أيضا مما غذاؤه مما ينبت من الطين ، والنطفة تتولد من الغذاء ، أو يقدر مضاف أى خلق أباكم من طين .

(ثُمَّ قَضَى) كتب (أجلاً) أجل الموت ، بأن أمر ملك الأرحام عند وقوع النطفة التى يتولد بها الإنسان أن يكتب أجله كما كتبهُ الله قبل ذلك ، وسبق علمه الأزلى به لا إله إلا الله .

(وأجلٌ مُسمًّى) محدود معين عنده تعالى (عنده) وهو المدة بين موته وبعثه ، كذا ظهر لى ، ثم رأيته كذلك للحسن وقتادة والضحاك وابن عباس ، وروى عنه أنه قال : لكل أحد أجلان أجل إلى الموت ، وأجل من الموت إلى البعث ، فإن كان الرجل يرى تقياً وصولا بالرحم زيد لهُ من أجل البعث فى أجل العمر ، وإن كان فاجراً قاطعاً للرحم نقص من أجل العمر وزيد فى أحد البعث ، بمعنى قضى لهُ فى الأزل بأن يطول عمره أو يقصر كذا ، وقيل : الأجل الأول نفس الوقت الذى يموت فيه ،

والثانى نفس وقت قيام الساعة ، فإن الأجل يطلق على الجملة ، ويطلق على الجزء الأخير ، ويطلق على الجزء الأول .

وقيل : الأول بمن مضى ، والثانى لمن حضر فى الوجود ، ولمن يأتى ، وخص الثانى بكونه مسمى عنده ، لأن من مضى قد علم أجله بخلاف غيره فإنه لا يدرى إلا الله قدر حياته حتى يموت ، ولا مدخل لغيره فيه بعلم ، وقال ابن عباس وابن عطاء : الأول للنوم ، والثانى للموت ، وخص بمسمى لذلك ، وبقى لى الكلام على ثم ، والخطاب فى خلقكم فأقول والله أعلم : الخطاب لمن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت الآية ، فثم للترتيب فى الإسناد على أصلها ، ويقاس من مضى ومن يأتى بهم وهو ظاهر على ما فسرت به الأجلين .

وأما على باقى الأقوال فلعلها للترتيب الذكرى ، وأجل مبتدأ ، ومسمى نعته ، وعند خبر ، وقدم المبتدأ لأنه المقصود بيانه لتعظيمه ، وكذلك نكر ووصف بأنه مسمى لا يقبل النقص والزيادة ، ولما لم يكن الأجل كذلك لم يستأنف به ، بل جعل مفعولا لقضى ، وقيل : الأجلان واحد ، ولو كانا نكرتين معاً ، وذلك تعظيم ، والأصل أن يكون كل منهما غير الآخر فتنكيرهما ، وكذا لو نكر الثانى وعرف الأول .

(ثمَّ أنتم تَمتَرُون) تشكون فى البعث ، وثم لاستبعاد الشك فى البعث بعد أن صح أن الله جل جلاله خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم ، فالبعث والخلق الأول سواء شرعاً وعقلا صحيحا ، ولبادىء الرأى يكون البعث أسهل من الخلق الأول ، فخلْقه السموات والأرض ، وجعله الظلمات والنور ، دليل للتوحيد ، ولذلك رتب عليه التوبيخ لهم ، إذ لم يوحدوا بقوله : « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » وخلْقه الناس من طين دليل بعثهم .

(وهو الله فى السّموات وفى الأرْضِ) الضمير عائد إلى الله ، على معنى العلمية ، وخبره الله على معنى الوصفية ، ولذا تعلق فى به أى وهو المعبود فى السموات وفى الأرض ، أو هو المستحق للعبادة فى السموات وفى الأرض ، أو وهو المسمى فى السـموات وفى الأرض بإلهاً ، ولا يجوز أن يتم الكلام عند قوله : « هـو الله » ويعلق فى السـموات بيعلم بعده ، لأنه يكون الكلام بمنزلة قولك : الله الله باتحاد المبتدأ والخبر لفظاً ومعنى ، بخلاف الوجه الأول ، فإنهْ لو تكرر فيه تنزيلا لكن اللفظ الثانى وصف معنى بمعنى المعبود أو المستحق أو المسمى ، وأما ما فى الوجه الثانى فكلاهما بمعنى الذات الواجب ، اللهم إلا أن يؤل بقولك : الله من قد علمتم ، أو الله هو العظيم المعروف ، ففى هذا التأويل فالله خبر وقوله :

(يعْلَمُ سرّكم وجَهْركمْ) خبر ثانٍ ، ويجوز أن يكون الله بدلا من هو ، وصح لوجود الاختلاف بالإظهار والإضمار ، كوجوده بالأخوة ، ولفظ زيد فى جاء زيد أخوك ، وجملة يعلم خبر ، وفى متعلقة بيعلم ، وصح تعليقها به ، لأن السر والجهر يعلمهما الله سبحانه هما فى السموات والأرض ، فلا يمنع من ذلك كونه تعالى لا تحويه السـموات والأرض ولا شىء من المخلوقات ، وهذا كقولك : ألقيت المال فى الدار ، وإنما ألقيته من خارج الدار ، ولست فيها حال الإلقاء ، وكقولك رميت طائراً على شجرة ، وتعلق على برميت ولست حال الرمى عليها ، والأولى فى مثل رميت طائراً على شجرة أن يكون على شجرة متعلقا بمحذوف نعت لطائر ، أو لو جىء بطائر معرفة ، أو خصص كان على شجرة متعلقاً بمحذوف حال منه ، ولا يتعلق فى بسر لأنهْ مصدر لا يسبقه معموله ، نعم أجازه بعض لأن المعمول ظرف ، ولاسيما أنه ليس هنا على معنى انحلاله إلى فعل ، وحرف الموصول فضلا عن أن يقال : يلزم تقديم معمول الصلة على الموصول ،

ولا يتعلق بجهر لذلك على ما ذكرت فيه ، لكن فيه مانع آخر وهو العاطف ، ومعمول المعطوف لا يسبق العاطف .

ويجوز أن يكون الله بدلا ، وفى السموات خبر ، ويعلم خبر ثان مفسر للاستقرار ، فإن كون الله فى السموات وفى الأرض بمعنى علمه فيهما ، فإن علمه سرنا وجهرنا وكسبنا ، يفهم منه علمه سر ما فى السموات وجهره فهم مساواة تحقيقاً ، وفهم أولوية نظراً لبادىء الرأى ، ثم والله رأيت بلا مطالعة أن القاضى قال : يعلم سركم وجهركم بيان وتقرير للاستقرار الذى فى قوله فى السموات ، إذا جعل فى السموات خبراً ، وزاد أنه قال : إن الله تعالى لكمال علمه بما فى السموات والأرض كأنه فيهما ، وبالجملة فإن الله وله الحمد أولا وآخراً ، ظاهراً باطناً ، فتح لى فى هذا التفسير فتحاً ظاهراً واسعاً ، وأرجو من الله الرحمن الرحيم القبول ، ومن الجملة ما فتح لى فيه ، وله الحمد على كل حال ، أنه إذا أخطأ قلبى أو نسيت شيئا وفق بصرى أن يقع عليه بلا قصد منى إليه ، ولا قصد درس ، ولا قصد تصحيح فأصلحه ، والسر ما فى القلب أو ترك به اللسان ولم تسمعه أذن صاحب اللسان ولا غيره ، ولم يمكن سمعه ، والجهر ما نطلق به اللسان قدر ما تسمعه أذنه أو غيره ، ولو لم يكن معه إنسان آخر وسركم ما قصدتم إخفاؤه من كلام أو فعل ، ولو اجتمع عليه اثنان أو أكثر ، والجهر ما لم يقصد إخفاؤه .

قال الحسن : اجتمع أربعة أملاك فى وسط الأرض ، فقال أحدهم : جئت من السماء السابعة من عند ربى ، وقال أحدهم : جئت من الأرض السابعة من عند ربى ، وقال أحدهم : جئت من المشرق من عند ربى ، وقال أحدهم : جئت من المغرب من عند ربى ، يعنون والله معنا أيضا هنا وفى كل مكان بلا حلول ولا احتواء ، ثم هو الأول إلى عليم .

(ويعلم ما تكسبون) من خير أو شر فيجازيكم عليه ، ولا تكرر لهذا مع السر والجهر ، لأن السر والجهر بالمعنى المصدر ، أى يعلم أنك أسررت وأنك أجهرت ، ويعلم ما أسررته وما أجهرت به ، وهما مـا كسبت أو السر والجهر فى النطق ، وما تكسبون فى الفعل والترك على عمومه بحيث يشمل النطق ، فيكون ذكر العام بعد الخاص ، أو السر والجهر ما يخفى وما يظهر من أحوال النفس ، وما تكسبون أعمال الجوارح قاله القاضى ، ومـا موصول اسمى أو حرفى بحسب ما يصلح له مـن التأويل بأوجهه ، فإن القول مثلا تضيفه للسر أو الجهر باعتبار إظهاره وعـدم إظهاره ، وتصفه بأنه كسب باعتبار أنه عمل يجلب شراً أو خيراً ، ويجوز أن يراد بالجهر والسر ما يعم القول والفعل ، وبما تكسبون ما يترتب على العمل المجهور به أو السر من ثواب وعقاب فما موصولة اسمية لا حرفية .

(وما تأتيهم) ما تأتى مشركى قريش (من آية) من صـلة لتأكيد الاستغراق ، أو للنص على الاستغراق بعد تبادره ، وآية فاعل أى معجزة دلت على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو دليل دل أو آية قرآنية (من آيات ربهم) معجزاته أو دلائلـه ، أو آيات قراءته ، ومـن للتبعيض متعلقة بمحذوف نعت لآية ، أو حال من آية لتقدم النفى عليها كانشقاق القمر وتكثير الطعام القليل والشراب القيل .

(إلا كانوا عنها معرضين) لا يتدبرونها فأشركوا بالله تعالى ، وأنكروا رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ونبوته ، فلم يؤمنوا بالقرآن كمـا قال .

(فقـد كذبوا بالحق) بالقـرآن ومطلق الوحى ومطلق الحق

(لمَّا جاءَهمُ) رتب ذلك بالفاء على ما قبله ، لأنه لازم له ، فإنه يلزم من الإعراض عن الآيات بعدم التدبر فيها أن يكذبوا بالقرآن والوحى ، ومطلق الحق كمسيره إلى بيت المقدس وإلى السماء ، ويجوز أن يكون هذا استدلالا وضعه الله لنا نستدل به على ثبوت إعراضهم ، لأنه لولا إعراضهم مـا كذبوا ، فالتكذيب دليل الإعراض ، ووجه صـحة تفريع التكذيب للحق وهو القرآن على الإعراض عن آيات القرآن أن الإعراض عن ألفاظ القرآن لا يدرسونها ولا يتفهمون معانيها ، ولا يحفظونها ، والتكذيب بالقرآن وهو الحق فى قوله : « بالحق » تكذيبهم بمعانيه .

وأما على أن الآيات غير القرآن ، والحق القرآن ، فلا يخفى التفريع ، وقيل : المراد بالحق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا قيد الآيات آيات القرآن فوجه التفريع أنهم إذا أعرضوا عن القرآن فكيف لا يكذبون بسائر ما يجيبهم من الحق ، فإن القرآن أعظم الآيات .

(فَسوفَ يأتيهِم أنباء ما كانـُوا بهِ يستَهزئون) الفاء سببية ، فإن إتيان أنباء ما كانوا يستهزئون مسبب عن تكذيبهم ، وأنباء بمعنى أخبار ، والذى به يستهزئون هو القرآن أو الحق مطلقاً ، وأنباء القرآن والحق تأويله ، أى وقوع ما ذكر الله فيه أنه سيقع ، ككون المسلمين غالبين للكفار ، وما هو غيب ، وظهور الإسلام ، وعذاب الآخرة ، وعذاب الموت ، وقام الساعة ، فإن ذلك كلـه إخبار فيـه ، وأضـيفت إلى القرآن والحق لأنها فيه ، ووصفهم الله عز وجل بثلاثة أوصاف :

الأول : إعراضهم عن الآيات .

والثانى : التكذيب وهو أقبح ، لأن المعرض عن الشىء قد لا يكذب بـه .

الثالث : الاستهزاء وهو أقبح من التكذيب ، لأن المكذب بالشيء قـد لا يبلغ تكذيبه إلى الاستهزاء وهو الغـاية فى القبح ، وبعـد ذلك وعظهم الله جل وعلا بإهلاك القرون السابقة وقال :

﴿ ألم تَرَوْا كَم أهْلَكْنا قَبْلَهم مِنْ قَرَنٍ ﴾ القرن أهل عصر فيه نبى أو فائق فى العلم كان العصر قليلا أو كثيراً ، فالقرن أهل ذلك العصر لا نفس العصر ، وهو مأخوذ من قرنت الشيء بالشيء ، فأهل العصر اقترنوا بعض ببعض لاحتواء الزمان عليهم ، أو اقترنوا زمانهم ، أو بأمة قبلهم وبعدهم إذ تعاقبوا ، وقيل : القرن عشرة أعوام ، وقيل عشرون ، فهكذا العقود كلها أقوال إلى مائة ، وقيل : مائة وعشرون ، وأطلت الكلام على ذلك فى شرح المخمس لأبى نصر رحمهُ الله ، وعلل القول بأنهُ سبعون عاماً لأنها أغلب أعمار الناس ، والقول بأنهُ مائة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبعض الصحابة : « تعيش قرناً » فعاش مائة سنة ، وهو عبد الله بن بشر المازنى ، وصحح هذا .

والقرن فى هذه الأقوال نفس الزمان ، فيقدر مضاف ، أى مـن أهل قرن ، أو سماهم باسم زمانهم ، سمى الزمان قرناً لاقترانه بزمان قبله ، وزمان بعده ، أو بأهله ، والقرون المهلكة كقوم نوح ، وقوم عاد ، وثمود ، وكم للتكثير خبرية مفعول مقدم لأهلكنا ، ومن قرن بيان لكم نعت لها ، وجملة أهلكنا مفعول ليروا ، سوغ تسلطه على الجملة تعليقه عن نصب مفردين ، أو مفرد وجملة بالاستفهام وذلك المفعول قـائم مقام المفعولين ، إذ الرؤية علمية ، ويجوز أن يكون بصرية لأنهـا تعلق أيضا ، ومعنى رؤيتهم أنهم أبصروا مساكين المهلكين ، والعلمية أولى .

﴿ مكَّنَّاهُم فى الأرضِ مَا لَم نُمكِّن لكُم ﴾ ثبتناهم فى الأرض

تثبيتاً لم نثبته لكم ، أو ثبتناهم فى الأرض التثبيت الذى لم نثبته لكم ، فالتمكين الأول بمعنى التثبيت المتعدى لمفعول غير المفعول المطلق ، وللمفعول المطلق الذى هو ما الموصولة ، أو الموصوفة الواقعة على التمكين بمعنى ، والثانى متعد إلى مفعول هو ضمير المصدر محذوف على أنه مفعول بــه رابط الصلة ، أو الصفة ، بمنزلة قولك : مكناهم تمكيناً لم نوقعه لكم ، أو التمكين الذى لم نوقعه لكم ، ولا يصح رد جعلها موصولة بأنها لا تقع نعتاً للمعرفة ، لأنا إذا جعلناها موصولة لم نجعلها نعتاً للمعرفة ، بل نقول : هى واقعة على التمكين ، وهذا كما تقول فى جاء الذى قام إن الذى واقع على الرجل ، وإنما نجعل التمكين منعوتاً إذا عبرنا بالذى ، وذلك من مكن شىء فهو مكين أى متين وقوى •

ويجوز أن يكون مكنَّاهم بمعنى أعطيناهم ، فما مفعول به ثان واقعة على القوى ، والجسمية والأموال والآلات والعدد والمدة أعطيناهم من ذلك مالم نعطكم ، وعدى نمكن لا ثانى لواحد محذوف ، أى نمكنه وضمن معنى ندفع ، فعدى الآخر باللام أى مالم ندفعه لكم •

(وأرْسَلنا السَّماء عَليْهِم مِدْراراً) الســماء بمعنى المطر ، سمى سماء لأنه يجىء من جهة السماء ، أو لأنه كان الماء قبل إرساله غالباً مضلا ، وكل عالٍ مفضل من فوق يسمى سماء ، أو الســماء لمعنى السحاب على حذف مضاف ، أى ماء السحاب ، أو السماء لمعنى السماء الدنيا ، أو لمعنى الفلك المحيط ، فإن المـــاء ينزل من السماء ، أو مــن الفلك إلى الأرض ، فيقدر مضاف أيضا ، أى ماء السماء أو ماء الفلك ، ونزل نزول بكثرة بنزول السحاب نفسه ، أو السماء نفسها ، أو الفلك نفسه على طريق العرب فى المبالغة ، ومدراراً متتابعاً بكثرة حال ، والسماء صفة مبالغة من الدر بمعنى التتابع ، وذلك من در اللبن دروراً هو دار ، أى

كثر ورده على الحالب ، والخطاب فى لكم لمشركى قريش على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، والغيبة فى عليهم لهم أيضا على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، هذا ما ظهر ، وقيل : الخطاب للمؤمنين ، وقيل : لهم وللناس المعاصرين لهم من أى جنس •

(وجَعَلنا الأنْهار تَجْرى مِنْ تَحْتهِم) أى من تحت أشجارهم على حذف مضاف ، أو المراد يجريها من تحتهم الكناية عن كثر أو كثيرة ماؤها ، فكان يسيح فى أكثر أرضهم ، ويطئون ماءه ، فعاشوا فى الخصب والريف والثمار ، ولم يشكروا النعم ، بل انهمكوا فى الذنوب •

(فأهْلكْناهُم بذنُوبِهِمْ) ولم تغن عنهم قواهم ومالهم وجاههم وعـددهم وعدتهم شـيئاً ، والمراد بالإهلاك بذنوبهم إماتتهم بالإغراق والريح والصيحة وغير ذلك بسبب ذنوبهم •

(وأنشأنا مِنْ بَعْدهم) بعـد إهـلاكهم (قرناً آخَرِينَ) عمرنا بهم البلاد ، فاحذروا أن نهلككم ونبدّل بكم غيركم •

(ولوْ نزّلنا عَليْكَ) يا محمد (كِتاباً فى قِرْطاسٍ) الكتاب بمعنى الكلام المكتوب أو الحروف المكتوبة ، وهو غير القرطاس ، ولذلك قيده بالقرطاس ، أى كلاماً مكتوباً فى قرطاس ، أو حروفاً مكتوبة فى قرطاس ، ثـم رأيت بعضاً فسر الكتـاب بالكـلام المكتـوب والحمـد لله ، والقرطاس الورق الـذى يكتب فيه وهـو الكـاغد أو الجلد الـذى يكتب فيـه ، قال مقـاتل والكلبى : نزلت فى النظـر بن الحـارث ، وعبد الله بن أبى أمية ، ونوفل بن خويلد ، قالوا : يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله ، وأنك رسوله •

(فَلَمَسُوهُ بأيْدِيهِم) مسوه بأيديهم حتَّى يجتمع عليه النظر بالعين والمس باليد ، فلا تبقى شبهة ، ولا يقولون سكرت أبصارنا واللمس يكون باليد فقط ، ومع ذلك قال : بأيديهم دفعاً للتوهم ، فإنه قد يتوهم أن اللمس تجوز عن البحث الشديد ، كما جاء على طريقة : « وأنا لمسنا السماء » .

(لقَالَ الَّذينَ كَفرُوا إن هـذا) ما هـذا الكتاب (إلا سِحْرٌ مبينٌ) إلا كتاب سحر ظاهر ، أو ذو سحر مبين ، أو ما هذا الأمر من التنزل واللمس باليد إلا أمر سحر أوذ سحر أو ما شأن ذلك إلا سحر مبين ، (مَلَكٌ) هلا أنزل عليه ملك يخبرنا أنه نبى ، ونراه عياناً ، ونسمعه يقولون ذلك مكابرة وعناداً ، كما قالوا فى انشقاق القمر .

(وقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيهِ) أى على محمد صلى الله عليه وسلم بأسماعنا ، والجملة مستأنفة ، وأجاز بعضهم عطفها على جواب لو ، ولولا للتخفيض على الوجهين ، لكن الثانى مرجوح ، لأنه جىء به ليبنى عليه قوله : ولو أنزلنا ملكا عليه كمـا طلبوا عياناً يرونه ويسمعونه ، يصدق محمداً صـلى الله عليه وسـلم (ولو) أنَّنا (أنزلنا) عـلى محمدٍ (مَلَكاً) من السماء (لقضى الأمر) فى الكلام حذف ، أى ولو أنزلنا ملكا فلم يؤمنوا لقضى الأمر ، أو لو أنزلنا ملكا لقضى الأمر إن لم يؤمنوا ، فإن سنة الله جرت فيمن قبلهم بذلك ، إذ طلبوا آية معاينة ولم يؤمنوا أهلكهم الله .

(ثمَّ لا يُنْظرونَ) لا يؤخرون عن الإهلاك ، قيل : طرفة عين ، ومعنى قضى الأمر ، فرغ من عذابهم وإهلاكهم ، وثم لترتيب الذكر لا لترتيب الإسناد ، لأن المراد أن ذلك القضـاء لا يتأخر ، والظـاهر أن إهلاكهم

يكون بعذاب من الله ، ويحتمل أن يكون برؤية الملك على صورته التى خلقه الله عليها ، إذ لا طاقة لهم عليها ، والظاهر الأول لقوله تعالى :

(ولو جَعلْناهُ ملكاً لجعلْناه رجلاً) ولو جعلنا المنزل عليهم المطلوب إنزاله ملكاً يرونه ويسمعون كلامه ، يقول لهم : إن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم كما شرطوا ، لجعلناه رجلا ، تشبيه بليغ كزيد أسد ، أى لجعلناه كرجل أى على صورة رجل من بنى آدم ، لأنكم لا تقدرون أن تروا ملكا على صورة رجل ، كما يتمثل جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم رجلا ، وكذا من لاقى من الملائكة ، وكان جبريل عليه السلام يتمثل على صورة دحية الكلبى ، وكذلك كانت الملائكة تجىء الأنبياء على صورة رجل ، كما جاء الملكان داود فى صورة رجلين ، وكذا أتى الملائكة إبراهيم ولوطاً ، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فى صورته التى خلق عليها صعق وغشى عليه ، وإذا أراد الله قوى بعض الأنبياء بقوة قدسية فرأوا الملك على صورته .

ويجوز أن تكون الهاء للرسول ، أى ولو كان النبى الرسول ملكا كما قالوا : « ولو شاء ربك لأنزل ملائكة » وقالوا : « وعجبوا أن جاءهم منذر » وقالوا : « أبعث الله بشراً رسولاً » زعموا أن الملك أشد هيبة وقدرة على تحصيل ما أرسل به ، وأكثر علماً ، لجعلناه على صورة رجل ، لأن القوة البشرية لا تقوى على معاينة الملك كما هو ، كما روى أن رجلين صعدا جبلا يوم بدر ينظران على من تقع الدائرة فيكونان عليه ، فرأى أحدهما جبريل يقول : أقدم حيزوم يخاطب فرسه ، فكشف عن قناع قلبه فمات مكانه ، ومع ذلك أظنه أنه ما رآه على صورته ، ولكن لأنه رآه نزل من السماء ، وإلا لمات الآخر أيضاً .

(ولَلَبَسْنا عَليْهِم ما يلبِسُونَ) أى لخلطنا عليهم بالحكمة المذكورة ، وهى أنه لا طاقة لهم على رؤية الملك كما هو ما يخلطون على أنفسهم بالجهل والعناد ، ويقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ، ولو جعلناه ملكاً لكنا قد شبهنا الأمر عليهم حيث يظنونه رجلا لا ملكا فيبقون على قوله : « أبعث الله بشراً رسولا » « ولو شاء ربك لأنزل ملائكة » ونحو ذلك أو لبسهم ظنهم أهو ملك ، أو ظنهم أهو بشر ، أو للحق ضعفاءهم الشك ، هل هو ملك كما كانوا يريدون ، أعنى الأقوياء السائلين قيل فى شك فى النبوة والرسالة ، أو لبس الله عليهم عقابه إياه سماه لبساً للمشاكلة ، ولأنه جزاء لبسهم ولازمه ومسببه ، وقرأ الزهرى بتشديد باء لبسنا ، وتشديد ياء يلبسون المثناة التحتية .

(ولَقَد اسْتُهزِىءَ) بضم الدال تبعاً للتاء على القاعدة فى الساكن قبل همزة الوصل التى ضم ضما غير عارض ما يلى تاليها ، وقرأ حمزة وعاصم وأبو بكر بكسر الدال على أصل التخلص من التقاء الساكنين (برُسُلٍ مِنْ قَبْلكَ) متعلق بمحذوف نعت لرسل أو يستهزىء وذكر الرسل للتكثير والتعظيم ، أى تصبر يا محمد على ما ترى من قومك ، فوالله لقد استهزىء برسل كثيرين عظماء من قبلك ، كما استهزىء بك ، فينزل بمن استهزىء بك ما نزل من العذاب بهؤلاء ، ولو اختلفت أنواع العذاب .

(فَحاقَ بِهم ما كانُوا بهِ يسْتَهزئون) نزل بهم العذاب الذى يستهزئون به ، فما واقعة على العذاب ، وكانوا يستهزئون بالعذاب الذى يتواعدون به ، ويجوز وقوعها على الحق ، فأما على أنه سمى إحاطة العذاب بهم بإحاطة الحق بهم ، فلأن الحق هو سبب إحاطة العذاب بهم إذا استهزءوا به ، ولا يصح أن تكون ما مصدرية لتعطيل الهاء فى به ، إلا إن ردت إلى الحق المدلول عليه بالمقام .

ويجوز كونها موصولة عائدة إلى الحق على تقدير مضاف ، أى فحاق بهم وبال الحق الذى يستهزئون به ، ونسب الوبـال للحق ، لأن الحق سببه وملزومه من حيث استهزءوا ، أو لأنه مشتمل على الإخبار بذلك الوبـال .

(قُلْ سِيرُوا فى الأرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيفَ كانَ عاقِبةُ المكذِّبينَ) سيروا فى الأرض بالتجر إن شئتم ، فإنه مباح لكم ، وانظروا أولا بدء آثـار المكذبين المستأصلين بالهلاك قبلكم كى تعتبروا ، وثم للترتيب الرتبى ، أعنى أن رتبته النظر فى الآثار أعلى من رتبة السفر المباح .

ويجوز أن يكون الأمر للسير للوجوب أيضا ، أى أوجب الله عليهم أن يسيروا ثم ينظروا ، وثم كذلك ، فإن الواجبين متفاوتان ، فإن النظر مأمور به للذات ، والسير مأمور به ليتوصل إلى النظر ، وإذ قيل : فلينظروا فالفاء تعليلية ، أى سيروا لتنظروا عاقبة المكذبين ما يأتيهم من العذاب بعد تكذيبهم جزاء على تكذيبهم .

(قُلْ لمن ما فى السَّموات والأرْض) سؤال توبيخ بما عرفوه ، فإنهم عرفوا أن السموات والأرض وما فيهما ملك لهُ تعالى ، وخلق لهُ كما قال :

(قُلْ لله) أى قل هو لله ، فإنهم قد اعترفوا بذلك ، ولا يخالفونك ، ولا يمكن أن يجيبوا بغير ذلك ، فلا تتوقف حتى ينطقوا به جواباً ، وهذا الوجه أولى من أن يقال : قل لمن ما فى السموات والأرض ، وقل أنت هو لله إن لم يجيبوك ، ولا تملك الأصنام نفعاً ولا ضراً لنفسها ولا لغيرها .

(كتَبَ على نَفْسه الرحْمة) أثبتها على نفسه تفضلا لا إيجاباً ،

أى لا يجب على الله شيء ، لكن لابد من وقوعها ، لأنه لا يخلف الميعاد ، والمراد رحمة الدنيا والآخرة ، ومن ذلك الهداية إلى معرفته بالأدلة والكتب ، ومن ذلك إمهال الكافرين ، وعن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش أن رحمتى غلبت غضبى » وفى رواية : « تغلب غضبى » وفى رواية : « سبقت غضبى » ومعنى قضى الله الخلق أظهر قضاءه .

قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : اسأل لنا ربك هل يصلى لعلنا نصلى بصلاة ربنا ؟ قال : يا بنى إسرائيل اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، فأوحى الله إليه إنما أرسلتك لتبلغهم عنى ، وتبلغنى عنهم ، قال : يا رب يقولون ما قد سمعت ، يقولون اسأل ربك هل يصلى لعلنا نصلى بصلاة ربنا ؟ قال : فاخبرهم أنى أصلى ، وأن صلاتى سبق رحمتى غضبى ، ولولا ذلك لهلكوا عن آخرهم .

وعن أبى هريرة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق ويتعاطفون ، والجن والإنس ، والبهائم والهوام ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ولو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن العذاب » وفى الحديث : « فى يوم القيامة يكمل مائة رحمة مما بقى من الرحمة التى أنزل فى الدنيا ، يرحم عباده مائة رحمة » وفى الحديث عن سلمان مرفوعاً : « كل جزء طباق ما بين السماء والأرض » .

وعن عمر : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبى ، فإذا

امرأة من السبى إذ وجدت صبياً فى السبى أخذته وألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار وهى تقدر أن لا تطرحه ؟ » فقلنا : لا والله يا رسول الله ، فقال : « الله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها » .

(لَيَجمعَنَّكم إلى يَوم القيامة) والله ليجمعنكم فى يوم القيامة ، إلى بمعنى فى ؛ ولا يجوز أن تكون تقدير ليجمعنكم من قبوركم إلى يوم القيامة ، لأن الزمان لا يكون غاية للمكان ، والمكان لا يكون غاية للزمان ، ويجوز تقدير المكان ، فيصح أى ليجمعنكم من قبوركم إلى موقف يـوم القيامة ، فيكون المكان غاية للمكان ، ويجوز أن يكون المعنى : والله ليسكننكم فى القبور إلى يوم القيامة فيبعثكم ، ولا يصح أن يكون ليجمعنكم إلى يوم القيامة مع القسم المحذوف بدلا من الرحمة ، لأن الجملة لا تبدل من المفرد ، ولأن الجمع إلى يوم القيامة بعضه رحمة وهو جمع السعداء ، وبعضه غير رحمة وهو جمع الأشقياء ، فهو أعم من المبدل منه إلا عند مثبتى بدل الكل من البعض .

وكذلك لا يكون ذلك بدلاً من جملة : كتب على نفسه الرحمة ، لأن كَتْب الرحمة أخص من الجمع من حيث إن الجمع نشر إلى الجنة وإلى النار ، فليسه كله رحمة إلا على ذا القول ، بل الشاهر أن الخطاب للكفار فقط ، وقد يدعى أن ذلك بدل إضراب من الجملة ، والتحقيق أن الجملة مستأنفة ، وعلى كل حال فالمراد البعث الجزاء ، ففيه وعيد الكفـار ووعد للمؤمنين .

(لا ريْبَ فيه) لاشك فى إتيان يوم القيامة ، الهاء ليوم القيامة ، ويجوز عودها إلى المدلول عليه بقوله تعالى : « ليجمعنكم » لا شك فى

الحشر ، ولا شك فى جمعكم فى القبور ، أى فى إسكانكم فيها ماكثين إلى يوم القيامة ، وجملة « لا ريب فيه » مستأنفة أو حال من يوم أو نعت لمصدر محذوف ، أى جمعاً لا ريب فيه •

(الَّذين خَسِرُوا أنفسهم) منصوب على الاختصاص من عموم كاف ليجمعنكم ، فإن لفظه عام ، والمراد به الكفار فقط على الظاهر ، فبين بالذين خسروا أنفسهم نحو ما أفصحكم وأكرمكم معشر العرب ، فى أخص ذا الخطاب الذين خسروا ، أنفسهم أو أعنى الذين خسروا أنفسهم ، وفى ذلك ذم لهم أو خبر لمحذوف ، أى هم الذين أو مبتدأ خبره جملة هم لا يؤمنون من قوله :

(فهم لا يؤمنُون) ثبتت فيه الفاء لشبه المبتدأ باسم الشرط فى العموم ، أو للإبهام وترتبه على خسرانهم ، كترتب الجواب على الشرط ، على معنى أنهم رسخوا فى الخسران بالتوغل فى إهمال نظر العقل ، وفى التقليد فصاروا لا يؤمنون بذلك ، وإما على أن الذين ليس مبتدأ ، فالفاء عاطفة على الصلة عطف اسمية على فعلية ، والفاء فى هذا الوجه أيضاً السببية والترتب ، ومعنى خسران أنفسهم تضييعها للنار ، أو تضييع الإسلام الذى ولدوا عليه •

(ولهُ ماسكَنَ فى اللَّيل والنَّهار) له خبر ، وما مبتدأ ، والجملة معطوفة على قوله : « لله » ومبتدأه المحذوف ، أى قل هو لله ، وله ما سكن فى الليل والنهار ، وفى الكلام حذف ، أى وله ما سكن فى الليل والنهار وما تحرك فيهما ، فالسكون ضد الحركة ، وإن جعلنا سكن من المسكنى وهو التمكين فى الدار أو غيرها من المساكن لم تحتج إلى حذف ، أى وله ما جرى عليه الليل والنهار ، وهو شامل لما تحرك وما سكن ،

وفيه سلامة الكلام من الحذف ، مع حصول العموم الموجود فى الوجه الأول ، ولكن الأصل أن لا يجعل الليل والنهار مسكناً ، وإنما المسكن الأرض ونحوها من الأجسام ، ووجه الإطلاق السكنى على الكون فى الليل والنهار تشبيه اشتمالهما على من فيهما باشتمال ، نحو : الدار على من فيها ، ففى الوجه الأول إضمار ، وفى الثانى مجاز ، والإضمار لدليل المقدم على المجاز ، ثم إن أكثر المواضع لا ليل فيها ولا نهار كالسموات .

ولو قلنا : الشمس ليست تحت سماء الدنيا ، بل فى الرابعة ، لأنها ولو غابت لا تظلم لها السموات ، وكالعرش والكرسى ، وما لا يصله ضوء الشمس من البحر المحيط ، فإنها تغيب بالدوران من وسطه ولا تقطعه ، بل أكثر يكون من ورائها مظلماً أبداً ، وما وراء البحر المحيط من الأرض وجميع الفضاء والأجسام فوق السموات ، وفى جهة الأرض ، وفيما تحت هذه الأرض من الأرضين الست ، وكل ذلك أيضاً لله ، ولم يذكره لأن نعلمه بالقياس أو لذكره فى غير هذه الآية ، مثل قوله تعالى : « ألا لـه الخلق » ولو قلنا الخلق بالمعنى المصدرى ، لأنهم إذا كان له الخلق كان له المخلوق .

ويجوز أن يراد له ما سكن أو تحرك حين كان الليل ، أو كان النهار سواء أكان حيث الليل والنهار ، أو حيث لا ليل ولا نهار ، أو له ما تمكن حين كان الليل والنهار سواء أتمكن حيث الليل والنهار أو حيث لا ليل ولا نهار ، وقدّم الليل لتقدم جنسه وهو الظلمة ، إذا الضوء حادث بعدها ، والمناسبة السكون لقلة الحركة فى الليل ، لأنه للنوم والراحة كقوله تعالى : «وجعل لكم الليل لتسكنوا فيه » وأما على أن قوله : « سكن » من السكنى فقدم الليل لتقدم الظلمة ، وجود الصحيح عند المفسرين أن سكن هنا من السكنى ، وعندى أنه من السكون ضد الحركة .

(وهُو السَّميع) العليم بكل ما قيل (العليم) بذات الصدور ، وكل ما كان من فعل أو ترك فيثبت ويعاقب ، فهذا تضمن وعداً ووعيداً للمؤمنين والكافرين .

(قلْ أغَيْر اللهِ أتَّخذُ وليًّا) استفهام إنكار ، وقدم غير على أتخذ ، مع أنه مفعول به لأتخذ ، لأنه المستفهم عنه ، والمستفهم عنه يلى همزة الاستفهام ، وذلك أن الإنكار فى كون غير الله ولياً لا فى مطلق اتخاذ الولى ، وقيل : لو أخر عن أتخذ لأفاد ذلك ، ولكن تقديمه أتم فى ذلك على طريق العرب فى التقديم للاهتمام ، والولى الناصر والمعين ، قال مجاهد والطبرى : لما دعا المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دين آبائهم نزلت هذه الآية .

(فاطرِ السَّموات والأرْض) منشئهما وبادعهما ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما عرفت ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى ابتدأتها ، وفاطر نعت للفظ الجلالة ، وقرىء فاطر بالرفع خبر لمحذوف ، أى هو فاطر ، وقرىء فاطر بالنصب أى أعنى بالله فاطر السموات والأرض ، أو أمدحه ، وإضافة اسم الفاعل الذى للماضى تفيد التعريف ، إذ كانت للمعرفة ، فصح أن يكون فاطر نعتاً للفظ الجلالة ، ولا يمنع من ذلك فصله باتخذ ولياً ، لأن اتخذ عامل فى عامل منعوت ، فإن المنعوت لفظ الجلالة وعامله غير ، وغير مفعول لأتخذ ، وذلك مذهب الجمهور . وقال أبو البقاء : فاطر بدل من لفظ الجلالة ، لأنه للماضى كما قرأ الزهرى فطر السموات والأرض بصيغة الفعل الماضى ، وفتح ضاد الأربع نصب به ، وقيل : البدل أولى من فصل النعت إذ البدل على نية تكرار العامل .

(وهو يُطْعِم) يرزق عباده ما يكون (ولا يُطْعَمُ) لا يرزقه أحد ، لأنه لا يأكل ، وأنه المالك لكل شيء ، ولا يحتاج لشيء ، ولو قال وهو يَرزق ولا يرْزَق لعم ما ينتفع به مأكولا أو مشروباً أو غيرهما ، لكنه ذكر الطعام ، لأن الحاجة إليه أشد ، ويفهم الشراب منه ، لأنه يبنى على الأكل ، أو يدخل فى الطعام ، لأنه قد يقال : طعمت الماء ، وجملة هو يطعم حال من المستتر فى فاطر مستقبلة ، لأن الإطعام بعد خلق السموات والأرض ، لأن ما يأكل خلقه بعد خلقهما إلا أن يعتبر الحوت فى الماء قبل أن يخلق الأرض والسموات ، والحوت الحامل للخلق ، والطائر الذى يأكل فى كل يوم خردلة حتى فنيت ، وقد ملأت سبع دنيا كل مقدار دنيا كدنيانا هذه أو أكثر من سبع أو أقل ، ونحو ذلك مما يذكر فى القصص ، فتكون الحال مقارنة ، أو الجملة معطوفة على جملة ، هو السميع العليم .

وقراءة رفع فاطر تعطف على جملة هو فاطر ، وقرىء ولا يطعم بالبناء للفاعل ، أى ولا يأكل بفتح الياء والعين ، والضمائر فى القراءتين لله ، وكذا فى قراءة الأشهب ببنائهما للفاعل من الرباعى ، أى يطعم تارة ولا يطعم أخرى بحسب الحكمة ، مثل يقبض ويبسط ، أو المعنى ولا يستطعم ، حكى الأزرى : أطعم بمعنى استطعم ، وهذا بعيد ، وقرىء وهو يُطعم بالبناء للمفعول ولا يُطعِم بالبناء للفاعل بضم الياء ، وكسر العين والضمائر لغيره فى قوله : « أغير الله » أى كيف أتخذ غير الله ولياً ، والحال أن غير الله يطعمه ولا يطعم هو غيره ، إلا أن قدر الله ذلك فهو كسائر الحيوانات الناس وغيرهم ، أو يعتبر أن الناس يطعمون غيرهم ، وبعضهم بعضاً ، والدابة لا تطعم غيرها ، فيكون قد نزل عن درجة الناس ، إلا أن الدابة أيضاً قد تطعم الناس كالجارحة الصائدة وتطعم الدابة دابة أخرى ، وهذه القراءة عن ابن المأمون عن يعقوب .

(قُلْ إنى أُمِرتُ أنْ أكُونَ أوَّل مَنْ أسْلَم) لأن النبى يسبق أمته فى الدين ، ولو جاءهم وهم مؤمنون لأنه سابق فيما يوحى إليه ، قال الله جل وعلا : « وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » وهذا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال موسى : « سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » .

(ولا تكونَنَّ مِنَ المشْرِكِينَ) عطف على قل عطف نهى على أمر ، أى قل كذا ولا تكن من كذا ، كقولك : افعل كذا ولا تفعل كذا أو محكية بقيل محذوفاً ، والمحذوف معطوف على محكى قل : أى قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، وقيل لى : ولا تكون من المشركين ، كأنه قيل : وقل قيل لى : لا تكونن من المشركين ، ولو عطف لا تكونن على أن أكون لقيل ، ولا أكون ، نعم قد يجوز هذا العطف على طريق الالتفات من التكلم إلى الخطاب .

(قلْ إنِّى أخاف إن عَصَيتُ ربِّى عذابَ يَومٍ عَظيمٍ) تعريض لهم ، فإنهم عصَوا ولم يخافوا ما استوجبوه بعصيانهم من العـذاب العظيم ، ومبالغة فى قطع أطماعهم من أن يجيبهم إلى ما دعوه إليه من الشرك ، وهو المراد هنا بالعصيان ، وجواب إن أغنى عنه ذكر أخاف قبلها ، واليوم العظيم يوم القيامة .

(مَن يُصرفْ عَنه يَومئذٍ فَقَد رَحمهُ) أنعم عليه ، ومن وشرطها وجوابها جملة نعت لعذاب ، وضمير يُصرف عائد إلى عذاب أو حال مقدرة ، أو مسـتأنفة ، ومعنى يومئذ يوم إذ يكون ذلك العـذاب ، وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب وأبو بكر ، عن عاصم : يَصرف بالبناء للفاعل الذى هو الله تعالى ، وقرأ أبى بن كعب : من يصرف الله بذكر

الفاعل ظاهراً ، ففى قراءة الجمهور المفعول ضمير العذاب نائب عن الفاعل المستتر ، وفى قراءة حمزة ومن معه وأبى المفعول محذوف ، أى ومن يصرف عنه العذاب ، ومن يصرف الله عنه العذاب ، ويومئذ ظرف متعلق بيصرف ، والمفعول يومئذ على حذف مضاف ، أى من يصرف عنه هول يومئذ ، أو عذاب يومئـذ ، ومن يصرف الله عنه هول يومئذ ، أو عذاب يومئذ .

(وذَلكَ) الصرف (الفَوْزُ المبينُ) لأنه نجاة من النار ، يعقبها دخول الجنة ، أو ذلك المذكور من الرحمة .

(وإنْ يمسسك اللهُ بضُرٍّ) كفقر ومرض ، والباء المتعدية قائمة مقام همزة التعدية ، أى وإن يمسسك ضر بضم الياء وكسر السين الأولى أى يصير الله الضر ما سألك (فَلا كاشِفَ لَه) مزيل له عنك (إلاّ هو وإن يمسَسْك بخيرٍ) كغنى وصحة جسم (فَهُوَ عَلى كلِّ شَىء قَدِيرٌ) أى فقد جاءك من الله ، لأنه على كل شىء قدير ، فهو أيضاً لا يصلك ، ولا يقدر غيره على رده ، وإذا كان الخير والشر بيد الله ، فكيف أتخذ غيره وليًّا .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : « يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله فى الرخا يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، وإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين فاعمل ، وإلا ففى الصبر على ما تكره خير كثير ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه

الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً ولم يغلب عسر يسرين » وقال صلى الله عليه وسلم : « لن ينجي أحداً منكم عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ولكن قاربوا وسددوا ، واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد تبلغوا » .

(وهُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ) الغالب لخلقه على ما يريد ، لا يعجزه شيء ، الكامل القدرة الذي قدرته فوق قدرة السلاطين وغيرهم ، من كل قوي من خلقه ،وفوق متعلق بمحذوف خبر ثان ، أو حال من المستتر في قاهر ، وهو مؤكد ، والمراد بالفوقية علو القدرة .

(وهُوَ الحَكِيمُ) المتقن للأمر الواضع له موضعه المدبر للمصالح (الخبير) العليم بما يدق علمه كما في الصدور ، قال الكلبي : أتى قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله ، وما رأينا أحداً يصدقك ؟ فنزل قوله تعالى :

(قلْ) يا محمد لهؤلاء (أيُّ شيءٍ أكبَرُ شَهادةً) أي أعظم شهادة ، ولا يجدون أعظم من الله شهادة ، فإن قالوا : الله أكبر شهادة صدقوا وقد شهد الله لك بالرسالة ، ولكن لا يقولون في جوابك : الله أكبر شهادة ، ولو علموا أنه أكبر شهادة ، بل يسكتون أو يقولون الله أكبر شهادة ، وينكرون أنه قد شهد لكَ .

(قل) لهم لأنك على يقين من أمرك (اللهُ شهيدٌ بيني وبيْنَكم)

برسالتى هو الذى أخبركم بها ، الله مبتدأ ، وشهيد خبره ، وبينى متعلق بشهيد ، أو خبر ثان أو نعت لشهيد عند مجيز نعت الصفة ، والله معلوم عندهم أنه أكبر شهادة ، فإذا شهد له فقد شهد له من هو أكبر شهادة ، ففى كونه شهيداً تضمن لجواب أى شىء أكبر شهادة وزيـادة وحكمـة العدول ، إلى الجواب يكون الله شهيداً عن الجواب ، بأن الشىء الذى هو أكبر شهادة هو الله أن كونه أكبر شهادة معلوم له لا ينكرونه ، فأخبر أنه شهيد كذبتم أو صدقتم ، لأن الله قد شهد له ، فما له إلا أن يكتفى بذكر شهادة ، ولو أنكروا أن يكون قد شهد له .

ويجوز أن يكون الله مبتدأ خبره محذوف ، أى الله أكبر شهادة ، فهذا جواب فى قوله : « أى شىء أكبر شهادة » أجاب به ، هو أيضا لأنه لابد أن الله عنده أكبر شهادة ، فلا يلزم التوقف حتى يكون هم المجيبون ، وعلى هذا فيكون شهيد خبراً ثانياً ، والأول محذوف كما رأيت أو شهيد خبر لمحذوف ، أى هو شهيد ، والجملتان محكيتان بالقول ، وهذا الوجه هو مختار القاضى ، وفى الآية دليل على أنه يجوز أن يقول الله شىء ، لأن قوله : « قل الله » أو مع ما بعده وقع جواب لقوله : « أى شىء » ومثله استثناؤه تعالى من كل شىء فى قوله تعالى : « كـل شىء هالك » والأصل فى الاستثناء الاتصال ، وقيل : لا يقال الله شىء إلا أن يراد لا كالأشياء .

(وأوحِىَ إلىَّ هذا القُرآنُ لأنذِركُم بهِ ومَنْ بلَغ) عطف من على كاف أنذركم ، فكأنه قيل : لأنذركم به وأنذر من بلغه ، فالرابط هاء محذوفة ، وضمير بلغ عائد إلى القرآن ، أى أى أنذر بالقرآن من بلغه القرآن ، وزعم بعض أن المراد ومن بلغ الحكم ، وفى الكلام حذف آخر ، أى لا تذكركم به ، وأبشركم به ، وأنذر بـه من بلغ وأبشر ،

والخطاب لأهل مكة فيكون قوله : « ومن بلغ » لغيرهم من الجن والإنس العرب والعجم الموجودين فى ذلك الزمان ، أو بعده ، ودخل فيه من يوجد بعد من أهل مكة أو الخطاب للموجودين فى الدنيا كلها حال النزول من أهل مكة وغيرهم من الجن والإنس العرب والعجم ، فيكون قوله : « ومن بلغ » لمن يوجد فى أى موضع منهم كلهم ، فإن القرآن منذر مبشر بما فيه ، ومعجز بفصاحته وبلاغته ، وأخبار الغيوب الموافقة •

وعن مجاهد : الخطاب للمؤمنين من العرب ، وقوله : « ومن بلغ » بمعنى من أسلم من غير العرب ، قال محمد بن كعب القرضى : من بلغهُ القرآن فكأنما رأى النبى صلى الله عليه وسلم وكلمه وسمعه ، وقال أيضا : من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل ، قال سعيد بن جبير : من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم •

قال الغزالى فى الإحياء : ينبغى للتالى أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن ، فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهى والمأمور ، وكذا إن سمع وعداً أو وعيداً ، وكذا ما يقف عليه من القصص ، فالمقصود به الاعتبار ، قال تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » وقال تعالى : « هذا بيان الناس وهدى وموعظة للمتقين » وقيل : الخطاب لعباد الأصنام ، وقيل : المراد به قوم من اليهود ، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما نعلم مع الله إلهاً غيره ، فقال لهم : لا إله إلا الله ، وبذلك أمرت ، فنزلت الآية آمرة له بالإعلان بالتبرؤ من الشرك ، ولم يصح هذا •

وفى الآية دليل على أنه من حلف لا يكلم فلاناً ، فأرسل إليه كلاماً فى كتاب أو برسول فقرأ الكتاب أو قرىء عليه ، أو سمع كلام الرسول حنث ، لأن ذلك بلاغ ، ومن حلف أن يكلمه ، فكان ذلك بر هذا ما ظهر

لى ، وفيه دليل على أنه من لم يبلغه أن الله أنزل القرآن لم يكلف العمل بما فيه ، ويكلف بالتوحيد ، وذلك فى زمنه صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة ، وعندنا يعذر من كان على دين نبى ، ولم تبلغه الدعوى ، فلا يقاتل المشركون أو يسبوا ويغنموا إلا أن دعوا ، لأن الله تعالى قال : « ومن بلغ » فالدعوة لابد منها إلى يوم القيامة .

قال أنس بن مالك : لما نزلت هذه الآية ، كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر والنجاشى ، وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل ، فالآية مدنية ، ولا مانع من أن يكون ذلك فى مكة أيضاً ، لكن أنس بن مالك مدنى ، فإن كان ذلك بمكة أيضاً ، فلعله رواه عن غيره .

وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من بلغه أنى أدعوه إلى أن لا إله إلا الله فقد بلغته الحجة وقامت عليه » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يا أيها الناس بلغوا ولو آية من كتاب الله ، وأن من بلغ آية من كتاب الله فقد بلغ أمر الله أخذه أو تركه » أى عمل بما بلغه إلى غيره ، أو لم يعمل ، وعن عبد الله بن عمرو ابن العاص ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ فليتبوأ مقعده من النار » أى كل ما سمعتم عن بنى إسرائيل من التعاصى فهم أكثر مما سمعتم .

وعن ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نضّر الله امرأ سمع شيئا فبلغه كما سمعه فربّ مبلغ أوعى من سامع » .

وعن زيد بن ثابت ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« نضَّر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه » ومعنى نضر بالضاد المعجمة غير مشالة وهى مشددة بهجه ونعمه ونوّره ، ومعنى الحديث : أن حامل الفقه إلى غيره قد يكون لا يحقق معانى ما يحمل ولا يعمل بها ، وسامعه يحقق ويعمل ، قال ابن عباس : تسمعون ويسمع منكم .

وهذه الأحاديث كلها أدلة على أن الدعوة تتجدد ، وهى متصلة غير منقطعة كما زعم بعض أنها قد تمت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقتل المشركون ويسبون ويغنمون بلا دعاء ، لتقدم دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الربيع بن حبيب ، عن أبى عبيدة ، عن جابر بن زيد : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عليًا فى سرية فقال : « يا على لا تقاتل القوم حتى تدعوهم وتنذرهم وبذلك أمرت » قال : وجيء بالأسارى من حى من أحياء العرب ، فقالوا : يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ما دعانا أحد ، ولا بلغنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آ الله ، فقالوا : أى والله ، فقال :خلوا سبيلهم ، ثم قال : « حتى تصل إليهم دعوتى ، فإن دعوتى تامة لا تنقطع إلى يوم القيامة » ثم تلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » الآية .

قال ابن عمر والحسن : إن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تمت فى حياته ، وانقضت بعد موته ، فلا دعوة اليوم ، قال الربيع : قال أبو عبيدة : الدعوة غير منقطعة إلى يوم القيامة إلا من فجأك بالقتال ، فلك أن تدفع عن نفسك بلا دعوة .

(أئنكم) بتسهيل الهمزة الثانية ، وقرىء بإدخال ألف بين المحققة والمسهلة ، وقرأ الجمهور بتحقيق الهمزتين (لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) هذا من جملة ما حكى بالقول من قوله : « قل الله شهيد » فكأنه قيل : قل لهؤلاء المشركين أئنكم لتشهدون ، والاستفهام توبيخى أو تقريرى .

(قل لا أشهد) بما تشهدون (قل إنما هو) أى الله (إله واحد) لا إله معه (وإننى برىء مما تشركون) أى من إشراككم على أن ما مصدرية ، أو مما تشركونه ، أى من الأصنام التى تشركونها ، على أن ما موصولة اسمية ، أوجب الله عز وجل التوحيد من ثلاثة أوجه ، بل أربع :

الأول : قوله تعالى : « أئنكم لتشهدون » لأنه توبيخ على الإشراك ، وإنكار لثبوت الشريك .

الثانى : قوله تعالى : « قل لا أشهد » .

الثالث : « قل إنما هو إله واحد » بأداة الحصر الاصطلاحية ، وهو إنما ، وهو مبتدأ وإله خبره ، وواحد نعت أو خبر ثان أو بالحصر المطلق اللغوى ، وهو كل لفظ أفاده كفقط وحسب ، وأخص وأقصر ، وذلك بأن نجعل إنما إن واسمها وهو مبتدأ عائد إلى ما الموصولة التى هى اسم إن ، وإله خبر مبتدأ ، والجملة صلة ما ، وواحد خبر إن الذى هو إله يكون واحداً ، ولا يكون متعدداً .

الرابع : قوله : « وإننى برىء مما تشركون » وينبغى لمن أسلم من الشرك أن يقول بعد الجمل الثلاث : وأبرأ من الأصنام التى يشركها المشركون ، ومن إشراك غير الله به ، ومن كل دين سوى دين الإسلام .

(الَّذينَ آتيناهُم الكِتابَ) اليهود والنصارى ، والكتاب التوراة والانجيل (يَعْرِفُونه) يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهُ رسول الله إلى الناس كلهم بصفاته التى يذكر بها فى التوراة والإنجيل ، وقيل : يعرفون القرآن لذكره فى قوله : « وأوحى إلىَّ هذا القرآن » ويدل للأول قوله تعالى : (كَما يعرِفُون أبناءهم) فإن التشبيه بمعرفة الأبناء تناسب معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أراد القرآن لقال : كما يعرفون التوراة والإنجيل ، كذب الله عز وجل اليهود مع قولهم لقريش كما مر آنفا : إنا لا نعرف محمداً .

لما أسلم عبد الله بن سلام ، قال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنزل الله بمكة : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » كيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام رضى الله عنه : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ، ولا أنا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم منى يا بنى ، فقال عمر رضى الله عنه : كيف ذلك ؟ قال : أشهد أنه رسول الله حقاً ، ولا أدرى ما تصنع النساء ، أى وأما الولد فلعل المرأة زنت فكان من الزنى ، فقال له عمر : لقد أصبت وصدقت ، ذكره الشيخ هود رحمه الله وغيره باختلاف فى بعض الألفاظ ، وهذا من عمر وابن سلام تفسير لها ، يعرفونه برسول الله صلى الله عليه وسلم لا بالقرآن .

(الَّذينَ خَسِرُوا أنفُسَهم) ضيعوا أنفسهم عن الإسلام ، وثوابه به من أهل الكتاب وسائر المشركين ، فكانت منازلهم فى الجنة للمؤمنين ، ومنازل المؤمنين فى النار لهم ، والذين مبتدأ ، وخبره هو ما بعد الفاء من قوله تعالى : (فَهُم لا يُؤمنُون) من جملة المبتدأ والخبر ، وقرنت بالفاء لشبه المبتدأ باسم الشرط ، أو منصوب على الذم ، أو خبر لمحذوف أو بدل من الذين آتيناهم ، وإنما قال الله : « فهم

لا يؤمنون » لأنهم ضيعوا ما به يكتسب الإيمان وهو النظر ، هذا فى المشركين غير أهل الكتاب ، وأما المشركون أهل الكتاب فضيعوه ، لأنهم عرفوه وجحدوه عناداً صلى الله عليه وسلم .

(ومَنْ أظلم ممَّن افترَى علَى الله كَذباً) بأن قال : الملائكة بنات الله ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله مشيرين للأصنام ، أو قال إن عيسى ابن الله وأمه صاحبته سبحان الله وتعالى (أو كذَّب بآياته) آيات القرآن والكتب ، أو دلائله الدالة على وحدانيته تعالى ، ورسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وسمعوا ذلك سحراً وأو بمعنى الواو ، لأنهم جمعوا بين افتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته ، وأولى من هذا إبقاء أو على أصلها ، على معنى أن افتراء الكذب على الله غاية فى الظلم ، ولو لم يضم إليه التكذيب بالآيـات ، وإن التكذيب بالآيات غـاية فى الظلم ، ولو لم يضم إليه افتراء الكـذب فهما غايتـان مسـتويتان والاستفهام للنفى والإنكار ، أى لا أظلم ممن افترى ، والمراد أنه لا يساوى فضلا عن أن يفاق .

(إنَّه لا يُفلح الظَّالمونَ) مطلقاً فضلا عمن ظلم بالافتراء على الله ، والكذب بآياته ، أو المراد بالظلم من ذكر أى أنهم لا يفلحون ، فوضع الظاهر موضع المضمر ليسميهم ثانياً باسم الظلم .

(ويَوم نحشُرهُم جميعاً) واذكر يوم نحشر العابدين وما عبدوا من دون الله ، أو هو ظرف لمحذوف تهويلا ، أى ويوم نحشرهم جميعاً ثم إلخ ، يكون كيت وكيت ، وضمير النصب للمفترين المكذبين المذكورين ، أو التقدير ونحشر هؤلاء المقربين المكذبين يوم نحشر سائر المكـذبين المقربين على الاستخدام ، أو يوم نحشر سائر الناس .

(ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم) أى الأصنام التى هى عندكم شريكة لله تعالى فى الألوهية ، وقرأ يعقوب : يوم يحشرهم ثم يقول بالمثناة التحية فيهما (الذين كنتم تزعمون) أى تزعمون أنهم شركاء فحذف أن بفتح الهمزة واسمها وخبرها النائب المصدر من خبرها مناب مفعولين ، لاشتمال اللفظ قبل التأويل على الجملة ، وإنما قدرت ذلك ، لأن الأكثر فى مفعولى زعم أن يكونا كذلك ، فهو أولى من تقديرهما منصوبين ، هكذا تزعمونهم شرفاً ، وإنما قال الذين ، ولم يقل التى أو اللاتى أو نحو ذلك تنزيلا للأصنام عندهم منزلة العقلاء ، وإنما قال : « أين شركاؤكم » لأنها لم تحضر حين الخطاب لتزيد حسرتهم بعدم حضورها حين كانوا أحوج ما كانوا إليها على زعمهم فى الدنيا أنها تشفع لهم ، وعلقوا بها رجاءهم ، ويجوز أن تكون حاضرة حين الخطاب ، لكن نزلت منزلة ما غاب ، إذ لم تنفعهم أو يقدر مضاف أى أين شفاعة شركائكم .

(ثمَّ لم تكُن فتنتُهم إلا أنْ قالُوا واللهِ ربّنا ما كنّا مُشْركينَ) الفتنة فتنة الدين ، وهو صرفهم عن الدين الحق ، كما فسر ابن عباس الفتنة بالشرك على حذف مضاف ، أى عاقبة فتنتهم ، أى لم تكن عاقبة كفرهم إلا قولهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » حلفوا كاذبين مع علمهم أنه لا ينفعهم ذلك لشدة دهشتهم ، كما قالوا : « ربنا أخرجنا » مع إيقانهم بالخلود ، إذ أحبوا الأوثان وعبدوها ، وصرفهم ذلك عن الإيمان كمن أحب إنساناً ، فوقع فى محنة فلم ينفعه ذلك الإنسان ، فقلت له : ما كان صحبتك لفلان إلا أن فر منك ، أو الفتنة التخليص ، يقال : فتنت الذهب أى أخلصته من غيره ، أى ثم لم يكن تخليصهم أنفسهم من عذاب الله إلا قولهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » وليس بمخلص لهم ، فحينئذ يصح تفسير الفتنة بالمعذرة التى يتوفون .

كما قال قتادة الفتنة المعذرة ، وهو رواية عن ابن عباس ، وكذلك قال مجاهد التخاص بها ، أو الفتنة الجواب سماه فتنة لأنه كذب ، والكذب فتنة فى الدين أو سماه فتنة لأنهم قصدوا به التخلص كفتنت الذهب أى خلصته ، كما قال الضحاك الفتنة كلامهم ، أى كلام الكاذب ، وإنما قال لم تكن بتاء التأنيث ، مع أن فتنتهم خبر للكون لا اسم له ، والاسم هو قوله : « أن قالوا » لأنه يجوز تأنيث المبتدأ إذا كان خبره مؤنثا ، وإن قالوا مبتدأ فى الأصل ، وفتنتهم خبره فى الأصل ، وذلك قراءة نافع وأبى عمرو وأبى بكر ، وقراءة ابن كثير وابن عامر وحفص لم تكن بالتاء وفتنتهم بالرفع على أنه الاسم ، وإن قالوا خبر ، وقرأ الباقون بالياء التحتية ونصب فتنتهم على الخبرية ، وإن قالوا : الاسم وفى قراءة نافع اعتبار كون المصدر ضمير الصريح المنسبك من الفعل أشد تعريفاً من الصريح المضاف ، وكان لمنزلة العلم ، فكان أولى بأن يكون مبتدأه وقرأ لأكون والله ربنا بالنصب على النداء ، أى يا ربنا أو المدح ، أى أعنى ربنا ، ووجه الجر فى قراءة الجمهور البدلية ، وهى أولى من عطف البيان ، لأنهم يقولون ذلك لله ، والله أعلم أنه المراد بقولهم : والله ، وليسوا يقصدون بالكلام بعضهم بعضاً ومن النعت ، لأن لفظ رب تغلبت عليه الاسمية .

(انْظُرْ كيفَ كَذَبوا عَلى أنفُسِهِم) ينفى الشرك عنها إذا نفوا عن أنفسهم يوم القيامة وقوعه فى الدنيا ، وقد وقع منهم فى الدنيا فليس معنى قوله : « ما كنا مشركين » إنا ما كنا مشركين عند أنفسنا لقول الله تعالى : « كذبوا على أنفسهم » ومن قال هذا أجاب عن قوله : « كذبوا على أنفسهم » بأن المعنى كذبوا فى الدنيا بقولهم إنهم على صواب ، وأنه ما هم عليه ليس بشرك ونحو ذلك ، وأنه ليس المعنى كذبوا فى قولهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » وكانوا فى الدنيا يعتقدون أن

عبادة الأصنام تقرب إلى الله ، وأنها ليست شركاً ، وذلك جواب من يقول : إن الكفار لا يكذبون فى الآخرة ، وهو قول الجبائى من المعتزلة ، والباقلانى •

وقال الجمهور : إنهم يكذبون لظاهر الآية ، والمراد هو ظاهرها ، فإن ظاهرها أنهم كذبوا يوم القيامة إذ قالوا فيه : لم نشرك فى الدنيا ، فالآية دلت على أن الكذب مخالفة الواقع ولو طابق الاعتقاد ، أو سمى قولهم : ما كنا مشركين كذباً ، لأنهم أشركوا ولو طابق اعتقادهم أنهم لم يشركوا ، قال الله جل وعلا : « يوم يبعثهم الله جميعاً » الآية ، ويدل لقول الجمهور إنما بعد قوله : « انظر كيف كذبوا على أنفسهم » وما قبلها من قوله : « ويوم يحشرهم » فى أحوال الآخرة ، فجملة هو على الدنيا تكلف ، واذا قالوا ذلك ختم على ألسنتهم ونطقت الجوارح •

(وضلَّ عنْهُم) غاب وبعد عنهم (ما كانُوا يفْتَرُونَ) ما كانوا يفترونه من الأصنام ، أى من شفاعتها أو ما كانوا يفترونه فى شأن الأصنام من الشفاعة ، أو ما مصدرية ، أى بطل عنهم افتراؤهم ، والعطف على كذبوا ، فالتعجيب بكيف مسلط عليه كأنه قيل : وانظر كيف ضل عنهم •

(ومِنْهم مَنْ يسْتَمع إليكَ) حين تتلوا القرآن ، روى أنه اجتمع أبو سفيان ، والوليد ، والنضر بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأمية وأبى ابنا خلف ، والحارث بن عامر ، وأبو جهل وأضرابهم ، يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيبة ما يقول محمد ؟ فقال : والذى جعلها بيته ، أى جعل الكعبة بيته لا أدرى ما يقول ، إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثتكم

عن القرون الماضية ، فقال أبو سفيان : إنى لأراه حقاً ، فقال أبو جهل : كلا ، فنزلت الآية ، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الماضية ، وفى رواية قال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول حقا ، فقال أبو جهل : كلا لا نقر بشيء من هذا ، وفى رواية : الموت أهون علينا من هذا .

(وجَعَلْنا عَلَى قُلُوبهم أكنةً) أغطية جمع كنان بمعنى غطاء (أنْ يفْقَهوهُ) أى عن أو عن أن يفقهوه متعلق بأكنة ، لأن فيه معنى المنع فى إذ تعديته بعن ، أو من أو يقدر مفعول لأجله ، أى كراهة أن يفقهوه ، أو لام الجر ولا النافية ، وفيه تكلف ، أى لئلا يفقهوه ، والهاء للقرآن المدلول عليه بيستمع إليه .

(وفى آذانِهِم وقْراً) ثقلا يمنع السمع ، وليس جعل الأكنة والوقر جبراً على الشرك ، ولو كان ذلك لعذرهم ولم يمنعهم ، بل المعنى أنه خذلهم ولم يوفقهم ، إذ خلق الضلال فاختاروه فجبرهم اختياره إلى الأكنة والوقر ، بأن حصل به فى قلوبهم وصف يحبب إليهم الكفر والعصيان ، كما قال : بل طبع الله عليها بكفرهم ، وذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ، وقالت المعتزلة فى تسفير ذلك : إن القوم لما تمكن الكفر والمعصية منهم ، شبه بشيء خلق فيهم بلا اختيار منهم ، فكان لفظ ختم وطبع وجعل الأكنة والوقر ، ومنعوا أن يقال : كما قلنا معشر الإباضية والأشعرية وهو ما فسرناها به أولا ، وليس فى ذكر الوقر مع الأكنة تكرير ، لأن الموفق سمع بأذنه سماعاً موصولا للقلب ، سبباً للرسوخ فى القلب ، ثم يحققه القلب بأن لا يتعدى العمل بما سمع ، ويجوز أن يكون توكيداً على اعتبار أن سماع القبور هو الفقه ، والأول أولى ، لأن من سمع لهواً أو سمع إنكاراً أو رداً واستهزاء غير سمع من يستمع ،

ويقول فى قلبه أسمع لعل الحق فيه ، فهذا سمع قبول يليه التفقه ، وقرأ طلحة بكسر الواو •

(وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ) علامة على وحدانية الله ورسالة نبيه صلى الله عليه وسلم (لا يؤمنُوا بها) أنها آية إلهية ، بل يقولون سحراً وافتراء أو أسطورة ، أو لا يؤمنوا بالله ورسول الله صلى الله عليه وسلم بسببها • (حتَّى إذا جاءوكَ يُجادِلونَكَ) حتى هذه ابتداء لله فى معنى فاء السببية ، أى فهم إذا جاءوك يجادلونك ، ويجادلونك جواب إذا وقوله :

(يقُولُ الَّذينَ كفَرُوا إنْ هَذا إلا أساطِيرُ الأوَّلينَ) بدل من يجادلونك ، أو جواب سؤال مفسر كأنه قيل : ماذا يقولون فى جدالهم ؟ فأجيب بأنهم يقولون : إن هذا إلا أساطير الأولين ، أو يجادلونك حال من واو جاءوك مقدرة ، ويقول الذين إلخ جواب إذا ، ومقتضى الظاهر يقولون : إن هذا إلخ فوضع الظاهر موضع المضمر ، يسميهم باسم الكفر ، وقيل فى حتى الداخلة على إذا : إنها جارة فيجر إذا عن الظرفية والشرطية ، فيقول أمستأنف جواب السؤال ، أو مبدل من يجادلونك ، ويجادلونك حال ، ووجد كون يجادلونك جواب إذا أن يكون المعنى فهم إذا جاءوك لرسوخ الكفر والتقليد ، فهم كانت همتهم جدالك لا الإيمان ولا التبصر والنظر ، والأساطير جمع أسطورة بضم الهمزة أى أمر غريب مسطور عن الأوائل كأحدوثة الحديث الغريب العظيم ، وأعجوبة وأضحوكة ونحو ذلك ، ومعنى مسطور مكتوب ينفون أن يكون القرآن من الله ، وأثبتوا أنه كلام مكتوب عن الأوائل ، ويجوز أن يكون جمع إسطارة بمعنى أسطورة أو جمع إسطار جمع سطر ، وقيل : اسم يدل على الجماعة لا واحد له من لفظه •

وقيل : الأساطير الأباطيل المسطورة ، وقيل : جمع إسطارة بمعنى الكلام الذى خفى وجهه ، ولا تعلم صحته مأخوذ من قولهم إسطارة بمعنى الطريقة الغامضة الوعرة ، يقولون أخذنا فى الترهات ، أى فى طرق غامضة صعبة ، وليس قولهم : أساطير الأولين نفياً لحكمة القرآن ، بل نفى لا يكون من الله .

(وهُم ينْهَون عَنْه) أى ينهون الناس عن القرآن أن يؤمنوا به ، ويستمعوا له ، قاله قتادة ، أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به ، قاله ابن عباس والحسن . (ويَنأَوْن عَنْه) يتباعدون عنه ، أى عن الإيمان به بأنفسهم ، كأنهُ قيل : يأمرون الناس بالكفر ويكفرون ، ويجوز أن يكون المعنى ينهون الناس عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم محافظة له وشفقة عليه ، ويبعدون أن يؤمنوا به ، والتفسير الأول أرجح ، لأن أكثر المشركين من أهل مكة ينهون عن الإيمان به ، ويبعدون عنه ، ولأن المتبادر من نهى المشركين عن القرآن أو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، النهى عن الإيمان به ، وما تبادر إليه النقش أحق كما قال فى الإيضاح .

وأما أن يكون النهى عن إيذائه صلى الله عليه وسلم فما يعلم إلا من مواقف أبى طالب أنهُ ينهى الناس عن الإيمان به ولا يؤمن ، ولكن ابن عباس فسر الآية بأنهم ينهون عن إيذائه ولا يؤمنون به ، وما ذلك إلا أبو طالب ومن يتبعه ، وروى أن رءوس المشركين اجتمعوا إلى أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم فى شدة منعه إياهم عنه ، وقالوا : خذ شاباً من أصبحنا وجها ، وادفع إلينا محمدا ، فقال أبو طالب : مـا أنصفتمونى ، أدفع إليكم ولدى لتقتلوه وأربِّى لكم ولدكم ، وروى أن

بنى هاشم أجابوا أبا طالب فى منع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يؤذيه إلا أبا لهب لعنه الله ، فقال فى مدحهم :

إذا جتمعت يــوماً قريش لمفخـــر
فعبد منــاف سرهــا وصميمهــا

وإن حصــلت أشراف عبــد منافهــا
ففى هاشــم أشرافهــا وقديمهــا

وإن فخــرت يومــاً فــإن محمداً
هو المصطفى مــن سرهــا وكريمهــا

ولما رأى أبو طالب كثرة من كفر ومن يصد عنه ، تعوذ بالله وحرمة بيته وتودد قومه وقال :

ولمــا رأيت القـــوم لا ودّ فيهم
وقــد قطعوا كــل العرى والوســائل

وقــد صارحونا بالعــداوة والأذى
وقــد طاوعوا أمــر العــدو المزايل

وقــد حالفوا قومــا علينا أضــنة
يعضون غيظاً خلفنــا بالأنــامل

صرت لهم نفسى بســمراء ســـمحة
وأبيض غضــب مــن تراث المقــاول

وأخطــرت عنــد البيت رهطى وإخو
تى وأمسكت مــن أثوابــه بالوصائل

قياماً معاً مستقبلين رتاجه
لدى حيث يقضى خلفه كل نائل

أعوذ برب الناس من كل طاعن
علينا بسوء أو ملح بباطل

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه
وبالله أن الله ليس بغافل

وياليت حق البيت من بطن مكة
وراق ليرقى فى حراء ونازل

ومطىء إبراهيم فى الصخر رطبة
على قدميه حافراً غير ناعل

وتوقفهم فوق الجبال عشية يقيم
ون بالأيدى صدور الرواحل

وليلة جمع والمنازل من منى
وما فوقها من حرمة ومنازل

فهل بعد هذا من معاذ لعاند
وهل من معيذ يتقى الله عاذل

يطاع بنا أمر العدا وداتنا
تسد بنا أبواب ترك وكابل

كذبتم وبيت الله ننزل مكة
ونظعن أن أمركم فى بلابل

وبيت الله نبـــرى محمــدا
ولمــا نطــاعن دونـــه ونناضل

ونسلمه حتى نصـــرع حــوله
ونذهل عــن أبنــائنا والحــلائل

وينهض قــوم فى الحــديد إليكم نهو
ض الروايــا تحت ذات الصــلاصل

وأبيض يســتسقى الغمــام لوجهــه
ثمــال اليتــامى عصــمة للأرامل

يلوذ بــه الهــلاك مــن آل هاشــم
فهم عنــده فى نعمــة وفواضــل

لعمرى لقــد كلفت وجــداً بأحمــد
وإخوتــه دأب المحب المواصـــل

فمــن مثله فى النـــاس أى مؤمل
إذا قاســه الحكــام عند التفاضــل

حليم رشيد عــادل غــير طــائش
يوالى إلها ليس عنــه بغـــافل

فوالله لــولا أن أجىء بســـبة
تجر عــلى أشــياخنا فى المحــافل

لكنا اتبعناه عــلى كل حـــالة
مــن الدهر جداً غــير قــول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب
لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد فى أرومة
تقصر عنه سورة التطاول
حديث بنفسى دونه وحميته
وواقعت عنه بالذرى والكلاكل

ولما اجتمعت قريش على إبرام صحيفة يقطعون فيها بنى هاشم لأجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انحاذت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فقال أبو طالب :

ألا بلغا عنى على ذات بيننا
لؤياً وخصا من لؤى بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً
نبيـًا كموسى خط فى أول الكتب
وأن عليه فى العباد محبة
ولا خير ممن خصه الله بالحب
وأن الذى لصقتم من كتابكم
لكم كائنا نحساً كراعية السقب
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى
ويصبح من لم يجن ذنباً كذى الذنب
ولسنا ورب البيت نسلم محمداً
لضراء من عض الزمان ولا كرب

ولما تبين منا ومنكم سوالف
وأيد آثرت بالقساسية الشهب

أليس أبونا هاشم شد أزره
وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

ولسنا نمل الحرب حتى تملنا
ولا نشكى ما ينوب من النكب

ولكننا أهل الحفائظ والنهى
إذا طال أرواح الكماة من الرعب

ولما قام الخمسة المشهورون فى نقض الصحيفة فنقضوها ، قال أبو طالب :

ألا هل أتى تحرينا صنع ربنا
على نائهم والله بالناس أرود

فنخبرهم أن الصحيفة مزقت
وأن كل ما لم يرضه الله مفسد

فمن ينس من حضار مكة عزه
فعزتنا فى بطن مكة أتلد

نشأنا بها والناس فيها قلائل
فلم ننفك نزداد خيراً ونحمد

فنطعم حتى يترك الناس فضلهم
إذا جعلت أيدى المغيضين ترعد

وكنا قديماً لا نقر ظلامة
وندرك ما شئنا ولا نتشدد

جزى الله رهطاً بالحجون تتابعوا
على ملأ يهدى بحزم ويرشد

قعود لدى حطم الحجون كأنهم
مقاولة بل هم أعز وأمجد

قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا
على مهل وسائر الناس رقد

هم رجعوا سهل بن بيضاء راضياً
وسر أبو بكر بها ومحمد

والمراد بالبحرى الذين هاجروا إلى الحبشة ، وقال طالب بن أبى طالب وهو على شركه : لكن بعد وقعة بدر يبكى أصحاب القليب قصيدة منها فى النبى صلى الله عليه وسلم :

فيا أخوينا عبد شمس ونوفلا
فدى لكما لا تبعثوا بيننا حربا

ولا تصبحوا من بعد ود وألفة
أحاديث فيها كلكم يشتكى النكبا

فما إن جنينا فى قريش عظيمة
سوى أن حمينا خير من وطىء التربا

أخا ثقة فى النائبات مرزء
كريماً ثناه لا بخيلا ولا ذربا

يطوف به العافون يغشون بابه
يؤمنون بحراً لا نزوراً ولا صربا

واسم أبى طالب عبد مناف ، وقيل : شيبة بن عبد المطلب ، قال السيوطى : قال بن عساكر فى تاريخه قيل : إنه أسلم ولا يصح إسلامه ، وله رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر ابن عساكر والخطيب بسندهما إلى الحسن ، عن أبيه على بن أبى طالب قال : سمعت أبا طالب يقول : حدثنى محمد أن الله أمره بصلة الرحم ، وأن يعبد الله وحده ولا يعبد معه غيره .

وقال الزبير بن العوام : كان أبو طالب شفيقاً على النبى صلى الله عليه وسلم ، يمنعه من مشركى قريش ، جاءوه يوماً بعمارة بن الوليد وكان جميلا فقالوا له : قد عرفت حال عمارة ونحن ندفعه لك مكان محمد ، وادفعه إلينا ، فقال : ما أنصفتمونى أعطيكم بن أخى تقتلونه وتعطونى ابنكم أغذوه لكم .

قال ابن عساكر من طريق القاسم بن سلمان ، حدثنى أبى قال : مشت قريش إلى أبى طالب فقالوا : أنت أفضل قريش اليوم حلماً وأكبر سناً ، وأعظمهم شرفاً ، وقد رأيت صنع ابن أخيك فرّق كلمتنا ، وأفسد جماعتنا ، وقطع أرحامنا ، فادفعه إلينا نقتله ، ونعطك ديته ؟ قال : لا تطيب لذلك نفسى أن أرى مال ابن أخى بمكة وقد أكلت ديته ، قالوا : ندفعه إلى بعض العرب ، فيكون هو يقتله وندفع إليك ديته ونعطيك أى أبنائنا شئت ، فيكون ولداً مكان ولدك ؟ فقال لهم : ما أنصفتمونى تقتلون ولدى وأغذى أولادكم ، أو لا تعلمون أن الناقة إذا فقدت ولدها لم تحن إلى غيره ، ولكن إذا خصتم فى هذا فتعالوا يقتل كل قريشى ولده الشاب ،

فيقتل فى جملتهم ، فقالوا : لعمر أبيك لا نقتل أبناءنا وإخواننا من أجل هذا الصابىء ، ولكن سنقتله سراً وعلانية ، فعند ذلك يقول أبو طالب : ولما رأيت القوم الأبيات . . .

قال الواقدى : مات أبو طالب فى السنة العاشرة فى شوال من حين نبىء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن بضع وثمانين سنة ، وقال ابن إسحاق والبيهقى فى دلائله بسند فيه مجهول ، عن ابن عباس : لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طالب فى مرضه قال له : أى عمى قل لا إله إلا الله أستحل لك بها الشفاعة ، فقال : والله لولا أنهم يروننى قلتها جزعاً حين الموت لقلتها ، وروى قومنا أن العباس رضى الله عنه رأى أبا طالب يحرك شفتيه ، فأصغى إليـه العباس ليسـمع قوله ، فرفع العباس عنه فقال : والله قال الكلمـة التى سألت ، قـال ابن عمر : ربما ذكرت قول أبى طالب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمع ، وعنه صلى الله عليه وسلم : ما رأت قريش عنى كافة حتى مات أبو طالب ، وقيل مات أبو طالب قبل الهجرة بثلاث سنين .

وروى أنه لما حضرت الوفاة ، أبا طالب جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد عنده أبا جهل ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى عمى قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، وفى رواية أشهد لك بها عند الله ، فقال أبوجهل ، وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم ، هو على ملة عبد المطلب ، وفى رواية على ملّة الأشياخ ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما والله لأستغفرن لك ما لـم أنه عنك » وفى روايـة

أبى هريرة قال أبو طالب : لولا أن تعيرنى قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع من الموت لأقررت بهـا عينيك ، فأنزل الله تعـالى : « إنك لا تهدى من أحببت » الآية •

قال الثعالبى : قال السهيلى ، وأبو الربيع الكلاعى ، حكى عـن هشام بن السائب الكلبى أو ابنه أنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه ، وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدام الشجاع ، والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم بـه إليكم الوسيلة ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية يعنى الكعبة ، فإن فيها مرضاة للرب ، وقواماً للمعاش ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها ، فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل ، وزيادة فى العدد •

واتركوا البغى والعقوق ، ففيهمـا هلكة القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل ، فإن فيها شرف الحياة عليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فإن فيها محبة فى الخاص ، ومكرمة فى العام ، وأوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاءكم بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسـان ، مخلفة الشنآن ، وايم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البر فى الأطراف المستضعفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت ، فصـارت صـناديد قريش ورءوسها ذباباً ودورها خراباً وضـعفاؤها أرباباً وإذا أعظمهم عليـه أحوجهم إليه ، وأبعدهم عنه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها دونكم ، يا معشر قريش ابن أبيكم كونوا لـهُ ولاة ،

ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد بهداه إلا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ، ولأجلى تأخير لكفيت عنه الهزاهز ، ولدافعت عنه الدواهى ، ثم هلك .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا أبا طالب إلى الإيمان فقال : لولا أن تعيرنى قريش لأقررت بها عينيك ، ولكن أذب عنك ما حييت .

وقال :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدَع بأمرك ما عليك غضاضة
وأبشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتنى وعرفت أنك ناصحى
ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرفت دينا قد علمت بأنه
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة
لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

(وإنْ يهلِكونَ) ما يهلك الذين ينهون عنه وينأون عنه * (إلا أنفسَهمْ) لأن عقاب كفرهم عائد إليهم (وما يشْعُرون) أن ضرر كفرهم لا يتعداهم .

(ولَو تَرى إذْ وقفُوا على النَّار) أحضروا على شفيرها ، وقيل : على بمعنى فى ، أى وقفوا فيها ، أى أحضروا فيها ، وجواب لو محذوف تهويلا ، أى لرأيت أمراً عظيماً فظيعاً ، ووقف هنا متعد لبنائه للمفعول مع كون النائب ضميراً وكذا لو كان ظاهراً بخلاف ما إذا كان النائب ظرفاً أو جاراً أو مجروراً أو مصدراً ، فلا يدل على التعدى ، ومثله فى التعدية قوله تعالى : « وقفوهم » ويكون أيضا لازماً فيعدى بالهمزة أو بالتشديد ، وقرىء : « ولو ترى إذ وقفوا » ببنائه للفاعل من وقف اللازم ومصدر المتعدى الوقف واللازم الوقوف ، وقيل معنى وقفوا فى القراءتين من وقف على الشىء بمعنى اطلع على حقيقته ، فهذا بعد الدخول فيها صحيح ، وكذا إذا أحضروا على شفيرها ، وكذا إذا رأوها قاصدة إليهم وحققوها ، وكذا على معنى أنهم يرونها من بعيد غير قاصدة إليهم ، إذ لا ينافيه قوله :

(فقالُوا يا ليتَنَا نُردّ) لأن المعنى نرد إلى الدنيا ، وهذا مما يقولونه ولو رأوها غير قاصدة إليهم (ولا نُكذِّب بايآت ربِّنا) لو رددنا إلى الدنيا (ونكون مِنَ المؤمنين) فيها وجملة لا نكذب ، وجملة نكون من المؤمنين معطوفتان على نفس ليت ومعموليها ، فلم يسلط عليها التمنى إذ لم تعطف علىمعمولها ، كأنه قيل قالوا : ياليتنا نرد ، وقالوا : لا نكذب بايآت ربنا ، وقالوا : نكون من المؤمنين إن رددنا ، أو بمعنى لا نكذب بايآت ربنا ونكون من المؤمنين رددنا إلى الدنيا ، أو لم نردد وعندى لا تثبت واو الاستئناف ، بل هى عاطفة وصلا فى مقام الفصل لحكمة لطيفة تطلب الوصل ، ويجوز عطفهما على جملة نرد فيتسلط عليهما التمنى ، ويجوز أن تكون الواو للحال ، لأن المضارع منهى فلا يحتاج إلى تقدير المبتدأ ، فإن جعلنا تكون معطوفاً على الحال قدرنا فيه المبتدأ ، أى ونحن نكون إلا إن صح أن هذا مما اغتفر فيه نواتيه ما لا يغتفر

فى أوائله ، ويقف فى غير العطف على نرد ، قوله تعالى : « وإنهم لكاذبون » لأن عطفهما على نرد يصيرهما من التمنى ، والتمنى إنشاء لا يحتمل الصدق والكذب ، ووجه العطف على نرد مع ذلك أن التكذيب معتبر فيه ما تضمنه التمنى من الإخبار من أنهم لو رجعوا لصدقوا وآمنوا ، وقرأ حمزة ويعقوب وحفص : لا نكذب ونكون بالنصب ، بأن على المعية الفعل بعد الواو الواقعة فى جواب التمنى ، وقرأ ابن عامر بنصب نكون وحده على ذلك ، أو فى جواب النفى .

(بَلْ بَدَا لَهم) ظهر لهم . (ما كانُوا يُخفُونَ من قَبْل) أى عقاب ما أخفوه من قبل بقولهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » أى ظهر لهم عقابه فتمنوا الإيمان لمجرد التخلص من العقاب لا للرغبة فى الإيمان إن قيل لإبطال ما يفيده كلامهم ، من أنهم تمنوا الإيمان رغبة فيه لذاته ، من حيث إنهُ الحق ، فأفادت الآية أنهُ من آمن لمجرد أن يثاب ولا يعاقب لا ينفعه إيمانه ، وليست هذه صفة عامة المؤمنين ، بل يزيدون لذلك اعتقاد فضل الإيمان فى ذاته ، لكونه الحق ، ويجوز أن يكون الذى يخفون من قبل هو قبائح أعمالهم التى يعملونها سراً ، ومنها المنافقة بإضمار الشرك ، وكذا ما أخفاه أهل الكتاب من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا مانع من أن يرد الكلام إلى ذلك كله ، ويجوز أن يكون بدالهم بمعنى أنه ظهر لهم بنطق جوارحهم « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم » وقيل : ذلك فى المنافقين المضمرين خلاف ما نطقوا ، والعاملين بالمعاصى سراً ، وقيل فى أهل الكتاب .

(ولَوْ رُدُّوا) إلى الدنيا . (لَعادُوا) لرجعوا . (لما نُهُوا عنه) إلى ما نهوا عنه إلى الشرك والمعصية . (وإنَّهم لكاذِبُونَ) فيما وعدوا مِنْ أنفسهم من الإيمان لو ردوا ، وهذا كما تحقق إبليس وكفر مع ذلك .

(وقالـُوا) عطف قصة على أخرى ، لأن هذا القول فى الدنيا قبل الموت والمعطوف عليه هــو قوله : « ولوردوا لعادوا لمــا نهوا عنــه » أو هو قوله : « وإنـَّهم لكاذبون » وقيل : عطف على قوله : « لعادوا » فيكون هذا القول مقدراً منهم فى الدنيا لو عادوا إليها بعد الموت ، ولا يصح أن يكون معطوفاً على نهوا ، لأن نهوا صلة ، والمعطوف على الصلة لا بد له من ربط ، ولو بفاء السببية ولا رابط فى قالوا ، وإن ادعى أن قالوا صلة لموصول محذوف ، أى ولما قالوا فتكلف مع أنهْ أيضا لا رابط بين قالوا والموصول المقدر ، وإن ادعى تقدير ما الموصولة الحرفية ، فيعطف المصدر على ما أى لعادوا لما نهوا عنه ، ولقولهم فتكلف أيضا .

(إنْ هِيَ) أى مطلق الحياة . (إلا حَيَاتـُنا الدُّنيا وما نـَحْنُ بمبْعُوثين) فالمعنى على عطف قالوا على عادوا أنهم لوردوا إلى الدنيا لأنكروا البعث أيضا ، كما أنكروه قبل الموت ، وبه قال زيد بن أسلم ، وهذا لا يليق بمن لــم ينكر البعث فى الدنيا ، فهــو مصروف إلى أهل الكتاب ، ولا بأس بسوق الكلام مجملا فى بعض الأمر ومصروف إلى بعض فى بعض الأمر الآخر ، أو تعبر أيضا أن أهل الكتاب منكرون البعث ، لأن النصارى يقولون : تبعث الأرواح فقط ، واليهود يقولون : نمكث فى النار أربعين يوماً أو مقداراً مخصوصا ، والأمر غير ذلك ، فكان إنكاراً لما هو شأن البعث الحقيقى .

(ولو تـَرَى إذْ وقفـُوا على ربـِّهم) يستحيل حمله على حقيقته ، وهى أن تكون أقدامهم على الذات الواجب الوجود ، لأنه تعالى لا يوصف بجسم ولا بعرض ، ولا بحلول فى مكان ولا بجهة ، ويستحيل حمله على المشهور ، وهو هنا أن يكون المراد وقوفهم على مكان يقرب من مكان فيه الله ، تعالى الله عن ذلك كما زعمت المشبهة المجسمة لعنهم الله ، لأنه

تعالى لا يوصف بالحلول فى مكان ، ولا جهة ولا جسم ، ولا عرض ، فيحمل على مجاز آخر ، وهو أن يكون المعنى حبسهم للسؤال والتوبيخ ، وهو استعارة مركبة بأن شبه إحصار الله الله إياهم فى المحشر وحبسهم فيه ، وسؤالهم وتوبيخهم بإحضار السيد عبده وحبسه بمحضر ، وسؤاله وتوبيخه لجامع مطلق الإحضار والحبس والتهديد ، أو يقدر مضاف أى على عقاب ربهم أو جزائه أو قضائه أو حكمه أو نحو ذلك ، أو يكون الوقف بمعنى الاطلاع على حقيقة حكم الله أو وعيد الله ، وقال مقاتل : المعنى عرضت أعمالهم على الله تعالى .

(قالَ أليْس هَذا بالحقِّ) استئناف بيان ، لأنهُ قيل : ماذا قال ربهم حين وقفوا عليهِ ، فقال : « قال أليس هذا بالحق » أى أليس هذا المذكور من البعث والجزاء بالحق ، والهمزة للتوبيخ ، والقائل الملائكة خزنة النار أو غيرهم .

(قالُوا بَلَى وربنا) أى قالوا إنهُ الحق والله ، حين لا ينفعهم إيمانهم . (قال) الله بملائكته (فذُوقُوا العَذابَ) كان الكلام بلفظ الذوق لأنه يكون إحساساً بحلاوة الطعام أو مرارته أو غير ذلك ، فهو عبارة عما يحسون من المر العذاب ، أو كان بلفظ الذوق ، لأن كل نوع من العذاب غير الآخر فهى كأشياء متخالفة ، أو لأن كل عذاب أشد مما قبله . (بما كُنْتُم تكْفُرُونَ) أى بكُفركُم فما مصدرية ، أى بسبب كفركم أو بدل كفركم .

(قَدْ خَسِر الَّذين كذَّبُوا بلقاءِ الله) أى كذبوا بالبعث وخسرانهم هو فوات الجنة ، أو لقاء الله البعث والحساب ، وخسرانهم فوات الجنة وحصول العذاب الدائم . (حتَّى إذا جاءتْهُم السَّاعة)

معنى حتى عائد إلى كذبوا بلقاء الله ، أما على القول بأنها جارة لإذا ، فالمعنى أنهم مصرون على التكذيب إلى أن جاءتهم ساعة الموت ، أو إلى أن جاءهم يوم القيامة ، والمراد أيضاً وقت الموت ، لأنه من مات فقد قامت قيامته ، فالميت داخل فى اليوم الآخر من حين مات ، والقيام من القبور يكون فى بعض ذلك اليوم الأخير ، أو سمى ساعة الموت باسم يوم البعث ، لأنه يظهر فيها تحقيق البعث ، وسمى يوم القيامة ساعة لسرعة الحساب فيه ، حاسبون فيه قدر ساعة أو أقل ، وأما على القول بأنها ابتدائية فإنها كفاء السببية فى الترتيب ، فيكون جواب إذا مترتباً على تكذيبهم .

(بغْتةً) حال ، أى ذات بغتة أو باغتة ، أو مفعول مطلق ، أى مجىء بغتة أو مفعول مطلق باعتبار أنها نوع من المجىء ، والبغتة الفجأة من غير أن يشعر الإنسان ، فلو علم بمجىء الشىء فى وقت مخصوص فجاء فيه بسرعة لم تقل فيه جاء بغتة ، والوقت الذى تقوم فيه الساعة تفجأ الناس فى ساعة لا يعلمها أحد إلا الله ، وذلك أعظم على الخلق كما قال الشاعر :

ولكنهم باتوا ولم أخش بغتة
وأفظع شىء حين يفجأك البغت

قال بعض العلماء لا يعرف مقدار الحياة إلا الموتى ، لأنهم قد ظهرت لهم الأمور ، وانكشفت لهم الحقائق ، وتبدلت لم المنازل ، وعلموا مقدار الأعمال الصالحات .

(قالوا يا حَسْرتنا) إن كان لك وقت حضور فاحضرى ، فهذا أوان حضورك ، نعى الله عليهم ترك ما أحوجم تركه إلى نداء الحسرة .

(على ما فرّطْنا فيها) ما مصدرية ، أى على تفريطنا فيها ، ومجرور فى هو ضمير عائد إلى الحياة الدنيا ، وإن لم يجر لها ذكر لدلالة ذكر التفريط فى العمل عليها ، لأن العمل زمانه الحيـاة الدنيا لا الآخرة . وقال الحسن البصرى : الضمير عائد إلى الساعة على معنى ما فرطنا فى شأن الساعة ، وشأن الساعة تقديم العمل الصالح والإيمان بها إن كانت ساعة يوم القيامة ، وإن كانت ساعة الموت فلا أحد لا يؤمن بالموت ، فالمراد شأنها الذى هو التقديم .

وقال محمد بن عبـد الله بن جرير الطبرى : عـائد إلى الصـفة المدلول عليها بقوله : خسر إذا استبدلوا الكفر بالإيمان ، فكـان كبيع بصفقة خاسرة ، قال أبو سعيد الخدرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يرى أهل النار منازلهم فى الجنة فيقولون يا حسرتنا على ما فطرطنا فيها » فلا مانع من عود الضمير إلى منازلهم فى الجنة المدلول عليها بذكر الساعة ، فإن الإنسان يرى منزله فى الجنة إذا مات وإذا بعث ، ولا يدخله فيشتد تحسره .

(وهم يحمِلونَ أوْزارهُم عَلى ظُهُورهم) يجيئـون ربـهم بذنوبهم إذ لم يتوبوا ويعملوا ما يمحوها ، والمشرك تمحوا ذنوبه كلمـة الشهادة ، سمى الذنب أوزاراً لثقلها بالعقاب ، ورشحه بذكر الحمل على الظهور ، أو سمى المجىء إلى الله حملا على الظهور ، وقيل ذلك حقيقة بأن تأتيهم عند البعث ذنوبهم هى أقبح صورة وأنتن رائحة فتركبهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الكافر إذا خرج من قبره مثل له عمله فى أقبح صورة رآها أقبح وجهاً وأنتن رائحة وأسود لوناً ، فيقول : أعوذ بالله منك ، فما رأيت أقبح منك وجهاً ولا أنتن منك ريحاً ولا أسود لوناً ، فيقول : أتعجب من قبحى ؟ فيقول : نعم أنا عملك الخبيث ، والله كنت

تركبنى فى الدنيا ، وإنى والله لأركبنك اليوم ، فذلك قوله تعالى : « وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم » رواه الشيخ هود رحمه الله ، وذكره قتادة والسدى .

وذكر قبله أن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شىء صورة وأطيبه ريحاً ، فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : لا ، فيقول : أنا عملك الصالح فاركبنى ، فقد طال ما ركبتك فى الدنيا ، فذلك قوله تعالى : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » يعنى ركباناً .

وقال عمرو بن هانىء : يحشر مع كل كافر عمله فى صورة رجل قبيح ، كلما رأى هول صورته وقبحه ازداد خوفاً ، فيقول له بئس الجليس أنت ، فيقول : طال ما ركبتنى فلأركبنك اليوم حتى أخزيك على رءوس الخلائق فيركبه ويتخطى الناس ، حتى يقف بين يدى ربه .

قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة بعث الله مع كل امرىء مؤمن عمله ، وبعث مع الكافر عمله ، فلا يرى المؤمن شيئاً يروعه ، ولا شيئا يفزعه ويخافه إلا قال له عمله : أبشر بالذى يسرك فإنك لست بالذى تراد بهذا ، ولا يرى الكافر شيئا يروعه ، ولا شيئا يفزعه ويخافه إلا قال له عمله أبشر يا عدو الله بالذى يسوءك ، فوالله إنك لأنت الذى يراد بهذا ، ويجوز أن يكون المعنى أن ذنوبهم لا تزايلهم فى الدنيا ، لأنهم لا يتركونها فى الدنيا ، ولا يتوبون حتى وردوا يوم القيامة ، ولا يزايلهم ، ولا كما يزايلهم عقابها أو لا تزايلهم تلك الصورة التى تتصورها فيدخلون معها النار ، والجملة حال من واو قالوا .

(ألا ساءَ ما يزرُون) ألا حرف استفتاح وتنبيه وتوكيد لمضمون الجملة ، وساءَ بئس ، وما نكرة موصوفة بالجملة تمييز مفسر بفاعل ساء المستتر ، أو فاعل أو موصول فاعل ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى بئس شىء يزرونه وزرهم ، أى بئس الذى يزرونه وزرهم ، أو مـا مصدرية ، والمصدر فاعل ، والمخصوص محذوف .

(وما الحياةُ الدُّنيا إلاَّ لعبٌ ولَهوٌ) باطل وغرور تلهى عمـا يورث المنفعة الدائمة لا تبقى لم تخلق لذاتها ، إنما خلقت للحياة الدائمة ، فالعاقل يستعملها للحياة الدائمة ففى ذلك رد على منكرى البعث ، وعلى قولهم : « إن هى إلا حياتنا الدنيا » وسمى الله الحياة الدنيا لعباً ولهواً على الإطلاق ، لأن كل ما فيها من مباح لم يصرف للآخرة أو مكروه أو معصية من مؤمن أو كافر لا نفع فيه للآخرة ، يوشك أن ينقطع فيتحسر به المؤن والكافر ، وأفاد ذكر اللعب واللهو أنها سريعة الزوال كاللعب واللهو ، وأنها لا تثمر نفعاً كاللهو واللعب ، إلا أن تزود منها ، ولابد من تقدير أى ما أمر الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، أو كلعب ولهو ، أو مـا أهل الدنيا إلا أهل لعب ولهـو ، وقيل : المراد بالحياة الدنيا حياة الكـافر والمنافق ، لأن المؤمن يزيد بحياته خيراً ، وعن ابن عباس : يريد حياة أهل الشرك والنفاق .

(وللدَّارُ الآخِرة خَيرٌ للذِينَ يتَّقون) الشرك والمعاصى من الدار الأولى ، لدوامها وخلوص لذاتها عما يكدرها ، وكثرتها وعظمها ، علق الدار الآخرة بالتقوى ، فأعمال غير المتقين لهو ولعب ، إذ لا تجر الدار الآخرة ، واللام للابتداء ، والآخرة نعت ، وقرأ ابن عامر وابن عباس : ولدار الآخرة بلام الابتداء ، وإضافة دار إلى الآخرة أى ولدار الحياة الآخرة ، ولدار الساعة الآخرة ، ووجه التفضـيل أن فى الدنيا

أيضا لذة ومنافع ، ويجوز أن يكون خير اسم تفضيل خارجاً عن معنى التفضيل ، وأن يكون بمعنى المنفعة ، وللذين متعلق به مطلقاً ، أو نعت لهُ في الوجه الآخر ، واللام للبيان كغفراناً لزيد .

(أفلا تعقلون) أن الآخرة خير من الأولى فتعلمون لها ، والخطاب للمشركين ، وقرأ بالتحتية ، أي أفلا يعقل المشركون .

(قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) من أن ما تجيء به أساطير الأولين ، وأنك لست نبياً قد للتكثير والهاء للشأن ، والذى يقول على القول أو الكلام ، أي ليحزنك الكلام الذى يقولون ، أو القول الذى يقولون ، ويحزن مضارع أحزنه وهو عند نافع ، وقرأ غيره بفتح الياء من حزنه بمعنى أحزنه .

(فإنهم لا يكذبونكَ) مضارع أكذب إذا وجده كاذباً ، أو نسبه إلى الكذب ، كأفسقت الكافر بمعنى وجدته فاسقاً ، أو نسبته للفسق ، وذلك قراءة نافع والكسائى ، وقرأ غيرهما لا يكذبونك بفتح الكاف وتشديد الذال لا ينسبونك إلى الكذب ، والمعنى في القراءتين أنهم لا يعتقدون في قلوبهم أنك كاذب .

(ولكنّ الظالمين بآياتِ اللهِ يجحدون) بألسنتهم عناداً لتمرنهم في الكفر ، روى أن جبريل عليه السلام ، وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حزيناً فسأله فقال : كذبنى هؤلاء ، فقال : إنهم لا يكذبونك ، بل يعلمون أنك صادق ، ولكن يجحدون بألسنتهم ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان المشركون يسمون رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمين ، وعرفوا أنه لا يكذب في شيء ، ولكن جحدوا ، وكان أبو جهل يقول :

لا نكذبك وإنك عندنا لصدق ، ولكن نكذب ما جئتنا به ، يرى إنما جاء به قد جاء إليه به جان أو أساطير وصلتك تحقيقاً لم تكذب فيها ، ولكنها ليست من الله ، وليس الذى يأتيك جبريل ، وقال الأخنس بن شريق لأبى جهل : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أهو صادق أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيره ؟ فقال له : والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ ! فنزلت الآية .

وقال أبو جهل وغيره : إنا لنعلم أن محمداً صادق ، ولكن إذا آمنا به فضلنا بنو هاشم بالنبوة ، فنحن لا نؤمن به أبداً ، ومقتضى الظاهر « ولكنهم بآيات الله يجحدون » ووضع الظاهر موضع المضمر يسميهم باسم الظلم ، والباء فى بآيات الله يجحدون صلة لتأكيد الجحود وآيات مفعول يجحدون ، أو الباء لتضمن ما يتعدى بالباء كيكذب .

(ولَقد كُذِّبتْ رسلٌ من قَبْلِك) كثيرة عظام ، ومن قبلك نعت رسل ، أو متعلق بكذب ، هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له ، وهذا مما يدل على التفسير الأخير فى قوله : « فإنهم لا يكذبونك » وهو أن المعنى أنهم لا يصيرونك كاذباً بجحودهم ، سواء جحدوا بألسنتهم فقط أو بها وبقلوبهم ، لأن الرسل قبله كذبتهم أممهم بألسنتهم قلوبهم ، أو بعض كذلك وبعض بألسنتهم .

(فَصبرُوا على ما كُذِّبوا وأوذُوا) عطف على كذبوا ، وما مصدرية ، أى فصبروا على تكذيبهم وإذائهم ، ويجوز عطفه على كذبت رسل ، أى كذبت رسل من قبلك وأوذوا ، وإذا عطف على واحد قدر مثله للآخر ، وكأنه قيل : ولقد كذبت رسل من قبلك وأوذوا ، فصبروا

على ما كذبوا وأوذوا ، وذلك أنه لا يحسن أن يقال : ولقد كذبت رسل من قبلك وأوذوا فصبروا على التكذيب فقط دون الإيـذاء ، ولا أنهم كذبوا فقط فصبروا على ما كذبوا وأوذوا معاً .

(حتَّى أتاهُم نصْرنَا) حتى ابتدائية ، ولا تخلـوا عـن معنى الغاية لأنها كفاء السببية ، وهى للربط والاتصال ، فاصبر على التكذيب والإيذاء كما صبرت الرسل من قبلك ، ويأتيك نصرنا كما أتاهم نصرنا ، وتفريع حتى أتاهم نصرنا على صبروا أولى مـن تفريعه عـلى كذبوا وأوذوا ، والمراد بالنصر القهر والغلبة ، أو إهلاك الأعداء ، أو إظهـار البراهين والحجج ، والآية ، وعد النصر للصابرين .

(ولا تَبْديل لكَلمات ِ الله) مواعيده ، وهى قوله : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين » الآيات ، إذ تتضمن غلبة الرسل ، وقوله : « ألا إن حزب الله هم الغالبون » وقوله : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » ونحو ذلك .

(ولَقَد جَاءك مِنْ نبإ المرْسَلين) من صلة للتأكيـد وبناء فاعل عند الأخفش ، المجيز زيادة من فى الإيجاب والتعريف ، والمـانع يجعلها للتبعيض تتعلق بمحذوف وجوباً نعت لفاعل محذوف ، أى جاءك شىء ثابت حق نبأ المرسلين ، أى شىء هو بعض نبأ المرسلين ، ونبأهم هو خبرهم الواقع بينهم وبين أمهم ، إذ كانت أممهم تؤذيهم ويصبرون ويكذبونهم ، فما يمنعهم التكذيب عن التبليغ والتكرير ، وروى أن بعض المشركين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من قريش فقالوا : يا محمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل ، فإنا نصدق بك ، فأبى الله أن يأتيهم بها ، فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك عليه فنزل قوله تعالى :

(وإنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهم فإن اسْتطعتَ أن تَبْتغى نَفقاً فى الأرضِ أوْ سُلَّمًا فى السَّماءِ فتأتِيهم بآيةٍ) أن الثانية وشرطها وجوابها المحذوف جواب الأولى ، أى وإن كان شق عليك إعراضهم عنك وعن الإيمان بما جئت به ، فإن استطعت أن تطلب سَرَباً فى الأرض وتحصله فتخرج لهم من جوفها آية ، أو مصعدا فى جهة السماء فتنزل لهم آية منها فافعل ، لفظ الآية مع ما حذف منها أمره صلى الله عليه وسلم بفعل ذلك إن استطاع ، والمراد بيان شدة حرصه على إسلام قومه ، حتى إنهْ لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض ، أو من فوق السماء ، لأتاهم بها رجاء إيمانهم .

وقال الفخر : المقصود من هذا الكلام أن يقطع الرسول عليه الصلاة والسلام طمعه عن إيمانهم ، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان وإقبالهم على الكفر ، وهذا عندى أولى ، على أن المعنى لا يؤمنون ، ولو فعلت ذلك كقوله تعالى : « قل كونوا حجارة أو حديداً » الآية ، واختار بعضهم الأول ، وفى الأرض نعت نفقاً ، وفى السماء نعت سلماً ، أو يتعلقان بتبتغى قبل ، أو حالان من المستتر فى تبتغى ، وليس كذلك ، وفى على أصلها ، ويجوز أن تكون الثانية بمعنى إلى .

(ولوْ شَاء اللهُ) أن يجمعهم على الهدى ، أو ولو شاء الله أن يؤمنوا كلهم . (لجَمَعهُم عَلى الهدَى) ولكن لم تتعلق مشيئته بذلك ، بل منهم كافر ومنهم مؤمن ، وشقى وسعيد ، وشكور وكفور ، « لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين » فلا تتهالك يا محمد على إيمانهم ، لعلك باخع نفسك ، فإن الله جل وعلا أراد إيمان المؤمن ، وكفر الكافر ، ولا تتبدل إرادته ، وأحبَّ الطاعة وأمر بها ، وأبغض المعصية ونهى عنها ، والمعتزلة لما قالوا لا يريد الكفر قالوا : المعنى لو شاء الله

أن يلجئهم إلى الإيمان إلجاء لأتاهم بآية تلجئهم ، ولكن لا حكمة فى ذلك ، لأن إيمان الإلجاء لا ثواب له ولا مدح .

(فلا تكونَنَّ مِنَ الجاهِلينَ) بالحرص على ما لا يكون ، والتحزن على أمر أراد الله إمضاءه ، وهو كفر فمالك إلا التزام الصبر ، واحتمال المشقة ، فإن الجزع فى موطن الصبر من عادة الجاهلين ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أصاب أحدكم هم أو حزن فليقل : الله ربى لا أشرك به شيئاً سبع مرات » أو المعنى لا تكون ممن جهل أنهم لو شاء الله لجمعهم على الهدى ، وقال المهدوى : الخطاب فى المعنى لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وضعف لأنهُ خلاف الظاهر ، والتأويل خلاف الظاهر ، ولكن مثله وارد ، كقوله تعالى : « إما يبلغنَّ عندك الكبر » « لئن أشركت ليحبطن عملك » وقيل المعنى لا تجزع على إعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم .

(إنَّما يسْتجيبُ) إلى الإيمان (الَّذين يسْمعونَ) القرآن سماع قبول ، وهم الذين فتح الله قلوبهم للإيمان (والموتى يبْعثُهم الله) أى والذين كفروا الشبيهون بالموتى فى عدم الاستجابة والسمع ، قاله قتادة والحسن ومجاهد ، يبعثهم لله بعد موتهم من قبورهم .

(ثم إليه يُرجَعُون) فيجزيهم بأعمالهم ، أو المراد بالموتى كل من مات فيشمل الكفار والمؤمنين ، فيتضمن أيضاً الكلام عقاب الكفار ، وعلى كل حال فالمستجيب يفوز باستجابته ، والكفار يهلكون بعد البعث ، فلا يحزنك أمرهم ، ولا تحرص على هداهم ، فقد ختم على قلوبهم وهم كالموتى فلا يستجيبون إلى الإيمان ، وقيل المعنى إن الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ، فحينئذ يسمعون ويعقلون ، وقال الحسن : معنى يبعثهم يخرجهم من الكفر إلى الإيمان ، وقرأ ترجعون

بالتاء ، ويجوز أن يقدر ثم إلىَّ يرجعون أو ترجعون ، وعلى الخطـاب فالخطاب للناس كلهم أو للموتى على طريق الالتفات ، وقرىء بفتح ياء يرجعون وكسر الجيم •

(وقالـُوا) أى رؤساء كفـار قـريش (لـَوْلا نزِّل علَيْه آيةٌ مِنْ ربِّه) هلا أنزل عليه ملك يكون علامة على نبوته صلى الله عليه وسلم ينطق بها ، أو هلا أنزل عليه آية من ربه تشبه مائدة عيسى أو ناقة صالح •

(قـُلْ إنّ الله قادرٌ على أن ينزِّل آيةً ولكنَّ أكثرهـُم لا يعـْلمـُون) أنه من طلب آية مجسمة فجاءته ولم يؤمن عاجله العقاب المستأصل ، كما مسخ أصحاب المائدة وقوم صالح ، أو قالوا لولا أنزل عليه آية من ربه غير الآيات المتكاثرة لكن من جنسها « قل : إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » وجه المصلحة فى إنزالها أو لا يعلمون وجه كونها آية فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا بما أنزل من الآيات ، وقيل : ولكن لا يعلمون أن الله قادر على تنزيل الآية ، وإن صارفاً من الحكمة يصرفه عن إنزالها ، وقيل : لا يعلمون أن لهم فيما أنزل كفاية عن غيرها ، واحترز بالأكثر عن القليل ، فإن قليلا منهم يعلمون ذلك مع بقائهم على الشرك أو عن القليل الذين سيؤمنون من الرؤساء ، وقرىء بإسكان النون وتخفيف الزاى •

(وما مـِنْ دابـَّةٍ فى الأرض) تدب على وجه الأرض (ولا طائرٍ يـَطيرُ بجنـَاحـَيـْه) اذكر قوله : « فى الأرض » وقوله : « يطير بجناحيه » لتأكيد عموم الدابة وعموم الطائر ، كأنه قيل : ما من موضع فى الأرض يصلح للدبيب لو دبت فيه دابة ، ولا يقع طيران بجناحين ، وهـذا

العموم زائد على عموم ما من دابة ولا طائر ، وأيضاً ذكر يطير بجناحيه لئلا يتوهم أن المراد بالطيران صبحاً والسرعة ، أو غيرها ، وقرأ ابن أبى عبلة برفع الطائر عطفاً على موضع دابة ، لأن دابة فاعل جر بمن المستغرقة ، ففى هذه القراءة يكون الاستغراق نصاً فى دابة ، لتسلط من المذكورة عليه ، وطائر غير نص ، لأن من لم تعتبر فيه والأجر ويستفاد استغراقه من قوله : « يطير بجناحيه » ومن المقام ومن الخارج ٠

ومن قال : النكرة فى سياق النفى تفيد الاستغراق نصاً ولو بدون من ، قال : إن قوله : « ولا طائر » بالرفع يفيده ، ولكن قوله : « وما من دابة » أعظم استغراق بمن ، وهذا البحث ظهر لى محتملا الإمكان أن يكون ولا طائر بالرفع نصاباً ، باعتبار أن العطف لما كان على دابة المستغرقة كان معناها وهو نص الاستغراق واقعاً على المعطوف ، ولو لم يظهر فيه أثره ، وكان بعض العلماء لا يسمى الطائر دابة لهذه الآية ، إذ ذكر بعد الدابة ، ورد بقوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » وأنه عطف الطائر على دابة عطف خاص على عام ، لحكمة أن الطائر أشد امتناعاً من غيره ، وأنه يذب ويطير ، ومع ذلك لا يفوت الله ، وبقى الحوت وهو داخل قبل فى الطائر ، لأنها تسبح فى الماء كما يسبح الطائر فى الهواء ، والظاهر أنه داخل فى الدابة لأنها تدب فى الماء كما تدب الحية فى الأرض ، على أن تجعل فى الأرض نعتاً لدابة لا متعلقاً ، ويراد بالأرض ما فى هذا المركز السفلى إلا يرى أنه لا يخرج ما لو صنع له بيت من شجر ، وأسكن فيه وأيضاً قد يسبح الحوت منسحباً على الأرض لمعونة الماء ٠

(إلا أمم أمثالكم) أمم خبر المبتدأ الذى هو دابة ، وأمثالكم نعت أمم فجميع الدواب والطيور أمم ، مماثلة لكم فى كونها مخلوقة مقدرة

الرزق ، مؤجلة معلومة له تعالى ، يعرف بعضها بعضاً ، وتتألف محفوظة كما أنتم مخلوقون مقدرة أرزاقكم ، مؤجلون محفوظون معلومون لله تعالى ، فمن كان كذلك كامل القدرة شامل العلم والتدبير ، كيف لا يقدر ينزل آية ، وجمع أمما باعتبار المعنى ، لأن دابة وطائر يعمان إذ كانا فى سياق النفى فهما طيور ودواب لا دابة واحدة ويروى أحد ، فالطير أمة ، والدواب الإنسية أمة ، والوحش أمة ، كما أن الإنس أمة ، والجن أمة ، أو كل نوع أمة ، فالحمامة أمة ، والهدهد أمة ، والصرد أمة ، والإبل أمة ، والضأن أمة ، وهكذا ويدل له قوله صلى الله عليه وسلم : « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم » والمراد فالدابة غير بنى آدم لأنه ذكر بنى آدم بقوله : « أمثالكم » .

وقيل : وجه الشبه فى قوله : « أمثالكم » الحساب والقصاص ، فإذا كانت البهائم تقتص من بعضها لبعض ، فأنتم أحرى ، إذ أنتم مكلفون عقلاء ، قال أبو ذر رضى الله عنه : انتطحت عنزان بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أتعلمون فيما انتطحتا ؟ » قلنا : لا ، قال : « فإن الله يعلم وسيقضى بينهما » وبذلك قال الطبرى ، وأما مكى وهو عالم مغربى أندلسى ينسب إلى مكة لأنه طلب العلم فيها فقال : وجه الشبه أنها تعرف الله وتعبده ، قيل إن الحيوانات توحد الله وتسبحه ، وتصلى له ، وقيل : أمثالكم فى طلب الرزق ، وتوقى المهالك ومعرفة الذكر والأنثى .

(ما فَرَّطْنا فى الكِتابِ مِنْ شَىْءٍ) أى ما قصرنا ، والتفريط التقصير فى الشىء المعتاد إليه مع قدرة عليه ، قال أبو حيان فى تفسيره المسمى بالبحر : أصل فرطنا أن يتعدى بفى ، ثم يضمن معنى أغفلنا فيتعدى إلى مفعول به وهو هنا كذلك ، فيكون من شىء فى موضع المفعول

به انتهى . يعنى أن من لتأكيد العموم ، وشىء مفعول به ، ويجوز أن يكون شىء مفعولا مطلقاً ، أى ما فرطنا شيئاً ، أى ما فرطنا تفريطاً ما ، أى لا تفريط ولو أقل قليل ، وقرأ علقمة ما فرطنا بتخفيف الراء والتشديد أبلغ ، والأبلغية ترجع إلى النفى ، والكتاب اللوح المحفوظ ، فإن فيه جميع ما يجرى فى الخلوقات من حركة وسكون ، ورزق وأجل ، وعدد وغير ذلك فى الحيوان وغيره .

وقيل : الكتاب القرآن فشىء على القول الأول عام فى جميع الأشياء ، وعلى الثانى بمعنى ما يحتاج إليه من أحكام الدين ، فإن كل ما يحتاج إليه من أمر الدين قد اشتمل عليه القرآن بتصريح أو تضمين وتفصيل أو إجمال ، مع أن التفريط التقصير فيما لا بد منه ، فلا يشكل بما لا يحتاج إليه من مسائل الدين التى لا تقع البلية بها ، والإجماع حجة ، وخبر الواحد حجة ، والقياس حجة أثبتها القرآن ، وكل ما دل عليه أحد الثلاثة ، فمن القرآن قال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » وقال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وكان ابن ابن مسعود يقول : مالى لا ألعن من لعنه الله فى كتابه ، يعنى الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة .

وروى أن امرأة قرأت جميع القرآن ثم أتته فقالت : يا ابن أم عبد تلوت البارحة ما بين الدفتين فلم أجد فيه لعن الله الواشمة ؟ فقال : لو تلوتيه لوجدتيه ، قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ومما أتانابه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : « لعن الله الواشمة والمستوشمة » .

وروى أن الشافعى كان جالساً فى المسجد الحرام فقال : لا تسألونى عن شىء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى ، فقال رجل : ما تقول فى المحرم إذا قتل زنبوراً ؟ فقال : لا شىء عليه ، فقال : أين هذا فى كتاب الله تعالى ؟ فقال قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ثم ذكر إسناداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » ثم ذكر إسناد إلى عمر رضى الله عنه أنه قال : للمحرم قتل الزنبور ، فأجابه من القرآن بواسطتين .

(ثم إلى ربِّهم يُحْشَرونَ) يجمعون بالبعث من قبورهم وأماكنهم التى هم فيها ، فيحشر الطائر من أرض مات فيها ويلى وما أشبه ذلك ، فقيل : يحشر كل حيوان حتى القمل والبعوض ، ثم تعود تراباً ، قال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتردُّون الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من القرناء » .

وروى عن ابن عباس أنه لا يبعث إلا الجن والإنس والملائكة ، وأما حشر سائر الحيوان فهو موته بمعنى أنه جمع إلى الله بموته ، وبه قال بعض ، وأجاب عن أحاديث أخذ القرناء بالجماء بأنها كناية عن العدل البليغ يوم القيامة وهو ضعيف ، قال أبو عمر وعثمان ابن خليفة وقوله : « وإذا الوحوش حشرت » قال أبو عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنه : حشرها فناءها ، وغيره قال : تحشر ثم تحاسب ، ويؤخذ من القرناء للجماء ، ثم يقال لها كونى تراباً ، وذلك فى الحديث كثير ، وهو فى حديث الزكاة وغيرها وقوله : « يوم نطوى السماء كطلى السجل للكتب » فيها فناؤها وفناء الأشياء كلها على التلاشى لا على الانقلاب ما خلا المكلفين ، وأطفال المسلمين فناؤهم كلهم على الانقلاب ، وأما

أطفال غير المسلمين فالله أعلم وأحكم أعلى الانقلاب يكون فناؤهم أم على التلاشى أم على الانقلاب والتلاشى ، وقد ذكر الله : « وإذ الموءودة سئلت » .

(والَّذِينَ كذَّبوا بآياتنا) ما يدل علينا من آيات القرآن ، وقيل : القرآن ومحمد سيدنا صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ، وكلما يدل على توحيده وكل خلق يدل عليه .

(صمٌ) كالرجال الذين لا يسمعون لأنهم لما لم ينتفعوا بما سمعوا من القرآن والآيات السمعية ، أو لا يستمعون إليه كانوا كمن لم يسمع ، وزادوا بالعقاب ، وهذا يدل على ما فسرت الآيات به من أنها آيات القرآن ، لأن ذكر الصم يناسب السمع .

(وبُكْم) كالرجال الذين لا ينطقون لخرس فيهم ، لأنهم لا ينطقون فنطقهم بغيره كلا نطق لعدم الفائدة ، بل عليهم العقاب ، وإن شئت فقل : صموا عن سماع الحق سماع قبول ، وبكموا عن النطق به .

(فى الظُّلمات) خبر ثالث ، والثانى بُكْم بواسطة العطف ، أى خابطون فى ظلمات الكفر ، أو ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد ، ويجوز أن يكون حالا من المستتر فى بُكْم ، وقال أبو حيان : خبر لمحذوف ، أى هم فى الظلمات أو نعت لبُكْم أو حال من الضمير المقدر فى الخبر . (مَنْ يَشإِ اللهُ) إضلاله (يضْلِلهُ) باختياره لا جبراً وكسبه (ومن يشأ) توفيقه (يجْعلْه على صِراطٍ مُستقيمٍ) باختياره وتوفيقه ، وذلك عدل من الله تعالى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

(قلْ أرأيتكم) أخبرونى أيها الكفرة العبدة الأصنام ، وذلك

أن الرؤية أو العلم بالشيء سبب للإخبار الاستفهامى ، والكاف حرف خطاب أكدت به التاء ، والميم هى التى تتصل بالتاء فى نحو : ضربتم ، لكن فصلت بينهما الكاف ، وليست بالتى تتصل بالكاف فى نحو ضربكم ، فالفاعل التاء ، والميم علامة على أن المراد بها الجماعة ، والكاف تأكيد للخطاب بها والفصل بها ، مما يدل على أن الفاعل فى نحو ضربتم هو التاء وحدها ولواحقها علامات على المراد إذ لا يفصل بعض الضمير ولم تؤخر الكاف لئلا يكون اللفظ على صيغة غير واردة ، ولم تقــدم لأن المؤكد بعد المؤكد ، ولأنه بصيغة ضمير النصب وهو لا يسبق فى الاتصال ضمير الرفع ، وأصل هذه التاء الضم ، لأنها التى تتصل مع الميم الشبيهة بالواو التى تناسب الضم فى نحو : ضربتم ، ولكن لما فصلت بالكاف رجعت لأصلها الأول وهو الفتح ، لأنها للخطاب ، هذا ما ظهر لى فى تحقيق المقام .

وظهر لى وجه آخر هو أن التاء فاعل كما فى الوجه الأول المراد به الجماعة كما فى الوجه الأول ، لكن ليست الميم لها ، بل للكاف كميم ذلكم ، استغنى بهما إذ كان الكاف للخطاب ، والميم حرف للجماعة جماعة الذكور ، لعدم حرف علامة الإناث عما يلحق التاء من الميم فى نحو : ضربتم ، والكاف أيضا فى هذا الوجه حرف خطاب ، وقال الكوفيون : الكاف مفعول به ، والميم له لا للتاء ، ويرده أنه يقال : أرأيتك زيداً مــا شأنه ، أو أرأيت زيداً قائما ، فيلزم أن يتعدى رأى إلى مفاعيل ثلاثة بلا همزة للاستفهام ، ولأنه لو كان كذلك لقيل أرأيتموكم ، وقد ذكر غير هذا البحث فى سورة الأسرى أو غيرها ، والهمزة بعد الراء مسهلة فى أرأيتم ، أو رأيت وأرأيتم وأفرأيتم ونحو ذلك مما فيه قبل الراء همزة عند نافع ، ومحذوفة عند الكسائى ، ومحققة عند حمزة والباقين إلا أن حمزة يسهلها فى الوقف .

(إنْ أتاكم عذابُ اللهَ) كما أتى غيركم ممن كان قبلكم كالغرق والمسخ ، والخسف والريح والصيحة ، وكالضر الذى يصيب ، كغرق السفينة ، وهجوم القدم والمرض ، وجواب إن محذوف دل عليه أرأيتكم ، وجملة أغير الله تدعون مفعول به برأيتم منعتها عن العمل ، وإنما نصب آرأيتكم المفعول وهو الجملة ، مع أنه بمعنى أخبرونا ، لأن فيه معنى أعلمونا ، وباب العلم والظن ينصب الجملة ويعلق عنها بالاستفهام مثلا أودع عنك معنى أخبرونا ، وقد بمعنى أعلمتم بفتح العين بعد همزة الاستفهام ، والمفعول لجملة كذلك ، وقامت مقام مفعولين ، أو قل مفعولاه محذوفان ، أى أرأيتكم آلهتكم تنفعكم ، أى هل علمتم آلهتكم تنفعكم

(أوأتتكم السّاعةُ) يوم القيامة ، وإذا لم تجعل قوله عز وجل (أغير اللهِ) الاستفهام للإنكار (تدْعُون) مفعولا لرأيتكم فهو مستأنف أغنى عن جواب قوله : (إنْ كُنتمْ صادقينَ) وإذا جعلناه مفعولا لرأيتكم فمجموع « أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون » مغن عن جوابه ، وغير مفعول لتدعون على كل حال ، والمعنى إن كنتم صادقين فى أن الأصنام تقربكم إلى الله أو فى إن الأصنام تنفعكم ، وقيل : جواب إن محذوف تقديره إن كنتم صادقين فادعوه ، أى فادعوا غير الله .

(بلْ إيّاه تدْعُون) أى بل تدعون الله وحده ، فالتقديم إفادة الحصر (فيكْشفُ) يزيل (ما تدْعُون إليْه) أى ما تدعونه إلى كشفه من الضر (إنْ شاءَ) كشفه بأن اقتضت الحكمة كشفه ، وإلا لم يكشفه ، ولذلك قال إن شاء (وتنْسوْن) تتركون عند إيتان العذاب أو الساعة (ما تُشْركونَ) ما تشركونه بالله فى الألوهية ، لما ركز فى العقول من أن القادر على كشف الضر هو الله ،

ويجوز أن يكون النسيان بمعنى الزوال عن الحافظة ، أى لايبقى عندكم فى قلوبكم ذكر الآلهة لشدة العذاب أو الساعة وهول ذلك ، وفسر الحسن النسيان هنا بمعنى الترك ، كما فسرته به أولا ويجوز أن تكون ما مصدرية أى تنسون الإشراك .

(ولَقَد أرسَلنا إلى أممٍ من قَبْلك) رسلا فكذبوهم (فأخذْنَاهم) لتكذيبهم (بالبأساء) الفقر والمجاعة (والضرَّاءِ) المرض والوجع والخوف والذل ، ولما كان المراد بالبأساء والضراء نوعاهما من المكاره ، قال القاضى : هما مؤنثان لا مذكر لهما ، قلت : لا مانع من أن يجعل الضر والبأساء مذكرهما بمعنى هما ، والأكثر على أن البأساء فى المال والضراء فى البدن (لعلَّهم يتضرَّعُون) يتذللون إلينا تائبين من ذنوبهم ، ومع ذلك لم يتضرعوا ، وهذه الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(فلولا إذْ جاءهُم بأسُنا تضرَّعُوا) لولا حرف توبيخ ، أى لولا تضرعوا إذ جاءهم بأسنا ، ومعلوم أن التوبيخ على شىء كان من ثبوت أو نفى ، وهاهنا على انتفاء التضرع ، فاستدرك على هذا الانتفاء قوله : (ولكِن قَسَت قلُوبُهم وزيَّن لهم الشَّيطانُ ما كانُوا يعْملونَ) كأنه قيل ما تضرعوا ولكن صرفهم عن التضرع قساوة القلب وتزيين فإن قوله : « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا » يتضمن أنهم لم يتضرعوا ، الشيطان لهم أعمالهم ، حتى أعجبتهم فأصروا عليها وقسوة القلب غلظته عن أن يتأثر فيه الحق .

(فلمَّا نسُوا ما ذُكِّرُوا به) أى تركوا ما وعظوا به ، أو تركوا العمل بما أمرتهم الرسل بالعمل به كذا قيل ، والمناسب لما قبله أن

يكون ما ذكروا به البأساء والضراء ، والنسيان قيل : حقيقة فى الترك ولو عمداً ، وفى الذهاب عن الحافظة ، وقيل : حقيقة فيه مجاز فى الترك عمداً بأن شبه الترك عمداً بالترك نسياناً مبالغة ، لأن الزائل عن الحافظة ليس فى الحافظة .

(فَتَحْنا) وقرأ ابن عامر بالتشديد فى جميع القرآن ، فوافقه يعقوب فى غير هذا ، والذى فى الأعراف (عَلَيهِم أَبْوابَ كُلِّ شىءٍ) من النعم أى مخارج النعم مثل أن يثمر لهم الأرض والشجر ، وينمى لهم الضرع والبطن امتحاناً بالرخاء بعد الامتحان بالشدة ، واستدراجاً ، وقال عليهم للكثرة إذ غمرهم فى الخيرات ، وغلب عليهم ، وقيل : بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة فى الرزق ، ومكان الضراء الصحة والسلامة ، أخذهم أولا بالمكروه ليتضرعوا ، وثانياً بالمحبوب ليشكروا ولم يفعلوا ، وذلك إلزام للحجة ، وإزاحة للعذر ، وهو متضمن للمكر بهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « مكر بالقوم ورب الكعبة » قال عقبة بن عامر : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله تعالى يعطى العباد ما يشاءون على معاصيهم فذلك استدراج ، ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به » الآية .

(حتَّى إذا فَرِحُوا) فرح بطر واشتمال عن الشكر بالمعاصى (بما أوتُوا أخذْناهُم) استأصلناهم إلينا (بغتة) فجأة (فإذا هم مبْلِسُون) منقطعون عن الرجاء ، قال بعض السلف : فلما أخذ الله قوماً قط إلا عند سلوتهم وغبطتهم ، أغفل ما يكونون فيجيئهم أعظم إياس عند أعظم أمن ، قال الحسن : ومن وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له ، ومن فتر عليه فلم ير أنهُ ينظر إليه فلا رأى

له ، ثم قرأ عليه الآية ، وقال الزجاج : المبلس الشديد الحزن والحسرة ، وقيل : المطرق برأسه من الحزن .

(فقُطِع دابرُ القَوم الَّذينَ ظلمُوا) آخرهم وذلك أن قطع آخر الشىء كناية عن قطعه كله ، حتى وصل القطع آخره ، أى قطعوا كلهم ، وهو مأخوذ من قولهم دبر القوم يدبرهم أى تبعهم ، فقد يقال : المعنى قطعت أتباعهم كأولادهم وعبيدهم ونسائهم ، فإن قطع هؤلاء ونحوهم كأجزائهم ، يؤخذ منه قطعهم ، فالمراد قطعهم كلهم ، وقال : الأصمعى : الدابر الأصل أى فقطع أصلهم ، أى قطعوا فلا يكونوا أصلا لغيرهم بعدهم ، لأنهم ماتوا كلهم ، أى قطع أن يكونوا أصلا لغيرهم ، أو قطع صلهم كناية عن إهلاكهم ، فإن ما قطع أسفله المبنى عليه يفسد كقطع أصل النخلة والجدار .

(والحمدُ لله ربِّ العَالمِينَ) أثنى الله تعالى على نفسه بقطع دابرهم ، وإزاحة الناس من شرهم ، وإظهار حجة الرسل ، وفيه تعليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، الحمد على قطع دابر المشركين إذا قطع الله دابر المشركين .

(قلْ أرأيتم إن أخَذَ اللهُ سَمْعكُم وأبْصاركُم وخَتَم على قلُوبِكم مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكُم بهِ) الاستفهام للتوبيخ أو تعجيب ، ومفعول أرأيتم جملة مَن إله غير الله يأتيكم به ، أى أخبرونى من إله غير الله يأتيكم به ، أو أعلمتم من إله غير الله يأتيكم به ، لا تعلمونه لعدمه ، والتعليق بالاستفهام فى الوجهين ، والاستفهام فى مَن إله للإنكار أو المفعول الأول محذوف ، أى أرأيتم وأبصاركم وجملة من إله هير الله مفعول ثان ، والرابط هاء به لرجوعه إلى الأسماع وللأبصار

بالتأويل كما يأتى ، ومعنى أخذ السمع الإصمام ، وأخذ الأبصار الإعماء ، والختم على القلوب منعها عن الفهم لما يفهم الناس ، فيكونون كالمجانين أو البهائم .

ومن مبتدأ ، وإله خبر أو بالعكس ، وغير نعت إله ويأتيكم نعت ثان ، وهاء به عائدة إلى حالهم سابق قبل الأخذ والختم ، أى يأتيكم بما كنتم عليه من السمع والبصر والفهم ، وهذا كما يشار إلى غير الواحد بإشارة الواحد بتأويل ما ذكر ، أى يأتيكم بذلك ، وضعف أن يكون الضمير لها أخذ ولما ختم ، ولو قيل به على أن يكون الآخر ما لحقا به .

(انْظُرْ كَيْف نصرِّف الآياتِ) دلائل التوحيد والنبوة النقليات والعقليات ، ومعنى تصريفها تكريرها تارة من جهة المقدمة العلقية ، أعنى ما يكون حجة فى العقل ، وتارة من جهة الترغيب والترهيب ، وتارة بالتنبيه والتذكير بما جرى على الأمم ، وجملة نصرف مفعول لا نظر معاق هو عنها بكيف ، وكيف حال من المستتر فى نصرف (ثم هُم يصْدِفُون) يعرضون عنها ، وثم لبعد الإعراض بعد تصريف الآية ، فإنهُ بيعد عقلا كما يبعد الجسم عن الجسم حساً .

(قلْ أرأيتكم إن أتاكم عذابُ اللهِ بغْتَةً) فجأة من غير تقدم علم أو ظن أو شك به ، فهو خفى حتى حضر ، ولذلك قابله بما يقابل به الخفاء وهو قوله : (أو جَهْرةً) يتقدمه ما يشعر به ، وقال الحسن وابن عباس : بغتة ليلا ، وجهرة نهاراً ، ويقرب من الأول قول مجاهد بغتة فجأ آمنين ، وجهرة هم ينظرون ، وقرىء وجهرة بالواو أى جاءكم بالخفاء والظهور ، والكلام فى أرأيتكم مع قوله : (هَل يُهلَكُ إلا القَوْمُ

الظَّالمونَ) أى لا يهلك لذلك العذاب هلاك سخط إلا القوم الظالمون كالكلام فى قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب إلى إلخ ، وقرىء هل يهلك بفتح الياء وكسر اللام ، والظالمون المشركون المخاطبون ، وذلك وضع للظاهر موضع المضمر ، أى هل يهلك إلا أنتم على أن الجملة مما حكى بقل أو هل يهلك إلا هم على أنها من كلام الله .

(وما نُرسِلُ المُرْسَلين إلا مُبَشِّرين) المبشِّرين بالجنة (ومُنْذِرين) للكافرين بالنار ، ولم نرسلهم يأتون للمشركين بكل آية اقترحوها ، كأنهم يلعبون بالمرسلين ، إذ لو أجيبوا لاستؤصلوا ، قال أبو حيان فى البحر : مبشرين ومنذرين حال فيها معنى العلية ، أى أرسلناهم للتبشير والإنذار (فَمَن آمنَ) بالله والمرسلين (وأصْلَحَ) عمله لله تعالى بأن تاب عما سلف ، وأتى بعمله بعد على ما يطابق الشرع ، (فلا خَوفٌ عَليهِم) من العذاب يوم يخاف الكافرون من العذاب (ولا هُمْ يحْزنُونَ) يوم يحزن الكافرون .

(والَّذين كذَّبوا بآياتنا يمسُّهم العذابُ بما كانُوا يفْسقُون) يصيبهم العذاب بسبب فسقهم ، أى خروجهم عن الإيمان ورمز بإسناد المس الذى هو من الأفعال الاختيارية للعذاب إلى تشبيه العذاب بالعدو الطالب لعدوه ، ليوقع به حتى كأنه من جنس العدو للكافرين ، وذلك لشدته ، فهذا مع بنائه على التكذيب يدل على فظاعته .

(قُلْ لا أقُول لَكُم عِنْدى خَزائنُ اللهِ) جمع خزينة بمعنى مخزونة ، أى ليس بيدى مقدورات الله ، أو نعمه المخزونة عنده ، أو جمع خزانة وهى الموضع الذى خزن فيه النعم أو غيرها ، والمراد هنا النعم أو ما يوصل إليها ، قالوا إن كنت رسولا من الله فاطلب منه أن

يوسع رزقنا ، ويزيل عنا فقرنا ، وطلبوا أن تكون له جنة ، أو كنز ، ويحتمل أن تكون الخزائن بمعنى المقدورات نعماً أو غيرها ، لقولهم أو ترقى فى السماء ، ولا أدعى القدرة اللائقة بالله جل وعلا ، فنزلت الآية فى ذلك ، وفى قولهم : إن كنت رسولا من الله فاطلب من الله تعالى ، فأخبرنا بما يقع فى المستقبل من المصالح والمضار ، حتى تستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار ، كما قال الله تعالى •

(ولا أعْلم الغيْبَ) إلا ما علمنى الله ، فكيف أخبركم بما يستقبل من النفع والضر ، وفى قولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وقولهم : ماله يخالط الناس ويتزوج النساء كما قال الله عز وجل •

(ولا أقُول لكُم إنّى ملَكٌ) لا يأكل ولا يدخل السوق لحاجته يقضيها منه ، ولا يخالط الناس لنحو ذلك ، ولا يتزوج النساء ، ولا أقول لكم أقدر على ما يقدر الملائكة عليه (إنْ أتّبع) أى اعتقادى وعملى وقولى لكم ولغيركم (إلا ما يُوحَى إلىّ) من القرآن وسائر الوحى ، ولست أدعى الألوهية لأن الإله عالم الغيب ، وقادر على كل شىء ، والآية يتبادر منها أنه صلى الله عليه وسلم لا يجتهد ، بل يفتى بالوحى فقط ، والجواب أن الحصر إضافى إذ المراد به نفى ما يقترحونه عن نفسه •

(قلْ هل يسْتَوى الأعْمَى والبَصير) فيقولون لا يستويان ، فكذلك الكافر والمؤمن ، فالأعمى والبصير حقيقتان ، ويجوز أن يراد بهما الكافر والمؤمن استعارة تشبيها للكافر بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، ويجوز فى وجه الحقيقة ووجه الاستعارة أن يعتبر فى الأعمى والبصير جانب المضل والمهتدى ، أو جانب الجاهل والعالم ، أو جانب مدعى المستحيل كالألوهية والملكية ، ومدعى المستقيم كالنبوة بالمعجزات •

(أفـــلا تتفكَّرونَ) فتدركوا الحق وتميزوه من الباطل ، فـــلا تسموا مدعى الحق مبطلا ، أو أفلا تتفكرون فتؤمنوا بالوحى ، أو فتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعملوا بما فرض عليكم ، أو أفلا تتفكرون فتعلموا أن الإيمان والعمل لا محيص عنهما ، أو أن الإيمان بالوحى لا محيص عنه ، فلو تفكرتم لم تستعيدوا دعواى ، والوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إما بلسان الملك ومنه القرآن ، أو بإشارة الملك كما خفض جبريل عليه السلام رأسه إلى الأرض إشارة إلى رســـول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار النبوة وعدم الملك حين خير أن يكون نبياً ملكاً ، أو نبيا غير ملك ، وذلك خفض الرأس لذلك ، لأنه تواضع ، كما أن عدم الملك تواضع ، وبإلقاء الملك فى قلبه خيراً أو بإلهام الله قلبه للخير ، أو بالتأمل فى الوحى ، فيخرج له حكم فيكون وحياً بالمعنى ، بأن الله جل جلاله أقره على الحكم الذى استخرجه .

(وأنْذر بهِ) أى بالقرآن ، كذا قيل بأن الكلام دل عليه ، ولعل الهاء عائدة إلى ما يوحى وهو القرآن وسائر الوحى ، ولعل مراد من رجعها إلى القرآن أراد رجوعها إلى ما يوحى مفسراً له بالقرآن .

(الَّذين يخافُون أن يُحْشروا إلى ربِّهم) يخافون الحشر لشدة الهول وهم المؤمنون ، ولو لم يفرطوا فى العمل ، إذ لا يثقون بأعمالهم ، فالإنذار للتخويف من الإياس ، أو بمعنى مطلق الوعظ ، وقيل المؤمنون المفرطون فى العمل ، فينذرون على تفريطهم بالعقاب ، وقيل هم الكافرون بالبعث ، فانهم ربما شكوا فى صحته أو ظنوا أنه صحيح ، فيخافون أن يصح كارهين لصحته بمن يخاف وقوع شىء ، ورجا أن لا يكون ، وقيل : هم المؤمنون والكـــافرون ، لأنهم كلهم خائفوه طبعاً ، وقيل : المؤمنون والكافرون الذين لم يلتزموا بنفسه ، وقيل يخافون بمعنى يعلمون ، وفيه

إعمال أن الناصبة للفعل بعد علم ، وعلى تخصيص المؤمنون فخصوا لأنهم المنتفعون •

(ليسَ لـَهم من دُونه ولىٌّ) قريب أو صاحب يجلب لهم النفع ، أو يدفع عنهم الضر بالنصب (ولا شَفيعٌ) يجلب الخير ويدفع الضر بتضرع ، وهذا يدل على أن المراد بالذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم هم الكفار ، أو المفرطون فى الأعمال ، وإذا فسر بالمؤمنين فالمراد لا شفاعة لهم حتى يأذن الله بها ، فتكون لهم ، والجملة حـال من واو يحشرون (لعلـَّهم يتقونَ) يتركون التفريط بعد الإيمان فى الأعمال ، وترك المعاصى أو يتقون الشرك والمعاصى أو يدومون عـلى التقوى أو يزيدون منهـا •

(ولا تطرُدِ الـَّذينَ يدْعُون ربـَّهم بالغداة) وقـرىء بالغـدوة (والعَشىِّ يُريدُون وجْهَه) هذا أمر بإكرام المتقين ، وتقريب لهم ، واختيارهم على رؤساء قريش المشركين ولو غضبوا بعد أمره بإنذار من لم يتق أو بزيادة التقوى أو الدوام عليها ، ومعنى يدعون ربهم ، يعبدون ربهم ، والغداة والعشى كناية بطرفى النهار عن حمله ، والمراد إدامتهم العبادة ، وذلك قول الضحاك ، وقيل : يعبدون ربهم بصـلاة الفجر ، وصلاة العصر ، خصها لزيادة شرفهما ، وهو رواية عن ابن عباس ، وعن الحسن : المراد صلاة مكة التى كانت مرتين فى اليوم مرتين بكرة وعشيا ، وقيل : المراد بدعاء ربهم بالغداة والعشى الصلوات الخمس ، وهو مروى عن ابن عباس ، وقيل : المراد بالدعاء بالغداة والعشى القرآن وتعلمـه وكانوا يقولون : يدعون ربهم بالغداة والعشى ذكر الله بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس ، وبعد صلاة العصر إلى غروبها •

قال مجاهد : صليت الصبح مع سعيد بن المسيب ، فلما سلم الإمام

ابتدر الناس القيام ، فقال سعيد بن المسيب : ما أسرع الناس إلى هذا المجلس ، قال مجاهد : يتأولون قوله تعالى : « يدعون ربهم بالغـداة والعشى » قال : أو فى هذا هو إنما ذلك فى الصلاة التى انصرفنا عنها ، وقيل : المراد بالدعاء فى الوقتين طلب الحوائج من الله فيهما ، ويدل على أقوال الصلاة ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن ناساً من الفقراء كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أناس من أشراف الناس : نؤمن لك ، وإذا صلينا فأخر هؤلاء الذين معك فليصلوا خلفنا . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : مر ملأ من قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء بدلا من قومك ، أهؤلاء الذين مَنّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ، اطردهم فلعلك إن طردتهم تبعناك ، فنزلت الآية .

وتفسير الملأ جاء فى رواية عكرمة أنه قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم بن عدى ، والحارث بن نوفل فى أشراف بنى عبد مناف من أهـل الكفر ، إلى أبى طالب عم النبى صلى الله عليـه وسلم فقالوا : يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنـه موالينـا وحلفاءهم فإنما هم عبيدنا وعتقاؤنا كان أعظم فى صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا ، فأتى أبو طالب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذى كلفوه به ، فقال عمر بن الخطاب ، لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذى يريدون وإلى م يصيرون ، فنزلت الآية إلى قوله : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » فجاء عمر فاعتذر عن مقالته ، وقيل : جاء واعتذر وقال : ما أردت إلا الخير ، فنزل : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم » وقيل : إن جماعة من الصحابة

المنظور إليهم قالوا : يا رسول الله صدق عمك ، اطرد عنا الموالى ، ولما نزلت الآية جاءوا رسول الله وتابوا ٠

قال ابن أبى وقاص : « إن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء ، يعنون ضعفاء المسلمين لفقرهم وضعفهم ، لا يجترءون علينا ، وكنا معه ستة ، أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل الآية ، وعن مجاهد : لولا بلال وابن أم عبد لتبعناك ٠

وروى عن سلمان ، وخباب بن الأرت : فينا نزل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم » الآية جاء الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة بن حصن الفزارى ، وهما من المؤلفة قلوبهم ، فوجدا النبى صلى الله عليه وسلم قاعداً مع صهيب وبلال ، وعمارة وخباب ، فى نفر حوله من ضعفاء المسلمين ، فلما رأوهم حقروهم فأتوهم فقالوا : يا رسول الله لو جلست فى صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبّاتهم ، وكانت عليهم جبّات صوف لها رائحة ليس عليهم غيرها ، لجالسناك وأخذنا عنك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أنا بطارد المؤمنين » قال : فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت ، قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً ، قال فأوتى بالصحيفة ، ودعا علياً ليكتب ، قال سلمان ونحن قعود فى ناحية ، إذ نزل جبريل عليه السلام بقوله : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم » إلى قوله : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ، ثم دعانا فأتيناه وهو

يقول : « سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكنا نقعد معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا ، فأنزل الله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » الآية ، وكان رسول الله صلى الله عيه وسلم يقعد معنا بعد ذلك ، وندنوا منه ، حتى كادت ركبُنا تمس ركبته ، فإذا كانت الساعة التى يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم ، وقال لنا : « الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات » .

ولا شك أن إسلام سلمان بالمدينة كما شهرت قصته فى السير ، وكذا إسلام المؤلفة قلوبهم كان فى المدينة ، بل شهر أنه بعد الفتح والأنعام مكية ، فلم تصح هذه الرواية ، اللهم إلا أن يقال : إن سورة الأنعام نزلت مرتين كما قيل ، أو أن مراد سلمان بقوله : فينا نزلت أنها نزلت فى جنسنا معشر الضعفاء ، فلا يشكل نزولها ، ولو نزلت فى مكة على أن يسقط من الرواية هؤلاء المؤلفة ، أو يريد نزلت فى جنسنا معشر الضعفاء ، إذ جاء مثل الأقرع بن حابس فحذف لفظ مثل ، فأراد بنفسه التمثيل لضعفاء المسلمين بمكة ، وأراد بالأقرع ومن معه التمثيل لرؤساء قريش قبل الهجرة ، ولم يرد نفسه ولا نفس المؤلفة ، ومعنى « يريدون وجهه » يخلصون دعاءهم لله تعالى ، وهو مما يؤيد أن الدعاء هنا بمعنى العبادة ، والجملة حال من واو يدعون ، قيد عبادتهم بالإخلاص تنبيهاً على أنه عمدة العبادة ، وأنه نهى عن طردهم وأمر بإدنائهم لإخلاصهم .

(ما عليكَ مِنْ حسابِهِم مِنْ شىءٍ ومَا مِنْ حِسابِكَ عليهم مِنْ شىءٍ) طعن هؤلاء المشركون والمؤلفة قلوبهم فى إيمان ضعفاء المسلمين ، كما طعنوا بفقرهم حتى أنهم قالوا : إنما اجتمعوا عندك ، وقبلوا دينك لأنهم يجدون عندك مأكولا وملبوسا ، وليس إيمانهم مخلصاً

من قلوبهم ، وقال الله جل وعلا لرسوله حين مال إلى أن يفرد لهم جلوساً أو مجلسا طمعا فى إيمان المشركين الرؤساء ، وإخلاص المؤلفة : ليس عليك حساب إيمانهم فى الأمن الباطن ، ولعل إيمانهم أعظم من إيمان هؤلاء لو آمن هؤلاء وأخلصوا ، كما طمعت فى إيمانهم وإخلاصهم ، وهؤلاء الضعفاء متقون فى الظاهر ، فاكتف بظاهر أمرهم ، ولو كانوا فى الباطن على غير ما هم عليه فى الظاهر ، فحسابهم عليهم لا يضرك الله به كما أن حسابك لا يتعداك إليهم ، مثل ما يعاقب به اعتاباً فقط ، أو ثواب إيمانك لا يصلهم ، بل هو لك ، أو على فرض وتقدير أنك عصيت حاشاك .

وقيل : ما عليك من حساب فقرهم ورزقهم شىء ، فإن رزقهم على فقرهم إنما هو على الله ، ويجوز عود ضمير الغيبة للمشركين أو المؤلفة قلوبهم ، أى لا تحاسب بشركهم أو معصيتهم حتى تهتم بإيمانهم اهتماما وصل به إلى طرد المؤمنين طمعاً فيه ، وعليك خبر ، وشىء مبتدأ ، ومن صلة للتأكيد ، ومن حسابهم يتعلق بمحذوف حال من شىء على جواز الحال من المبتدأ ، أو حال من ضمير المبتدأ المستتر فى عليك ، أو شىء فاعل لعليك لاعتماده على النفى ، ومن حسابهم حال من شىء ، وكذا إعراب الجملة بعده ، فمن حسابك خبر لشىء أو رافع له على الفاعلية ، وعليهم حال من شىء أو من ضمير الاستقرار ، وصح تقديم الحال على صاحبها المجرور ، لأن الجار صلة للتأكيد .

(فَتَطْرُدهُم) نصب فى جواب النفيين (فتكُونَ منَ الظَّالمينَ) بالنصب فى جواب النهى لا عطف على تطردهم ، لأن تطردهم جواب النفيين ، وتكون لا يصح جواباً لهما من حيث المعنى ، لأنه إذا فرض أن حسابهم عليه لم يكن من الظالمين بمجرد كون حسابهم عليه ، والحاصل

أن كونه من الظالمين لا يكون مترتباً على كون حسابهم عليه ، كما ترتب البكاء على الضرب فى قولك : ما ضرب زيد فيبكى ، اللهم إلا أن يقال فى الجملة : إن كون حساب الإنسان على الآخر من دواعى تعنيفه ونقصه حقه بالتهمة والتغليظ ، حتى لا تلحقه من جانبه معرة هذا مسلك الجواز لا ما قيل إن مسالك الجواز عطفه تطرد فى اعتبار ترتيبه على نفس الطرد من غير اعتبار كونه متوقفاً على النفى منتفياً بانتفائه ، لأن الأصل فى المعطوف أن يعتبر فيه معنى اقتضاه إعراب المعطوف عليه .

وإن قلت : لعل الكلام محمول على المبالغة فى النهى عن الطرد ، أى لو طردتهم على تقدير أن يكون حسابهم عليك كنت ظالماً ، فكيف إذا لم يكن حسابهم عليك ، فهو نظير قوله عليه الصلاة والسلام : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » ؟ قلت : قد قال بهذا بعض محققى الترك ، ولله درّه وهو موافق لما ذكرته من محض الآية على جواز العطف اعتبار أن ثبوت حسابهم عليه من دواعى ظلمهم ، وقد ظهر لى البحث المذكور ، والله الذى لا إله إلا هو قبل اطلاعى علـى كـلام التركى ، والحمد لله .

وليست الآية دليلا على صدور المعصية والكبائر من النبيين ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لم يصدر منه الطرد ، فضلا عن أن يكون من الظالمين ، بل مال بالطبع إلى وجه استحسنه اجتهاده بمصلحة دينية ، وهى أن يسلم الرؤساء فكثر أتباعهم ، فيظهر الإسلام ويزيد بوجه لطيف ليس فيه إغضاب ضعفاء المسلمين ، ولما بين الله أن الصواب غير ذلك ، وأن ذلك الذى ظهر له هو بمنزلة الطرد حتى قال له : « ولا تطرد » الآية تركه ، وأيضا لا يلزم أن يكون « الظالمين » مـن الظلم الذى هو ذنب عظيم بجواز أن يكون بمعنى وضع الشىء فى غير

موضعه بعدم إصابة رأيه ما عند الله ، وليس عدم موافقة الاجتهاد مــا الله ذنباً •

(وكَذَلك فتنّا بعْضَهم ببعْضٍ) فتنّا بعض المؤمنين وبعض المشركين ببعض ، ابتلينا فقراء المسلمين بأغنياء المشركين ، ووضيعهم بشريف المشركين ، وابتلينــا شرفاءهم وأغنيــاءهم بفقراء المســلمين وضعفائهم ، فهم يقولون : كيف رزق المشركون وهم مشركون ووســع عليهم ، وكان لهم شرف ، والمشركون يقولون : إن هؤلاء سبقونا للإيمان فلو آمنا كنا لهم تبعاً وهم دوننا ، فيأبون الإيمان لذلك ، وذلك فتنة الدين ، ومن وسوس الشيطان له من المؤمنين بذلك ، ولم ينسب الله إلى الجور ، بل أزاح ذلك فلا بأس ، ومن رسخ فى قلبه الحق فلم يلتفت لتلك الوسوسة فهو من الشاكرين ، ويجوز أن يكون هاء بعضهم عائدة للناس مطلقاً ، ولا ينافيه قوله :

(ليقولُوا هؤلاءِ منّ اللهُ عليْهِم مِنْ بيْننا) لأن مشركى قريش القائلين أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا من جملة الناس ، وأيضا ليس هذا القول مختصاً بمشركى قريش فى ذلك الزمان ، نعم الراجح رد الضمير إلى خصوص من تقدم ذكره ، ونزلت الآية فيه ، والكاف إن كانت اسماً ومنعوت متعلقها المحذوف إن كانت حرفا مفعول مطلق ، وأى مثل ذلك الفتن فتناً أو فتناً ثابتا ، كذلك الفتن ، فإن أريد نفس الفتن الواقع ونفس من فتن فالتشبيه بمعنى أن صفة فتن فتنابه بعضاً ببعض هو ما ذكر ، وإن أريد فتن آخر ومفتون آخر فلا إشكال ، ومعنى أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا إنكار أن يكون الإسلام هكذا مطلقا ، أو ما عليه ضعفاء المسلمين من الإيمان أمرا حسنا صحيحا ، فضلا عن أن يكون منة من الله لهم ، خصهم الله بها من بيننا ، ولو كان منّة وفضلا

لكنا أولى به ، فنسبق له ، لأنا الأعزاء الشرفاء ذووا المال كما قالوا : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » واللام للصيرورة ، ويجوز أن تكون للتعليل بلا حاجة إلى تأويل فتنا بعضهم ببعض يخذلنا ، بل يصح مع إبقاء المعنى فتنا ابتلينا .

(أليْسَ اللهُ بأعْلم بالشّاكِرينَ) بمن قضى له فى الأزل بالشكر فيوفقه إليه ، مثل هؤلاء الضعفاء ، وأما من قضى لهُ بالخذلان مثل من لم يؤمن من هؤلاء الرؤساء فيخذله ، وليس الأمر بهين ولا مما يتساهل فيه .

(وإذا جاءكَ الّذين يؤمنُون بآياتنا) هم هؤلاء الضعفاء المؤمنون الذين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طردهم ، فقل : سلام عليكم ، قال خبّاب بن الأرتّ : لما نزلت : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا » كنا إذا أتينا النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سلام عليكم » ولفظه خبر ، ومعناه دعا لهم بالسلامة من عذاب الدنيا والآخرة ، ويجوز أن يكون خبرا لفظا ومعنى بمعنى سلام عليكم أى قد ذكرهم الله بخير ، أو سلمكم من عذاب الآخرة ، كذلك قال عكرمة : نزلت فى الذين نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم عن طردهم ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام ، وقال عكرمة : نزلت فى أبى بكر وعمر ، وعثمان وعلى ، وبلال وسالم بن أبى عبيدة ، ومصعب بن عمير ، وحمزة وجعفر ، وعثمان بن مظعون ، وعمار بن ياسر ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وأبى سلمة ابن عبد الأسد .

وقيل : إن قوماً جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً ، فلم يرد عليهم شيئاً فنزلت ، وقيل : إن الآية على إطلاقها فى كل مؤمن ، وهو أنسب بما شهر وأجمعوا عليه أن السورة

نزلت جملة ، فكيف يقال : كان كذا فنزل فيه من سورة الأنعام كذا ، اللهم إلا أن يقال : نزل جبريل بتلاوة الآية فى شأن كذا ، ونزل بتلاوتها فى شأن كذا ، يذكره صلى الله عليه وسلم ويقول له : احكم بما فيه فى شأن كذا ، ولم ينزل بها لتكتب مرة أخرى وتتلى مكررة ، بل كفى نزولها مرة واحدة أولا ، ومن قال بعمومها أبو العالية ، قال خالد بن دينار : كنا إذا دخلنا على أبى العالية قال : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا » الآية يتأولها عامة فكان يستعملها مع أصحابه •

(كَتَبَ ربُّكم عَلى نَفْسه الرَّحْمة) وعد لكم الرحمة فى الأزل ولا تتخلف كما يجب أن لا يترك أحد ما فرض عليه ، والله أوفى من وعد ، ولا يخلف الميعاد ، والرحمة فضل منه ، ولا واجب عليه ، فشبه وعده بما فرض فقال : « كتب ربكم على نفسه » وقيل كتب فى اللوح المحفوظ ، وهذا من كلام الله الذى أمر رسوله أن يقوله لهم ، كأنه قيل : فقل سلام عليكم ، وقل كتب ربكم على نفسه الرحمة ، وقيل قوله : « كتب ربكم » إلخ ليس من مقول قل ، بل كلام مستأنف من الله ، خاطب به المؤمنين ، ونفس الله ذاته الواجب الوجود ، الذى ليس بجسم ، كما أنه ليس بعرض ولا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء •

(أنه مَن عَمِلَ منكُم سوءًا بجهالةٍ) بفتح الهمزة على أن المصدر من جملة خبرها وهو اسم الشرط ، وجملة الشرط والجواب بدل من الرحمة ، وذلك قراءة نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب ، وقرأ الباقون بكسر الهمزة على الاستئناف ، والهاء فى أنه ضمير الشـــأن ، والمراد بالجهالة فعل الجهل ، فإن شأن المحرم لا يفعله إلا من لم يعلم بتحريمه ، أى عمل منكم سوءًا ، أى ذنباً بفعل الجهالة ، ففى هذا التقدير تكون الباء للتصوير ، صور عمل السوء بفعل الوارد بالجهالة الاقتراف الذى

لا يجوز ، والسوء مطلق ما لا يحسن بقطع النظر عن كونه ذنباً ، فيعلم أنه ذنب من قوله : « بجهالة » وسواء كان الاقتراف مع عدم العلم بالتحريم ، أو مع العلم به ، فمن الأولى ما مر عن عمر رضى الله عنه من أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو فعلت ذلك حتى ننظر ، أو أراد بالجهالة جهل ما يتبعه من المفاسد الدينية فى الدنيا .

ومنه أيضا ما مر عن عمر رضى الله عنه أو جهل العقاب ، فإن من لم يعلم بالعقاب أصلا ومن علم به ، ولم يكن علمه تحقيقاً حتى يمنعه عن ارتكاب موجبه ، سواء فى فقد تحقيق ذلك العلم ، وكذا عدم العلم بما يفوت من الثواب ، أو عدم تحقيقه ، وأما أن يراد بالجهالة الجهل فى التحريم ، وتنزيل من لم يجهل ، لكنه يكون بمنزلة من جهل فى عدم الانتهاء عن الحرام ، فهو جمع بين الحقيقة والمجاز ، وفيه خلاف إلا أن يحمل على عموم المجاز ، وبالوجه الثانى الذى هو أن الجهالة اقتراف ما حرم ولو مع علم ، يقول مجاهد : إذ قال من الجهالة إذ لا يعلم حلالا من حرام ، ومن جهالته أن يركب الأمر ، وعنه من عمل ذنباً أو خطيئة فهو بها جاهل ، ومن الجهالة بمعنى عمدها لا يجوز ولو مع علم ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنى أعوذ بك أن أجهل أو يجهل علىّ » وقول الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقول الشاعر :

على أنها قالت عشية زرتها
جهلت على عمد ولم

وعن الحسن : كل من عمل معصية فهو جاهل ، وقيل : إنه بمعنى جاهل بما فاته من الثواب ، وما استحقه من العقاب ، وبقدر من عصاه ، وليس هذا التأويل كافياً فى كلام الحسن ، لأنه يعمل سوءًا وهو عالم أيضا بما فات ، وبالعقاب أو بقدر من عصاه ، إلا أنه لم يرسخ ، والباء تتعلق بعمل ، أى مع جهالة أو بسببها أو بمحذوف من حال أى ملتبسا بجهالة .

(ثمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ) من بعد العمل أو من بعد السوء (وأصْلَحَ) عمله فى المستقبل ، أو أصلح ما أفسد ، أو أتى بصالح العمل لما بعد ، فالأول فى المشرك والموحد الذى فعل ما يكفى فيه الندم والرجوع ، والثانى فى موحد فعل ما لزم فيه غرم مال أو نحوه .

(فإنَّه غفورٌ) لذنوبه (رحيمٌ) ينعم عليه بالجنة ، والجملة دوام من وقره ابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح ، على أن المصدرية مبتدأ محذوف الخبر ، أى فله الغفران والرحمة ، خوف الغفران والرحمة جزاءه ، أو خبر لمحذوف ، أى فأمره الغفران والرحمة ، أو فجزاؤه الغفران والرحمة .

قال أبو سعيد الخدرى : جلست فى عصابة من المهاجرين ، وإن بعضهم ليستتر ببعض من العراء ، وقارىء يقرأ علينا إذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام علينا فسكت القارىء وسلم ، قال : « ما كنتم تصنعون ؟ » قلنا : يا رسول الله كان قارىء يقرأ علينا وكنا نسمع إلى كتاب الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى جعل من أمتى بل أمرت أن أصبر نفسى معهم » وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل لنفسه فينا ، ثم قال بيده هكذا فتحلقوا ، وليس فيهم أنصارى غيرى ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « أبشروا يا صعاليك المهاجرين بالنوم التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة عام » .

(وكَذلك نُفصّل الآيات) أى وكما فصلت لك يا محمد تلك الآيات نفصّل لك سائر الآيات فى صفات المطيعين والعاصين والتائبين ، أو كما بينا أدلة التوحيد نبين أدلة الحق والباطل فى غير التوحيد والشرك .

(ولتَسْتبينَ سَبيل المجْرمِينَ) ليظهر يا محمد طريق المجرمين من طريق المؤمنين ، أو من طريق المؤمنين ، فحذف ذلك بدلالة نستبين سبيل المجرمين ، لأنه إذا ميزت أحد الضدين تميز الآخر ليجتنبها المؤمنون ولتعامل كلا من المؤمنين والمشركين والمؤلفة بما يستحقه ، وقرىء وسبيل مفعول تستبين ، وذلك قراءة نافع ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وابن عمرو ، ويعقوب ، وحفص عن عاصم برفع السبيل على الفاعلية ، فتكون تاء تستبين للتأنيث ، وهو لغة من يؤنث السبيل والطريق ، وهو لغة الحجاز ، وقرأ الباقون وليستبين سبيل المجرمين بالياء التحتية ، رفع سبيل على الفاعلية وهو لغة تميم فى تذكير السبيل والطريق ، واللام معلقة بمحذوف ، أى وفصلنا هذا التفصيل لتستبين ، أو يقدر مؤخراً ، أى نفصل الآيات ليظهر الحق وتستبين .

(قـُل إنـِّى نـُهيتُ) قل يا محمد لهؤلاء المشركين إنى نهانى الله بنصب الأدلة كالسموات والأرض ، وبالقرائن وسائر الوحى (أن أعْبُدَ الـَّذين تدْعُون مِنْ دون اللهِ) الأصنام التى تعبدونها ، وقيل : تطلبونها عند الشدة ، وقيل : تسمونها آلهة ، والأول أنسب بقوله : « أن أعبد » وهو على تقدير عن ، أى نهيت عن أن أعبد ، وإنما قال : « الذين » لأنهم ينزلون أصنامهم منزلة العقلاء ، بل منزلة أعظم ، إذ جعلوها آلهة

وهم يعبدونها ويدعونها ، ويجعلونها آلهة ، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله ، كل ذلك على طرف من الهوى ، وعلى التقليد ولا رسوخ لذلك فى صميم قلوبهم كما قال •

(قُلْ لا أتبعُ أهْواءَكم) فى عبادة الأصنام ، وطرد الفقراء المسلمين كيف أعبد الأصنام ، وهى مخلوقة لا تدفع ضرًّا عن نفسها أو غيرها ، ولا تجلب نفعاً ، ونهانى ربى ، كيف أطرد المسلمين المستحقين للتقريب والإعزاز لعلمهم وعملهم ، وقد قيل : إن بعض المشركين قال : له استلم آلهتنا بيدك حتى نؤمن بإلهك ، فأمر الله تعالى أن يقول : لأنى نهيت قطعاً لأطماعهم ، وأكد ذلك القطع بقوله : « قل لا أتبع أهواءكم » أى كيف أتبع ما هو هواء ، وأترك ما هو هدى ، وما ذلك منكم إلا تقليد ، والقاء لأدلة العقل وأدلة النقل الزاجرة عن عبادة الأصنام ودعاءها •

(قَدْ ضللْتُ إذاً) أى خرجت عن الصواب خروجاً مترتباً على اتباع أهوائكم ، أو إذا خرجت أو إذ خرجت • (وما أنا مِن المهتَدِين) لست منهم فى شىء ما من الهدى ولو أقل قليل إن اتبعت أهواءكم ، وذلك تعريض بهم أنهم قد ضلوا وليسوا فى شىء من الهدى ، وهـذا أبلغ من أن يقال : وما أنا مهتد ، لأن انتفاء مهتد تام يجوز معه بقـاء اهتداء مـا •

(قلْ إنِّى علَى بيِّنةٍ من ربِّى) عى دليل من ربى صرت بـه موقنا بالحق ، مميزاً له مـن الباطل ، وذلك الدليل هـو الحجج النقلية والعقلية والنقلية ، كالقرآن وسائر الوحى ، وما يقول مسلمو علماء أهل الكتاب والعقلية كمخلوقات الله تعالى ، وعدم فساد السموات والأرض ، وتفسير ابن عباس البينة باليقين تفسير باللازم ، لأن الكون على البينة

تستلزم اليقين ، وقيل : البينة الدلالة الواضحة لا نفس الدليل ، وقيل : القرآن ، ومن ربى نعت بينة ، ومن للابتداء أى بينة ثابتة من ربى ، أو آتية من ربى ، أو بينة من معرفة ربى ، وعلى هذا فمن للبيان .

(وكذَّبتم به) أى بربى ، لأن جعل الشريك لله تعالى تكذيب له ، وإبطال بالمعنى ، بل هو أيضا تكذيب لقوله تعالى : « لا إله إلا الله » وقوله : « لا إله إلا أنا » ونحو ذلك مما يدل على التوحيد ، ويجوز عود الهاء للبينة باعتبار أنها بمعنى الدليل أو البرهان أو البيان الواضح ، أو باعتبار وقوعها على القرآن .

(ما عِنْدى ما تسْتعجلُون به) من العذاب ، فما واقعة على العذاب ، والهاء عائدة إلى ما ، وكانوا يقولون : « فأسقط علينا كسفا من السماء » و « يستعجلونك بالعذاب » وقالوا : « عجّل لنا قطنا » قبل عذابنا « ائتنا بما تعدنا » « فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ونحو ذلك ، فقال الله جل وعلا : قل لا قدرة لى على الإتيان بعذابكم ، وإنما هو بيد الله جل وعلا ، ويناسب هذا أن التكذيب يدل على أنهم قارفوا ما يوجب العذاب ، إلا أنه ليس عندى ، وأن الاستعجال لم يأت فى القرآن إلا للعذاب ، وقيل : ما واقعة على ما اقترحوا من الآيات ، وهاء به لا بدّ عائدة إلى ما ، وقيل : ما واقعة على قيام الساعة كذلك .

(إنِ الحكْم إلا لله) فى تعجيل العذاب وتأخيره إثابة المطيع ، وتعذيب المصرّ ، والفصل بين المحق والمبطل . (يقصُّ الحقَّ) يقول الحق أو لا يخالف الحق ، وذلك من قولهم : قص الحديث أى ذكره ، أو من قص الأثر بمعنى تبعه ، أو بمعنى يقطع الحق ، أى يفصله من الباطل وينفذه من قولك قصصت الشىء بمعنى قطعته ، وهذه قراءة

نافع وابن كثير ، ويقال لهما : الحجازيان ، لأنهما فى الحجاز ، والحرميان لأنهما فى الحرم ، فنافع فى حرم المدينة لأنه فيها ، وابن كثير فى حرم مكة لأنه فى مكة ، وبها قرأ عاصم ، وقرأ الأخوان الكسائى وحمزة ، وغير الأخوين يقص بإسكان القاف وكسر الضّاد معجمة من قضى يقضى حذفت الياء من الخط تحقيقاً على الكاتب وتبعاً لحذفها من النطق للساكن بعدهـا .

كما حذفت فى قوله تعالى : « وسوف يؤت الله المؤمنين » وقوله تعالى : « فما تغن النذر » وقوله تعالى : « كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين » وقوله تعالى : « بالواد المقدس » وقوله تعالى : « بالواد الأيمن » وقوله تعالى : « إلا من هو صال الجحيم » وقوله تعالى : « وإن الله لهاد الذين آمنوا » فى الحج ، وقوله تعالى : « وما أنت بهاد العمى » فى النمل ، وكما حذفت الواو فى قوله تعالى خطاً تبعاً للنطق : « يوم يدع الداع » « ويمح الله الباطل » و « سندع الزبانية » « ويدع الإنسان بالشر » وقوله تعالى : « وصالح المؤمنين » على أن المراد الجمع ، والمعنى فى هذه القراءة أنه يقضى القضاء الحق ، أو يثبت الحق ، أو يصنع الحق ، يقال : اقض قضى درعاً أى صنعها أو يفعله ويفرغه منه .

(وهُوَ خَيْرُ الفاصِلِينَ) تبين الحق والباطل القاضين بالحق .

(قُلْ لو أنَّ عِنْدى ما تَسْتعجِلُون بِـه) وإنزال العـذاب والاستعجال المطالبة بالشىء قبل وقته ، ولذلك كأنه مذموم أو من قيام الساعة أو من أنزل الآيات المقترحة التى مضت سنة الله فى مثلها بإنزال العذاب على من طلبها ولم يؤمن بها .

(لقُضِىَ الأمْرُ بَيْنى وبَيْنَكم) لأوقعت الأمر بينى وبينكم

بأن أهلككم غضباً لربى ، وذلك بأن يهلك منهم من قضى الله أن لا يخرج من صلبه من يعبد الله ، وذلك أن الله جل وعلا أمر ملك الجبال أن يطيعه فيما يأمره به ، فقال : إن شيئت أن أطبقها عليهم ، فقال : « لا بل أرجو أن يخرج منهم من يوحد الله ويعبده » .

(والله عَلم بالظَّالمينَ) استدراك فى المعنى بلا إداة استدراك كأنه قال : ولكن الله أعلم بالظالمين ، أى الأمر إليه تعالى ، فهو يؤخر من يؤخر ، لأنه سيؤمن ، ويؤخر من يؤخر ، لأنه سيخرج من صلبه مؤمن ويخر من يؤخر لحكمة على طبق القضاء الأزلى ، أى والله أعلم بما يستحقون من العذاب وبوقته .

(وعنْدَهُ مَفاتح الغَيْب) جمع مفتح بكسر الميم وفتح التاء بلا ألف بعدها ، وقيل : يجوز أن يكون جمع مفتاح بالألف ، قلبت ياء فى الجمع وحذفت تخفيفا وهو خلاف الأصل ، وقرىء مفاتيح بالياء جمع مفتاح بالألف ، وترك الألف هو الأفصح ، والمراد بالمفاتح والمفاتيح ما يفتح به الباب ، ومفرداهما أسماء آلة ، وقراءة المفاتيح بالياء دلت أن المراد بالمفاتح بلا ياء جمع آلة الفتح ، والمعنى أن عنده لا عند غيره أمر المغيبات ، يخرجها ويظهرها إذا شاء ، لأنه عالم بها ، مالك لها ، كمن عندم مفتاح البيت إذا شاء فتحه وأخرج مما فيه ، ولكن ليست الآية فى العطاء ، بل فى أنه تعالى يعلم الغيب ، فتكون تقريراً لقوله : « والله أعلم بالظالمين » ولكن تحتمل أن تكون فى العطاء بمعنى أن عنده مفاتح الغيب ، إذا شاء أعطى من الغيب ، فعنده رزق هؤلاء الضعفاء المسلمين ، وسيفيض عليهم المال ، شبه الغيب بالخزائن المستوثق منها بالأقفال ، ولم يذكر المشبه به فرمز إلى التشبيه بذكر لازمه ، وهو آلة الفتح ، ويجوز أن يكون المفاتح بلا ياء جمع مفتح بفتح الميم والتاء بلا ألف وهو المخزن ، قال السدى مفاتح الغيب خزائن الغيب .

(لا يعلمها إلا هو) قال ابن عباس وابن عمر يرفعان الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإشارة بمفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا هو إلى الخمسة التى فى آخر لقمان « إن الله عنده علم الساعة » الآية ، قال موسى بن على ، عن أبيه : كنت عند عمرو بن العاص بالإسكندرية ، وقال له رجل : زعم قسطال هذه المدينة أن القمر يكسف به الليلة ، وقال رجل : كذب ، هذا ما ظننت أنكم تعلمون ما فى الأرض ، فكيف تعلمون ما فى السماء ، فقال عمرو بن العاص : إن الله يقول : « إن الله عنده علم الساعة » الآية ، وما سوى هذا يعلمه قوم ويجهله آخرون ، وفى رواية عن ابن عباس خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار والأرزاق ، وقال الضحاك ومقاتل : مفاتح الغيب خزائن الأرض ، وعلم نزول العذاب ، وقال عطاء : هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب ، وقيل : انقضاء الأجل ، وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتم أعمالها ، وقيل : هو علم مالم يكن أيكون أم لا يكون ، وعلم ما لا يكون كيف يكون لو كان يكون ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شىء إلا مفاتح الغيب ، والآية نص فى أن الله تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها .

(ويعلم ما فى البر والبحر) أى يعلم الغيب كما تشاهدون من البر والبحر ، وأل فى البر والبحر للاستغراق ، والبحر الماء المغرق مطلقاً ، والمراد هنا البحر المحيط والبحار الصغار والنيل ودجلة وغيرهما ، وعن مجاهد البر المفاوز والقفار ، والبحر القرى والأمصار ، يعلم ما فيها من كلام وأصوات وخواطر قلوب ، وكل ما فيها ، وما يحدث فيها من أجسام وأعراض ، والصحيح الأول وعليه الجمهور .

(وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) أى ما تسقط ورقة من

شجرتها إلا يعلمها الله نفسها عينها ، ويعلم سقوطها ، وكم مرة تقلبت فى الهواء حتى وصلت إلى الأرض ، وعلى أى جهة وصلت ، ويعلم ما بقى فيها كذلك ، وكم هو ، وهذا نص فى علم جزئى دقيق ، وكذا ما بعده فيكون دليلا وبرهاناً على العلم الكلى الإجمالى فى قوله : « وعنده مفاتح الغيب » إلخ وقوله : « ويعلم ما » إلخ ، وذكر أولا أنهُ عالم بكل غيب فهو أعلم فى الغيوب ، وذكر بعد ما أنه عالم أيضا بما هو فى البر والبحر ، وهى مما نشاهد بعضه ، ثم ذكر أشياء دقيقة ، وجملة يعلمها حال من ورقة واو نكرة لتقدم النفى .

(ولا حبَّةٍ فى ظُلمات الأرض ولا رَطْب ولا يابِسٍ) معطوفات على ورقة ، أى ولا تسقط من حبة فى ظلمات الأرض ، ولا من رطب ولا يابس . (إلا فى كِتابٍ مُبينٍ) يتعلق بمحذوف وجوباً حال من حبة ورطب ويابس ، كقولك : ما جاء زيد إلا راكباً ولا عمرو إلا مسروراً ، فهو من العطف على معمولى عامل واحد ، لأن من صلة للتأكيد ، وإن اعتبرتها صح ، وكان عطفا على معمولى عاملين ، لكن المعمــول الأول المعطوف عليه ، والمعمول الأول المعطوف عمل فى كل منهما عامــلان . وهما من إذ عملت فى لفظ ورقة ولفظ حبة وتسقط ، إذ عمل فى تقدير ورقة وتقدير حبة هذا تحقيق المقام فى ما ظهر لى .

ويجوز وجه آخر ، هو أن يعتبر قوله : « ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس » فى نية التقديم على قوله : « إلا يعلمها » ففى هذا الوجه يعود ضمير النصب فى يعلمها إلى ورقة وحبة ورطب ويابس ، لا إلى ورقة فقط كما فى الوجه الأول ، فالتقدير : وما تسقط من ورقة ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا يعلمها فى كتاب مبين ، فيكون قوله : « إلا فى كتاب مبين » بدل كل من قوله : « إلا يعلمها »

إن فسرنا الكتاب المبين بعلم الله تعالى ، أو بدل اشتمال إن أريد به اللوح المحفوظ ، واختيار الفخر أنه علم الله تعالى ، وقرىء برفع حبة ورطب ويابس عطفاً على تقدير الرفع فى ورقة ، أو هو مبتدأ خبره فى كتاب ، وفى هذا الوجه خاصة ليس معنى « ولا حبة » إلخ أن سقوطها ثابت فى كتاب مبين ، بل جميع شأن الحبة وما بعدها فى كتاب مبين ، ولا شىء أخفى من حبة فى ظلمات الأرض وهى داخل الأرض لصغر الحبة وسعة ظلمات الأرض ، ولا يخرج شىء من المخلوقات عن الرطب واليابس ، فذلك كله تقدير لقوله : « عنده مفاتح الغيب » و « فى ظلمات الأرض » نعت لحبة ، وسمى داخل الأرض ظلمة مع أنه لا هواء فى الأرض ، بل جسم منضم ، لأن داخل الجسم غير الأجوف ظلمة ، لأنه لا نور فيه ، ولأنه لو كان أجوف لكانت فيه ظلمة .

والظاهر أن المراد إما حبة ما يزرع لو كانت فى داخل الأرض وعمقها ، وإما حبة تراب ، وقيل : المراد الحبة التى ألقيت فى الأرض قبل أن تنبت ، وقيل : الحبة التى فى الصخرة أسفل الأرضين ، وأما الرطب واليابس فعلى العموم السابق .

وقال ابن عباس : الرطب الماء ، واليابس البادية ، وقال عطاء : الرطب واليابس ما ينبت وما لا ينبت ، وقيل : الحى والميت ، وعن جعفر ابن محمد : الورقة السقط من أولاد بنى آدم ، والحبة التى ليست بسقط ، الرطب الحى ، واليابس الميت ، قيل لا يصح ، هذا جار على الرموز لا يصح عنه ، ولا ينبغى أن يلتفت إليه ، ويجوز أن يكون ذكر الورقة والحبة تنبيهاً للملكين على أمر الحساب .

قال عبد الله بن الحارث : ما فى الأرض شجرة ولا مغرز إبرة إلا

عليها ملك موكل يأت الله بعلمها ، بيبسها إذا يبست ، ورطبها إذا رطبت ، وقيل : المعنى فى كتبها أن هذا ليس فيه ثواب ولا عقاب ، وهو مع ذلك مكتوب فكيف ما فيه ثواب أو عقاب ، قال الشيخ هود رحمه الله : ذكروا أن سورة الأنعام نزلت جملة ، وشيعها سبعون ألف ملك ، ومع هـذه الآية الواحدة منها اثنا عشر ألف ملك : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » إلى آخر الآية .

(وهُوَ الَّذى يتوفَّاكم باللَّيل) يأخذ أرواحكم الذى هى أرواح اليقظة وافية بالليل ، فيكون النوم لزوال الإحساس والتمييز ، فإن التوف قبض الشىء وافياً بتمامه ، وهذا معنى موجود فى قبض روح اليقظة كلها ، وإن شيئت فاعتبر شهرة التوف فى الإماتة حتى كأنه أصل فان فيه ، فتستعير التوف للإنامة ، وتشتق منه يتوفى بمعنى ينيم ، ووجه الشبه زوال الإحساس والتمييز ، والخطاب للكفار ، لأنهم الذين ينامون الليل كله ، ولا يلزم ذلك ، لأن اللفظ يصلح بمن ينام بعض الليل ، لكن الخطاب قبل هذا الكفار فترجح أن يكون لهم هذا أيضاً ، والباء بمعنى فى ، ويجوز مرجوحاً أن يكون على أصلها لأن ظلمة الليل سبب وآلة للتوفى ، والله غنى عن الآلة والسبب ، لكن جاء اللفظ على ذلك .

(ويعلم ما جَرَحْتُم بالنَّهار) ما كسبتم فيه من الأعمال ذكر فى شأن الليل المتوفى ، وفى شأن النهار الكسب لأن النوم معتـاد بالليل والكسب بالنهار ، ولو كان النوم يقع أيضا نهاراً وكسب الأعمال ليلا ، والمراد كسب أعمال السوق ، لأن الخطاب للمشركين وهم يعاقبون على صغائرهم وكبائرهم ولا ثواب لهم فى الآخرة على ما عملوا من خير ، ويجوز أن يكون جرحتم من الجرح البدن كأن الذنب جرح فى الدين والعرب ، تقول :

جـرح اللســان كجـرح اليــد
فطب كــلام المـرء طيب كــلامه

(ثمَّ يبعثُكُم فِيهِ) يوقظكم فى النهار من نوم الليل ، وهذا مما يؤيد أن الخطاب فى يتوفاكم وما بعده للمشركين ، لأنهم المعتادون للنوم إلى طلوع الشمس وما بعده ، ولو كان طلوع الفجر أيضا نهاراً لكن على خلاف ، وقد علمت أن الضمير فى فيه عائد إلى النهار ، ويجوز عوده إلى ما جرحتم ، أى يبعثكم فى شأن ما جرحتم بالنهار ، أى لأجله فيجازيكم به ، فالبعث بعثهم من القبور على هذا ، أو أراد أنه يوقظهم فى شأن عمل النهار الآخر يعملوه ، وأجاز عبد الملك بن كثير عوده على التوفى ، أى يوقظكم فى التوفى ، أى فى خلال التوفى ، والجمهور على عوده إلى النهار ، وبه قال مجاهد ، ويبعث بمعنى يوقظ حقيقة لغوية ، لأن البعث لغة مطلق الإنهاض ، وباعتبار شهرته فى الشرع بمعنى إقــامة الموتى من قبورهم يكون أصلا ثانياً ، فيكون استعماله بمعنى الإيقاظ استعارة ، وإذا اعتبرنا شهرة التوفى بمعنى الإماتة ، وشهرة البعث فى إقامة الموتى كان البعث ترشيحا فى استعارة التوفى للإنامة •

(ليُقْضَى أجلٌ مسَمى) أى لتقضوا أجلا مسمى محدوداً ، أى يستوفى كل منكم عمره ، أو ليقضى الله أجلا مسمى ، أى يوفى لكل منكم عمره ، ويدل لهذا الآخر قراءة بعض ليقضى أجلا مسمى بالبناء للفاعل ، ونصب أجل فإن الفاعل فى هذه القراءة ضمير الله •

(ثمَّ إليه مرجِعُكم) بالموت وبالبعث ، والعطف على الجملة الفعلية التى هى يبعثكم ، فثم على أصلها فى تراخى النسبة ، وإن عطف على يقضى أجل كانت أيضا على أصلها فى تراخى النسبة ، لأن الأجل المسمى

عمر كل واحد إلى الموت ، وبين الموت أو الرجوع إلى الله بالبعث مدة متراخية ، إلا إن عطفناه على يقضى أجل مسمى ، وفسرنا المرجع بالموت والأجل المسمى أيضا بتمام العمر ، كانت لتراخى الرتبة ، فإن الشأن الأعظم فى كون الموت رجوعاً إلى الله ، وكذا إن فسرنا الأجل المسمى بتمام اللبث فى القبور ، والمجع بالبعث ، ثم إذا جعلنا اللام للصيرورة فلا إشكال ، وإن جعلناها للتعليل ، فالأجل المسمى مــدة اللبث فى القبور والبعث من القبور علة لهذه المدة .

(ثم يُنبِّئُكم بما كُنتم تعمَلون) يجازيكم عليه كأنه قيل : يخبركم بأعمالكم إخبار توقيف ومحاسبة .

(وهُو القاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ) القاهر لخلقه بمــا شاء بعــد وجودهم ، والقاهر لهم بالإيجاد قبل الوجود ، بمعنى أنهم لا متنازع لهم عن الوجود إذا أراده ، وفوق حال مؤكدة لعاملها ، لأن القاهر للشىء يكون فوقه بالشأن والعظمة ، ويجوز أن يكون الحال غيره مؤكدة ، لأن القاهر قد يكون خبيثاً لا شرف له ، فتكون الحال مؤكدة ، لأن القهر فى الجملة قد يكون بلا شرف . .

وأريد بالفوقية عظمة الشأن والشرف ، وزعم سلف الأشعرية أن الفوقية فى صفة الله يجب الإيمان بها ، ويوكل علمها إلى الله ولا يؤولونها بعظمة الشأن ، وذلك خطأ منهم ، ثم إن القهر على أقســام : منها قهر المخلوق على إيجاده بمعنى يوجده ، ولا يتعاصى عن الوجود ، وسواء للأجسام والأعراض ، ولا جسم بلا عرض ، ومنها قهر المخلوق على ما يكره ، ولا يستطيع دفعه ، ودخل فى القسم الأول فهو الظلمة بالنور ، والفقر بالغنى ، والضعف بالقوة ، والمرض بالصحة ، والليل بالنهار ، ونحو

ذلك من الأضداد والمتناقضات ، كالذل بالعز ، وعكوس ذلك ، والحياة بالموت ، والعدم بالوجود ، ودخل قهر المتنافيات بالجمع كالروح مـــع البدن ، فالبدن جسم يفسد لا يبقى ، ليس فيه نور فهم ومعرفة ، كثيف سفلى ظلمانى ، ومع ذلك اجتمع مع الروح الذى ليس يفســـد ، وهـــو نورانى ذو فهم ومعرفة ، لطيف وعلوى •

(ويُرسل عَلَيْكُم حَفَظَةً) ملائكة يحفظون أعمالكم وهم الكرام الكاتبون « وإنّ عليكم لحافظين ❊ كراماً كاتبين » وحكمة إرسال الحفظة مع أن الله قادر على ابن آدم أن يحفظه عن الجن بدونهم ، إظهار شرف بنى آدم على الجن والملائكة اذا استخدم لهم الملائكة ، وحكمة إرسال الحفظة لحفظ الأعمال ، مع أن الله عالم بها أن يستحى ابن آدم منهم ، فلا يعصى الله ، لأن الله قد أخبرنا أن معكم ملائكة يحفظون أعمالكم ، ولو لم يرسل الملائكة لحفظ الأعمال لزدت يا ابن آدم جراءة على المعاصى •

لعلمك إن الله عـــافٍ وســـتارٌ
أقـــل عثراتى فابن يوســـف معثـــار

وأيضا إذ علمت أن أعمالك تكتب وتقرأ على رءوس الأشهاد قرب ما انزجرت ، قيل : مع كل إنسان ملكان : كاتبت الحسنات عن يمينه إذا قعد أو قام ، وكاتب السيئات عن يساره ، وإن اضطجع فكاتب الحسنات عند رأسه ، وكاتب السيئات عند رجليه ، وإن مشى فكاتبت الحسنات أمامه وكاتب السيئات خلفه ، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، إذا فعل سيئة وأراد أن يكتبها قال له أمهل لعله يتوب ، فيهمل خمس ساعات ، وقيل : سبعاً ، وقيل : تسعاً •

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : مع كل مؤمن خمسة من الحفظة :

واحد عن يمينه يكتب الحسنات ، وواحد عن يساره يكتب السيئات ، وواحد أمامه يلقنه الخيرات ، وواحد خلفه يدفع عنه الآفات ، وواحد على ناصيته يكتب صلاته على النبى صلى الله عليه وسلم ويبلغها إليه ، وقيل : مع كل مؤمن أربعة : اثنان ليلا واثنان نهاراً وقيل : ستون ، وقيل : مائة وستون ، وقيل غير ذلك كما شهر فى شروح الحديث والفقه ، يدفعون عنه الشياطين ، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين .

روى أن الأصمعى كان ينتقل فى قبائل العرب يكتب ما يسمع ، فقال له أعرابى : ما أنت إلا كالحفظة ، تكتب لفظ اللفظة . وروى أن أبا حاتم السجستانى كان يكتب عن الأصمعى كل شىء يتلفظ من فوائد العلم ، فقال له الأصمعى : أنت شبه الحفظة تكتب لفظ اللفظة ، فقال له أبو حاتم : وهذا أيضا مما يكتب ، واختلفوا فى الحفظة فى الآية فقيل : الذين يكتبون الأعمال ، قال صلى الله عليه وسلم : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » وبه قال السدى وغيره ، واستظهره بعض ، وقال بعض المفسرين : المراد يحفظون الإنسان من كل سوء حتى يأتى أجله ، والعطف على قوله : « هو القاهر » وأل فى القاهر اسم موصول بصورة حرف التعريف ، وهو فى نفسه بمعنى الذى ، وقاهر بمنزلة يقهر فيجوز عطف يرسل على قاهر ، لأن الفاصل ليس أجنبيا ، لأن قوله : « فوق » متعلق بمحذوف حال ، وصاحب الحال ضمير قاهر ، وعامله قاهر ولا سيما أنه ظرف .

(حتَّى إذا جاء أحدَكم الموتُ) وقت الموت . (توفَّته رُسُلُنا) ملك الموت وأعوانه ، أى استوفوا روحه ، قال مجاهد : جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست ، يتناول كل من شاء أن يتناوله ، وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم فى كل يوم مرتين ، والآية دليل على أن قوله

تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت » بمعنى يتوفاكم ملك الموت وأعوانه أو تنزعها الملائكة حتى إذا وصلت فى الحلقوم أخذها ملك الموت ، ومعنى قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس » أنه خلق توفى الملائكة أو أمرهم بتوفيها ، وقيل : إن الدنيا بين يديه كالمائدة الصغيرة ، يتناول من ها هنا ومن ها هنا ، وقيل : إذا كثرت الأرواح على ملك الموت دعاها فتستجيب له ، وقيل : المراد بالرسل ملك الموت جمع تعظيما ، قيل : ينزعها الملائكة ، فإذا وصلت الحلقوم قبضها ملك الموت وأصحابنا رحمهم الله لا يجيزون أن يقال : قبض الملك أو الملائكة أو ملك الموت الروح ، ولا يجيزون إسناد قبضها إلا إلى الله تعالى ، وقالوا : من قال يقبضها ملك الموت أو الملك أو الملائكة أشرك ، وهو مشكل لوروده ، وقرأ حمزة توفاه رسلنا بألف ممالة ، وهو فعل ماض ويجوز أن يكون مضارعاً حذفت إحدى تاءيه ، وأصل الأول إذ لا دليل للثانى ، ولا داعى إليه إذ فيه الحذف .

(وهُم لا يُفرِّطُون) لا يتأخرون عن توفيه إذا حضر موته ، ولا يقدمونه إذا لم يحضر ، ولا يتعدون ما حد لهم فى التسهيل والتشديد ، وعن على ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أرفق بصاحبى فإنه مؤمن » فقال : أبشر يا محمد فإنى بكل مؤمن رفيق ، وإنى لأقبض روح ابن آدم ، فإذا صرخ صارخ من أهله قلت : ما هذا إلا الصراخ ، فوالله ما ظلمناه ولا استبقينا من أجله فما لنا فى قبضه ذنب ، فإن ترضوا بما صنع الله تعالى تؤجروا ، وإن تسخطوا أو تجزعوا تأثموا ، وما لكم عندنا من عتبة ، وإن لنا عليكم لبغتة وعودة ، فالحذر الحذر ، وما من أهل بيت شعر ولا مدر ، فى بر ولا فى بحر ، إلا وأنا أتصفح فى وجوههم فى كل يوم وليلة خمس مرات حتى إنى لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض بعوضة ما قدرت ذلك حتى

يكون الله تعالى هو الآمر بقبضها . وفى الحديث إسناد القبض إلى ملك الموت .

(ثم رُدُّوا إلى الله) إلى حكمه وجزائه أى ردهم الله إلى حكم الله وجزائه ، أوردهم الملائكة إلى حكم الله وجزائه ، وذلك بالبعث والسوق إلى موضع الحساب ، والعطف على توفته رسلنا (مولاهم الحقّ) نعت لمولاهم ، والحق اسم الله ، أى مولاهم الثابت الذى ليس بباطل ، أو مولاهم الذى يحكم بالعدل ، وقد كانوا فى الدنيا يردون إلى حكام المبطلين ، ويجازى به ، وقرىء بنصب على المدح ، كقولك : الحمد لله الحميد بنصب الحميد ، ولا منافاة بين قوله تعالى : « مولاهم » أى مولى الكفار والمؤمنين ، أو مولى الكفار ، وقوله : « وإن الكافرين لا مولى لهم » لأن ما هنا بمعنى أنه تولى أمر الكافرين ، أو الكافرين والمؤمنين بالجزاء ، ومعنى لا مولى لهم لا ناصر لهم .

(ألا لَه الحُكْم) لا لغيره حين ردوا إليه جل وعلا (وهُو أسْرعُ الحاسِبينَ) أسرع من يحسب ، لأنه لا يحتاج إلى فكر ولا عقد أصبع ونحوها ، ويحاسب الخلق فى مقدار حلب شاة ، ولو شاء لكان أقل لكمال علمه تعالى ، ولا يشغله حساب عن حساب لكمال قدرته تعالى ، قيل لعلى : كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم ، وقيل : كيف يحاسب الله العباد فى يوم واحد ؟ فقال : كما يرزقهم فى الدنيا فى يوم واحد ، والمراد باليوم الواحد فى الآخرة مقدار يوم من أيام الدنيا .

(قلْ) لعبدت الأصنام (مَنْ ينجّيكُم مِن ظُلُماتِ البرّ والبحْرِ) قيل : ظلمات البر والبحر ظلمة الليل بلا سحاب ، وظلمته بسحاب ،

وقيل : ظلماتهما الضلالة عن الطريق فيهما ليلا أو نهاراً فى ظلمة أو ضوء ، فذلك استعارة للفظ الظلمات لخطأ السبيل فيهما بجامع الهلاك ، والأولى أن يقال : هى شدائد البر والبحر كلها من ضلالة الطريق ، لظلمـــة الليل والسحاب أو غيرهما ، ومن الخسف ، ومن الريح العاصـــف ، والموج الهائل ، وضرب السفينة للجبل ، ودخول طرفها فى الدردور ، وانكسارها ، والغرق ، وملاقاة العدو فى البر والبحر ، وهجومه ، والسبع والمضار كلها على الاستعارة ، كما يقال : يوم مظلم قال الشاعر :

* لكن لكم يوم من الشر مظلم *

ويقال : يوم ذو كواكب ، وقرأ يعقوب بإسكان نون ينجيكم وتخفيف جميعه ، والاستفهام للتوبيخ والنفى ، أى لا مخلوف ينجيكم وهو إلزام وتبكيت لهم .

(تدْعُونَه تضرُّعاً وخُفْيةً) لينجيكم من تلك الظلمات ، والتضرع والخفية مفعولان مطلقان ، فإن التضرع الجهر ، والخفية الإسرار ، وهما الدعاء ، والدعاء هما ، أى يدعون دعاء جهيراً أو دعاء خفيا ، أو يجهرون فى دعائهم جهراً ، ويستخفون فيه خفاء أو يقدر مضاف أى تدعونه ، دعاء تضرع ودعاء خفية ، أو حـــالان ، أى ذوى تضرع وذوى خفيـــة ، أو متضرعين ومخفين ، وقرىء بكسر الخاء وهو لغة فى خفية بضـــمها ، والجمهور على الضم ، ونسب بعضهم الكسر إلى عاصم فى رواية أبى بكر عنه ، وهو على كل حال من الخفاء وقرأ الأعمش خفية بالكسر من الخوف ، وجملة تدعونه حال من الكاف .

(لئن أنْجيتَنا مِنْ هذِهِ) مفعول لحال محذوفه ، أى قائلين لئن

أنجينا من هذه الظلمات ، ومحكى لتدعونه ، لأن فيه معنى القول مع زيادة المعنى الذى تعدى به إلى الهاء ، والإشارة إلى الظلمات ، وأفرد اللفظ بتأويل الجماعة ، أو الجملة ، أو وجه قصد معنى الجمع أنه كلما وقع قوم أو فرد فى ظلمة دعوا الله فى الخلاص منها قائلين : لئن أنجيتنا من هذه الظلمة ، فتجتمع منهم ظلمات ، وقد تكرر من قوم واحدة ظلمات كل على حدة أو بمرة فجمعها ، ويجوز عود الإشارة إلى الظلمة الواحدة على الأصل ، ووجه هذا القصد أن يذكر الله حقيقة دعوة كل واحد وكل قوم عند الظلمة ، الواحد على العموم البدلى ، وقرىء : لئن نجيتنا بالشديد فتح النون وإسقاط الهمزة ، وقرىء : لئن أنجانا بالألف .

(لنكونَنَّ مِنَ الشَّاكرين) لنعمتك بالإيمان بجميع ما يجب الإيمان به ، وعبادتك وحدك ، وفى معنى ذلك ، أو يقال من الشاكرين بمعنى من المؤمنين ، والمراد شكر نعمتى الانجاء وغيره أن المضطر يعد من نفسه ما لا يفرح به ويغتبط أحقر أحواله من قبل ما دام مضطراً .

(قُلِ اللهُ ينجِّيكم مِنْها) من الظلمات ، أو الظلمة على حد ما مرّ وشدد الكوفيون وهشام الجيم ، وفتحوا النون ، أمر الله جل وعلا رسوله صلى الله عليه سلم أن يقول لهم : الله ينجيكم منها ، لأنه لا محيل لهم عن هذا الجواب ، نطقوا به أو سكتوا أو جحدوه عناداً ، والواقع أنه لم يجحدوه .

(ومِنْ كلِّ كرْبٍ) غم شديد يأخذ النفس غير تلك الظلمات . (ثم أنتُم تشْرِكُون) تعودون إلى الشرك لنسيانكم وقت الشدة ، فلا توفون بالعهد ، وثم بيان لبعد منزلة الشرك عن رتبة إقرارهم ووعدهم ، وذلك أنهم يقرون بأن الله هو المنجى ، ولو جاء على لسان نبيه عنهم فى :

« قل الله ينجيكم » ويجوز العطف على تدعونه ، فتكون ثم لتراخى الحكم ، أعنى تراخى وقوع الإشراك عن دعائهم •

(قلْ هُوَ القادِرُ عَلَى أن يبْعَثَ عليكم عـذاباً مِن فَوقِكم) كإرسال الماء من السماء على قوم نوح ، والريح على عاد ، والصيحة على ثمود ، والحجارة على أصحاب الفيل ، وعلى قوم لوط بعد أن قلبهم (أوْ مِن تَحْتِ أرجُلِكم) كما خسف قوم شعيب ، وكما أرسلت الأرض ماءها لهلاك قوم نوح إرسال السماء ، وكما قلبت الأرض على قوم لوط ، فإنها تحت أرجلهم ، ثم رفعت فكانت عليهم ، وكما أغرق فرعون فإن الماء المستقر فى الأرض مما يوصف بأنه تحت الأرجل ، إذ يدخل فيه بالأرجل فى الجملة ، وإذ هو فى الأرض التى تحت الأرجل •

وعن السدى ، عن أبى مالك : من فوقكم الرجم ، ومن تحت أرجلكم الخسف ، وهو أيضا مروى عن مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك ، وعن مجاهد وابن عباس : من فوقكم السلاطين الظلمة ، وحكام الجور ، ومن تحت أرجلكم العبيد والسفلة ، وقيل : من فوقكم حبس المطر ، ومن تحتكم منع النبات ، والظاهر أن الخطاب للمشركين فى قوله : « على أن يبعث عليكم » إلخ كما هو لهم فى قوله : « قل الله ينجيكم ثم أنتم تشركون » وما قبله ، وقال أبىّ بن كعب وجملة : هو للمؤمنين ، قال جابر بن عبد الله وغيره ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : لما نزل « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم » قال : « أعوذ بوجهك » ولما نزل : « أو من تحت أرجلكم » قال : « أعوذ بوجهك » ولما نزل :

(أو يلبسكم شيعاً ويذيق بَعضكم بأسَ بَعضٍ) قال : « هذه أيسر وأهون • » استدل بهذا الحديث من قال الخطاب للمؤمنين

وهو ضعيف ، لبعد أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم تعوذ لأمته من هذه الأشياء التى توعد بها الكفار وهون الثالثة ، وقد رجح أبو عبد الله محمد بن جرير الطبرى أنه ليس للمؤمنين ، وقال : إنه للمؤمنين جماعة منهم ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد ، وابن العالية ، وأبى بن كعب قالوا جميعا : معنى « يلبسكم شيعا » الأهواء المختلفة ، ومعنى « يذيق بعضكم بأس بعض » القتال الذى وقع بين الصحابة وسفك الدماء ، فهاتان اثنتان وقعتا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ، وبقيت اثنتان : بعث العذاب من فوق ، وبعثه من تحت ، وهما لا بد واقعتان عندهم بعد ذلك ، قال أبو العالية : الخسف والمسخ ، وقال أبى : الخسف والرجم .

قال سعد بن أبى وقاص : أقبلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية ، دخل فركع فيه ركعتين فصلينا معه ، ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال : « سألت ربى ثلاثا أعطانى ثنتين ومنعنى واحدة ، سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسَّنة أى بالجوع فأعطانيها أى أعطانى مسألتى ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فأعطانيها ، وسألت ربى أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » وهذا الحديث يفيد أن الخطاب للمؤمنين ، ويجاب بأن المراد سألت ربى أن لا يفعل بأمتى ما قال فى الآية إنهُ قادر على فعله بالمشركين ، من لبسهم شيعا ، وإذاقة بعضهم بأس بعض .

ويروى : « سألت ربى أن لا يظهر على أمتى أهل دين غيرهم فأعطانى ذلك » والمعنى أن لا يقطع بهم دينهم قبل تمام علوه ، وقد كان ذلك ، فإنه ما غلب النصارى المسلمين إلا بعد بلوغ الإسلام أطراف الأرض وعلوه كل علو ، وخمود غيره كل خمود « وسألته ألا يلبسهم شيعاً

فمنعنى ذلك » وعنه صلى الله عليه وسلم : « استقيموا ونعما إن استقمتم وخير أعمالكم الصلاة ، ولن تخترموا ، ولن تقتلوا ، ولا أخاف عليكم إلا أنفسكم » وعن الحسن ، عن خباب بن الأرتّ : أنهُ صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما صلاة فأطالها ، فقيل : يا رسول الله قد رأيناك اليوم تصلى صلاة ما رأيناك تصليها ؟ قـال : « إنها صلاة رغبـة ورهبـة ، وإنى سألت ربى ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة ، سألته أن لا يسلط على أمتى عدوًّا من غيرها فأعطانيها ، وسألتهُ أن لا يسلط على أمتى السّنة الشديدة فتهلكهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » ومعنى يلبسكم شيعاً يخلطكم فرقاً متحزبين على أهـواء شتى ، فشيعا حالٌ من الكاف جمع شيعة بكسر الشين وإسكان الباء ، وهو القوم المجتمع على أمر يشيع بعضهم فيه بعضاً أى يتبع ، فإذا كان الناس شيعاً كل شيعة على أمر غير أمر الأخرى ، وذلك مفتاح القتال ، ويذيق متعدى لاثنين نصب بعضكم بواسطة همزة أذاق وهو المفعولُ الأول ، وذلك لأنه الفاعل فى المعنى ، وبأس مفعول ثان تعدى إليه بنفسه ثلاثيه أى يصير الله بعضكم ذائقا بأس بعض .

(انظُر كيفَ نُصرِّفُ الآيات) نكررها بالوعد والوعيد ، ووجوه مختلفة ليعلم المشركون بطلان مذاهبهم وتناقضها ، ونبينها آيات القرآن أو الدلائل (لعلّهم يفْقَهون) يعلمون أنهم على باطل .

(وكذَّب بهِ قَوْمك) أى بالعذاب المذكور فى قوله : « أن يبعث عليكم عذاباً » أو بالبأس فى قوله : « بأس بعض » وبالقرآن لدلالة الآيات عليه ، وهن إما القرآن وإما الدلائل ، والقرآن من الدلائل أو بالتصريف المعلوم من نصرف .

(وهُو الحقُّ) أى العذاب هو الحق ، أى واقع لا محالة إن أصروا على التكذيب ، أو البأس هو الحق واقع لا محالة ، والقرآن هو الحق النازل من عند الله أو التصريف هو الحق ، لا يجوز التكذيب به ، ويجوز كون الحق بمعنى الصدق ، والواو للحال ، وصاحب الحال هاء به .

(قُل لَسْتُ عليكُم بِوَكيلٍ) بحفيظ ، وكل الله إلى أمركم فأمنعكم من التكذيب حتى أكون يعاقبنى الله إن لم تخرجوا من الشرك ، أو لست بحفيظ على قلوبكم ، بل أطالبكم بالوتحيد والطاعة بحسب الظاهر ، وسركم إلى الله أو لست حفيظا عليكم أجازيكم إن لم تتوبوا ، وإنما الجزاء من الله ما على إلا البلاغ ، وقيل : لم أوكل على حربكم ، فعلى هذا القول ينسخ هذا بآية السيف .

(لكلِّ نبإٍ مُستقرٌ) لكل خبر يخبر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم زمان يستقر فيه تأويله ، وهو ما تضمنه الخبر بالظهور إلى الخارج ، لا يتقدم ولا يتأخر ولا يختلف ، فمستقر اسم زمان ، وهو أعنى البقاء على عمومه ، ومنه بناء العذاب ، وفسر بعضهم الآية بنبأ العذاب وعد الله المؤمنين أن يعذب المشركين فعذبهم يوم بدر ، وأجيز أن يكون مصدراً ميميا ، بمعنى لكل نبأ استقرار ، أى ثبوت يثبت ما تضمنه فى الخارج ، ويقع ، ولا يكذب ، وأجيز أن يكون اسم زمان على معنى لكل خبر زماناً يخبر الله به رسوله فيه ، وذلك فى الوعيد لكفار ، فالمستقر على هذا للإخبار لا لوقوع المخبر به ، وسمى ما يخبر به بعد نبأ بأنه سيخبر به فسيكون خبراً ، ويجوز فى هذا الوجه وغيره أن يكون البناء بمعنى ما يخبر به لانفس كلام الإخبار ، وهو وجه مرجوح ، ويجوز أن يراد كل خبر يخبر الله به رسوله أو غيره من الرسل الماضية ، وفى الخير أو فى

الشر ، وعلى كل حال يدخل فيه مشركى قريش كغيرهم باعتبار الوعيد ، ولذلك خاطبهم الله تعالى بقوله :

(وسَوفَ تعلَمون) صحة وعيدنا وصدقه إذا وقع تأويله فى الدنيا والآخرة ، وهذا تهديد وعيد للكفار إذ كذبوا بالآخرة ، وكذبوا كلام الله العزيز الجبار .

(وإذا رأيتَ) يا محمد أو يا كل من يمكن منه أن يرى ، وعلى كل حال يدخل غير رسول صلى الله عليه وسلم ، لأن حد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحد غيره سواء ، لا بدليل الخصوصية ، ولقوله تعالى : « ولقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله » الآية .

(الذين يخُوضُون فى آياتِنا فأعْرِض عَنْهم حتَّى يخُوضُوا فى حَديثٍ غَيرِه) المفعول الثانى لرأيت محذوف ، أى إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا يخوضون فيها ، أى إذا علمتهم يخوضون ، لأنه من رأى إنساناً يفعل شيئا علم أنه يفعله ، وباعتبار هذا صح فى كل رؤية بصر أن تجعل علمية باعتبار ما يحصل من العلم فى القلب برؤية العين ، والرؤية بمعنى العلم تعم ما سمع وما أبصر ، وما حكى منه أن يقال إنهم يخوضون فلا يمشى إليهم بالقعود معهم ، ومعنى الخوض فى آيات الله عز وجل التكلم فيها بالباطل ، كالكذب واللهو واللعب ، فأصل الخوض الدخول فى الماء مع الانتقال فيه ، ويستعار للشروع فى الحديث وغيره ، وأكثر ما يستعار له إذا كان بوجه باطل ، أو كانوا إذا جلسوا خاضوا فى آيات الله بالتكذيب والاستهزاء والطعن فيها ، فهذا الخوض خوض بباطل بقرينة المقام ، وفى قوله : « حتى يخوضوا فى حديث غيره » مطلق الشروع فى الحديث الذى ليس بذنب ، لأن الحديث الذى هو ذنب لا يجوز

القعود إليه أيضاً ، ويجوز أيضا أن يراد بالخوض الأول مطلق الشروع فى ذكر آيات الله ، من حيث إنه إذا تناولوها فلا بد أن يخطوا أمر الله ورسوله والمؤمنين أن يقوموا عن مجلس فيه الخوض فى آياته تعالى ، بحيث لو نهوا الخائضين لم ينتهوا ليكف الخائضون عن الخوض بالقيام إذا قاموا .

ومعنى الإعراض عنهم القيام عنهم ، وإن كانوا قياماً أو ماشين ، فالذهاب عنهم ، والهاء فى غيره عائدة إلى القرآن المدلول عليه بذكر الآيات فى قوله : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا » ولا مانع أن يراد بالآيات مطلق الدلائل ، فيفرد الضمير لأن المعنى البرهان ، ولا شك أن الخوض المنهى عنه ، وعن الجلوس عنده هو الخوض فى آيات الله بالباطل ، وأما الدخول فى التكلم فى صفات الله كما هو شأن المتكلمين ، فلا يدخل فى هذا الخوض كما زعمت الحشوية متمسكين بالآية .

(وإمَّا) إن الشرطية وما التى هى صلة للتأكيد ، أدغمت النون فى الميم (يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطان) النهى عن القعود إليهم حال الخوض أو أن ما هم فيه خوض فتقعد معهم وهم يخوضون ، وقرأ ابن عامر ، وابن عباس بفتح النون وتشديد السين (فَلا تَقْعُد بعْدَ الذِّكْرى) بعد تذكرك أنك نهيت عن الجلوس إليهم حال الخوض ، أو بعد تذكر إنما هم فيه خوض (مَعَ القَوم الظَّالِمِينَ) أى معهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، ليصفهم بأنهم ظلموا أنفسهم وغيرهم بالخوض فى آيات الله ، وليصفهم بالإشراك تنبيها على أن ذلك الخوض شرك ، والشرك ظلم « إن الشرك لظلم عظيم » أو ليصفهم بأنهم حمق إذ وضعوا الشىء فى غير موضعه ، ومن معانى الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، وذلك أنهم وضعوا التكذيب والاستهزاء فى موضع التصديق والاستعظام ، ويجوز أن يكون المعنى : وإما ينسينك الشيطان قبح القعود عند الخوض

فى الآيات ، فلا تقعد بعد أن ذكرناك قبحة ، فلا تجالسهم وقم عنهم ، فإن مجالسة المستهزىء ينكرها العقل •

(ومَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَىْءٍ) ما على الذين اتقوا المعاصى والخوض شىء من حساب هؤلاء الخائضين على معاصيهم وخوضهم ، قيل : لما نزل : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا » الآية قال المؤمنون : إذا كنا لا نقرب المشركين ولا نسمع أقوالهم ، فما يمكننا طواف ولا قضاء عبادة فى الحرم ، فنزل : « وما على الذين يتقون » الآية ، وفى رواية عن ابن عباس : لما نزل : « وإذا رأيت الذين » الآية قال المسلمون : كيف نقعد فى المسجد الحرام أو نطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً ؟ وفى رواية : قال المسلمون : إنا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم ، فأنزل الله هذه الآية ، وما على الذين يتقون لا يصح عطف ذكرى على حساب ، أو على شىء إلا أن لكن لا تعطف بعد الواو ، وإذا كانت الواو قبلها فهى العاطفة للجملة ولا للمفرد ، وليست لكن عاطفة ، وأيضا لوعطف على شىء لزم تسلط من الزيادة على مثبت ، لأن ما بعد لكن مثبت ولزم تقييده بقوله : « من حسابهم » لأن من شىء مقيد به ، وسواء العطف على لفظ شىء أو تقديره ، إلا أن العطف على تقديره يضعف ، فيكون من لا تكون زائدة فى الإثبات ، وقد يجوز ذلك كله بناء على جواز زيادة من فى الإثبات • ولظهور أن من حسابهم لا يكون قيداً فى ذكرى ولو كان قيداً فى شىء •

(ولكنْ ذِكْرى) ولكن عليهم ذكرى أى تذكيرهم بالنهى عن الخوض والاستهزاء ، فذكرى اسم مصدر بمعنى تذكير مبتدأ خبره محذوف كما رأيت ، ويجوز أن يكون مفعولا مطلقاً ، أى ولكن ذكروهم ذكرى أى تذكيراً ، ويجوز أن يكون خبر المحذوف ، أى ولكن نهيهم

تذكير لهم عن موافقة الخائضين والسكون لهم ، أو ولكن نهيهم تذكير للخائضين لعلهم يتركون الخوض بالنهى عن القعود إليهم .

(لعلَّهم يتَّقُون) أى لعل الخائضين يتقــون الخوض بتذكيرنا إياكم على القعود إليهم عند الخوض ، أو لعل الخائضين يتقون الخوض بتذكير الذين يتقون إياهم ، وتركهم الخوض لعله يكون بأن يؤمنون أو يستحيوا من الذين يتقون إذا نهوهم ، ويكرهوا مساءتهم ، ويجوز عود الضميرين إلى الذين يتقون أى لعل الذين يتقون يزيدون التقوى أو يدومون عليها ، ولا يفسخونها بمجالسة الخائضين .

واختلفوا فى قوله : « وما على الذين يتقون » الآية ، فقيل : ترخيص ونسخ للنهى عن القعود مع الخائضين بشرط النهى ، وقيل : إن النهى ورد أولا مطلقا ، وقيده فى هذه الآية ، وهو أنه يجوز القعود مع النهى ، ويحتمل أن الأولى فيمن كان منظوراً إليه ، فينهى وإن لم ينتهوا قام ، والثانية فى غير المنظور إليه بنهى إن قدر ، وإن لم ينتهوا قعد منكراً لذلك ، أى ولكن ذكروهم إن قدرتم ، وكذلك هذه الآية قيل لقوله تعالى : « ولقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر » الآية ، فإنه مطلق ، ويقيد بهذه الآية أى ولقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيــات الله يكفر بها ويستهزأ بهــا ، فلا تقصــدوا معهم إلا أن تذكروهم ، هذا مذهب الجمهور وهو أصح .

وقال سعيد بن المسيب وابن جريج ومقاتل : هذه الآية نسخت بقوله : « ولقد نزل عليكم فى الكتاب » الآية ، ثم إنه قيل : الآية مختصة بالمسجد وفى شأنه نزلت ، من قدر على الإنكار فى المسجد فلينكر ، ومن لم يقدر قعد بلا إنكار ، ومن أنكر ولم يقبل عنه قعد ، وقال بعض :

السوق كالمسجد للحاجة ، وقيل : كل من أنكر بلسانه جاز له القعود إذا دعته حاجة مهمة ، ولا يحسن هذا إلا لضرورة •

(وذَرِ الذينَ اتَّخذوا دينَهم لعباً ولَهواً) أى ترك مخالطتهم إلا لهم كحاجة لابد منها ، وكأمر ونهى ، أو لا تبال بأفعالهم وأقوالهم فلم تضرك وبالها عليهم لا عليك ، ويجوز أن يكون ذلك تهديداً لهم ، وبه قال مجاهد كقوله تعالى : « ذرنى ومن خلقت وحيداً » ومن قال كقتادة المعنى لا تقاتلهم على خوضهم وشركهم ، قال : نسخ ذلك بآية السيف ، ومعنى اتخاذهم دينهم لعباً ولهواً أنه لابد لكل أحد مكلف من دين هو دين الحق ، وهؤلاء اتخذوا دينهم غير دين الحق ، إذ جعلوه لعباً ولهواً ، والحاصل أنهم أحبوا أن يكون لهم دين فجعلوه أمراً يلهون به عن الحق ويلعبون به ، ولا ثمرة لهم منه ، وهو عبادة الأصنام ، وتحريم البحائر والسوائب ونحو ذلك مما مرجعه إلى التشهى والتقليد •

ويجوز أن يكون المراد بدينهم دينهم الذى فرض عليهم الله تعالى ، ونسب إليهم بلزومه إياهم ، ومعنى اتخاذهم دين الله لعباً ولهواً استهزاءهم به ، ويجوز أن يراد بالذين العيد ، أى اتخذوا عيدهم لهواً ولعباً ، كانوا يلهون ويلعبون فى عيدهم ، ومن شأن العيد العبادة ، فالمشركون كلهم أهل الكتاب وغيرهم يلهون ويلعبون فى أعيادهم ، بخلاف المسلمين ، فإن أعيادهم للصلاة والتكبير ، وزكاة الفطر والضحايا ، وذكر الله والخطبة ، والاستماع لها ، وحضور الجماعة ، فمن فعل فى عيده لعباً ولهواً فقد تتبع سنن من قبله من أهل الكتاب ، إلا من قصد برميه أو إجراء فرسه أو نحو ذلك التدرب على الجهاد ، وسمى العيد ديناً لأنه يعتاد ، ومن معانى الدين العادة •

﴿ أهذا دينه أبداً وديني ﴾

ولعباً مفعول ثان ، ويجوز أن يكون اتخذوا بمعنى اكتسبوا ، فيكون لعباً مفعولا لأجله ، أى اكتسبوا ما هو دينهم ليلهوا به ويلعبوا ، ويجلبوا من الدنيا كالرياسه والمال ، ولما لم تكن لذلك منفعة فى الآخرة كان لهواً ولعباً ، أى لا تجالسوا أهل الخصومات فانهم الذين يخوضون فى آيات الله ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم ببيتٍ فى ربض الجنة لمن ترك المراد ولو كان محقاً ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مزاحاً ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه » وعنه صلى الله عليه وسلم : « من جعل الهموم هما واحداً هم المعاد كفاه الله هم الدنيا ، ومن تشعبت به الهموم هموم الدنيا لم يبال الله تعالى فى أى أوديتها هلك » .

(وغرَّتْهم الحياةُ الدُّنيا) خدعتهم بزخرفها ، فأقبلوا إليها وتركوا الآخرة ، ، وقد أنكروها وتوهموا أن ما أعطوه فى الدنيا أعطوه لكرامتهم على الله (وذَكِّرْ بهِ) أى ذكر المشركين بالقرآن أو بدينهم المذكور فى قوله تعالى : « اتخذوا دينهم » على أن المعنى الدين الذى كلفهم الله به .

(أن تُبْسَل نفسٌ بما كَسَبَت) فى تأويل مصدر مفعول لأجله على حذف مضاف ، أى مخافة بسل النفس بما كسبته من الأعمال القبيحة والعقائد الزائفة ، أو بكسبها ، وهذا أولى من أن يقدر لئلا تبسل ، ويجوز تقدير عنى لتضمن التذكير معنى الزجر ، أى ذكرهم عن بسل النفس ، أى ازجرهم عنه بالقرآن أو بالدين ، ومعنى تُبْسَل تسلم إلى الهلاك ، أى تترك له وتخذل له ، قاله الحسن وعكرمة ، فإذا ذكروا

انزجروا عما يوجب إسلامها إلى الهلاك ، ويجوز أن يكون بمعنى تمنع عن مرادها فى الجملة وهو الخبر ، فبقوتها فى يوم البعث ، يقال أبسله وبسله أى خذله وتركه لسوء ، أو منعه مما يجب •

يقال : أسد باسل أى مانع ، لأن فريسته لا تفلت منه ، والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه ، ويقال : هذا بسل عليك ، أى حرام كذلك النفس يحرم عليها خير الآخرة ولا يحل لها لكسبها ، وبسل وأبسل بمعنى رهن ، قال ابن عباس : المعنى أن ترهن نفس فى النار بما كسبت فى الدنيا ، قال قتادة : تحبس فى جهنم ، وقال مجاهد : تمنع عن مرادها وتخذل وتسلم للهلاك ، وقال ابن زيد : تبسل تجازى وتؤخذ ، وقيل : تفضح ، ونسب لابن عباس ، ويجوز أن يكون تبسل فى تأويل مصدر مفعولا ثانياً لذكر أى ذكرهم به إبسال نفس كما يقال : ذكره الآخرة وذلك فى جمع أوجه معانى تبسل وهى متقاربة ومتلازمة •

(لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِىٌّ وَلا شَفِيعٌ) أى قريب يلى أمرها ، ويدفع العذاب وجلب الخبر قهراً ، ولا ذو جاه يجلب إليها الخير ويدفع الضر على سبيل التضرع ، والجملة مستأنفة ، قيل أو نعت لنفس •

(وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ) أى وإن تعدل هى ، أى وإن تعدل النفس كل عدل ، أى وإن تفتدى النفس كل افتداء أى وإن اجتهدت فى المجىء بعدلها ، أى بما يعادلها ويماثلها ، فيكون فى النار بدلها ، وتطلب أن يؤخذ منها كما تؤخذ أثمان الأشياء فى الدنيا وأعواضها ، والعدل الفدية ، لأنها تعادل المفدى ، والمراد هنا المعنى المصدرى لا ما يفتدى به ، فكل مفعول مطلق ، وقال بعض : العدل وتعدل كلاهما من باب

العدل الذى هو ضد الجور ، فأما أن يريد هذا فى الآخرة كما يتبادر فلا إشكال ، لأنه لا تقبل فى الآخرة توبة ولا عمل ، وإن أريد فى الدنيا فلا شك أن توبة الكافر تقبل ، فلعل المراد أنها لا يقبل عدلها مع بقائها على الشرك .

(لا يُؤخذ منها) أى لا يؤخذ العدل منها ، فضمير يؤخذ عائد إلى العدل بمعنى الافتداء ، أو ضد الجور ، أى لا يقبل منها ذلك كذا ظهر لى والله ثم رأيته والله للفخر والحمد لله ، فلا إشكال فى إسناد الأخذ إلى العدل بمعنى الافتداء ، إذ كان الأخذ بمعنى القبول ، وإنما يمنع إسناد الأخذ إلى افتداء إذا كان الأخذ بمعنى القبض ، لأن الأخذ بمعنى القبض حقيقة فى الجسم ، ويجوز أن لا يكون ضمير فى يؤخذ فيكون نائب الفاعل هو قوله منها ، أو مجرور من قولك زيد أخذ منه بالبناء للمفعول .

(أولئكَ الَّذين أُبسِلُوا بما كَسَبُوا) لا تكرير ، لأن الأول أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم مخافة أن يبسلوا وهذا إخبار بأنه قد وقع إبسالهم والإشارة إلى المشركين (لَهم شراب من حَميمٍ) من ماء حار غلى بالنار غلية ، والشراب بمعنى المصدر ، أى يشربون من حميم ، فمن حميم متعلق بشراب أو بمعنى ما يشرب ، فمن حميم يتعلق بمحذوف ، والجواب نعت لشراب ، ومن على الأول للابتداء ، وعلى الثانى للتبعيض أو للبيان .

(وعذاب أليم) بنار جهنم ، ففى بطونهم ماء يشربون حار كالنار ، وأبدانهم تحرق من ظاهرها بالنار (بما كانُوا يكفُرون) أى بكونهم يكفرون ، أو بكفرهم وما مصدرية بلا تنازع فيه شراب وعذاب ، وإن

علق بقولهم أو باستقراره كفى عن ذلك كله ، وجملة لهم شراب من حميم تأكيد وتفصيل لقوله : « أبسلوا بما كسبوا » قيل : دعا عبد الرحمن ابن أبى بكر أباه أبا بكر رضى الله عنه إلى عبادة الأوثان ، فنزل قوله تعالى :

(قُلْ أَنَدْعُوا من دُون الله) الآية وصح أن يكون سبب النزول دعاءهم أبا بكر للأصنام ، ويكون الجواب من رسول الله صلى الله عليه وسلم بصيغة نفسه وغيره ، للاتحاد الذى كان بين رسول الله صلى الله وسلم والمؤمنين ، ، خصوصا بينه وبين الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، وتقدم استشكال أن يقال : نزلت آية كذا من الأنعام فى شأن كذا لنزولها بمرة واحدة ، ومعنى ندعوا نعبد .

(ما لا يَنْفَعنا) إن عبدناه (ولا يضرّنا) إن لم نعبده ، أو ما لا طاقة له على نفعنا أو ضرنا مطلقاً وهو الأصنام ، والاستفهام توبيخ وتهديد (ونُرَدُّ على أعقابنا) أى نرد إلى ورائنا لأن عقبى القدم من خلفه ، وهو استعارة للوقوع فى الشرك بعد الكون فى الإسلام لمن كان قبل ذلك فى الشرك ، أو لم يكن ، وذلك أن الإسلام والعمل به سعى إلى المراد وهو ثواب طاعة الله ورضاه ، فالإعراض عنه كالرجوع إلى خلف فى القبح ، وعدم الوصول إلى ما ذهب إليه ، ولك أن تقول : الرد على الأعقاب استعارة للوقوع فى الجهل الذى كان عليه الإنسان أولا كما قال الله جل وعلا : « ثم رددناه أسفل سافلين » فى أحد الأوجه ، وعلى الوجهين فذلك استعارة مبنى على مجاز مرسل لأن الرد حقيقة فى الإيقاع فى الشىء بعد الكون فيه ، والانصراف عنه ، ثم استعمل فى مطلق الإيقاع فيه استعمالا للفظ المقيد فى المعنى المطلق ، والجهل الذى كان عليه الإنسان يشمل شرك من كان مشركاً ثم أسلم ،

وعصيانه وجهله ، ويشمل جهل من لم يشرك قط وعصيانه ، وإن قلنا : الآية جواب مطابق لمن كان على شرك ثم أسلم ، ثم دعى إليه ، فالرد على الأعقاب كناية للرجوع إلى الشرك والمراد هو إبليس وأعوانه من الجن والإنس أو الله باختيار العبد .

(بَعْد إذ هدانا الله) إلى التوحيد والطاعة (كالَّذى اسْتهوتْه الشَّياطين فى الأرض) كالرجل الذى عالجت الشياطين هوية فى الأرض ، أى وقوعه فى هوية من الأرض ، فالسين والتاء للطلب ، فإن علاج الشيء طلب له ، ويجوز أن يكون معنى استهوته عالجت وقوعه فى الأرض المهلكة بالضلالة فيها ، والعطش والجوع ، ففى الوجه الأول تشبيه واحد ، وفى الثانى تشبيه مبنى على تشبيه استعارى ، فإنه شبه الإيقاع فى أمر مهلك ، والإهلاك بلا سقوط فى هوة من الأرض بالإيقاع فى الهوة ، ثم شبه الصرف عن الإيمان بإيقاع الرجل فى ذلك الأمر المهلك ، وفى الأرض متعلق باستهوت ، وقرأ حمزة استهواه بألف مما له ، والشياطين مردة الجن ، ومن أثبت الغيلان منها قال : أراد الغيلان .

والمتبادر من الآية ثبوت أن الشياطين قد تتخيل للإنسان فى سفره فتضله باتباعها ومنكر ذلك يقول : إن ذلك غير واقع ، ولكنه فرض مثال ، وكالذى متعلق بنرد ، أو بمحذوف حال من ضمير نرد ، أو بمحذوف نعت لمصدر محذوف ، أى رداً ثابتاً كالذى استهوته ، أى كرد الذى ، أو الكاف اسم هو حال من الضمير ، أو نعت للمصدر المحذوف ، أى رداً مثل رد الذى استهوته ، ووجه الشبه أن الذى استهوته قد كان قبل استهوائه على إقبال من أمره ومن غويه ، ثم صرفته الشياطين عنه بأن أضلته فى طريقه فمات ولم يصل البلدة التى ذهب إليها .

(حَيْران) حال من هاء استهوته ، أى متحيراً عن الطريق لا يدرى

ما يصنع ، ويجوز تعليق فى الأرض بحيران وراءه مرققة فى أصح الروايتين عن ورش لوقوعها بعد سكون ياء ، وهو مذهب أبى عمرو الدانى ، وقيل : عن ورش بالتفخيم ، وبه قال أبو محمد مكى وشريح الأندلسيان المعاصران لأبى عمرو الدانى ، ووجهه قيل : إنهُ بوزن عمران ، وعمران عجمى مفخم ، ولو استحق الترقيق أو قرىء راءه بعد كسرة لم تفصل إلا بساكن ، وفيه أنه لم يوازيه الوزن التام بكسر عين عمران وفتح حاء حيران ، ووجه أيضا أصله حيران بفتح الياء ، وسكنت تخفيفاً وليوازن عمران ، وفيه أنه لا نسلم أن أصلها الفتح ، وأنهُ يقال أى فائدة فى دعوى الذين يدعون موازنة عمران .

(له أصْحابٌ) الجملة حال من من المستتر فى حيران ، أو حال ثان من هاء استهوته ، ومن أجاز نعت الصفة أجاز أن تكون الجملة نعتاً لحيران ، وهاء له عائدة للذى استهوته الشياطين وقوله : (يدْعُونه إلى الهدَى) نعت لأصحاب ، والهدى الإرشاد ، فيقدر مضاف ، وكذا إن فسر بالتوفيق أى يدعونه إلى طريق الهدى وهو دين الله المستقيم ، أو سمى المهدى إليه هدى مبالغة ، وهذا تجريد بذكرها يناسب بعض المشبه فى التشبيه المركب ، فإن الدعاء إلى الله يشبه إلى طريق الأرض الموصل إلى المطلوب فيها ، والداعون هم المسلمون ، وأولى من ذلك أن يكون الهدى طريق الأرض الموصل للمطلوب ، والداعون مسافرون حاضرون الميزان قد صاحبوه ، فيكون ترشيحاً للتشبيه إذ كان يناسب بعض المشبه به المركب .

(ائْتنا) مفعول بحال محذوفة أو لنعت محذوف ، أى لأصحاب قائلين ائتينا ، أو يدعونه إلى الهدى قائلين ، فمن وقف على الهدى أثبت ألف الهدى وبدا ائتنا بهمزة وصل مكسورة ، ومدها مدا متوسطاً بالياء

بعدها ، وأصل هذه الياء همزة أتى ، ومن وصل حذف ألف الهدى للساكن بعده وهو الألف الذى تبدل به همزة أتى فى فعل الأمر ، فتمد به الدال مداً طبعياً ، فهمزة أتى فى فعل الأمر ياء فى الوقف على الهدى ، وألف فى الوصل نطقا ، وأما خطا فياء ، هذا ما اعتمدته من قراءات ، ومنها إبقاء الهمزة بعد همزة الوصل ساكنة بلا قلب لها ياء فتكتب همزة ساكنة وصلا ووقفا .

وهنا قال الزمخشرى : يقولون لهُ ائتنا ، وقد اعتسف المهمة تابعاً للجن لا يجيبهم ، أى لا يجيب القائلين ائتنا ، ولا يأتيهم ، وهذا مبنى على ما تزعمه العرب وتعتقده أن الجن تستهوى الإنسان ، والغيلان تستولى عليه كقوله : « كالذى يتخبطه الشيطان » فشبه به الخالى عن طريق الإسلام ، التابع لخطوات الشيطان ، والمسلمون يدعونه إليه ولا يلتفت إليهم انتهى ، وليس فى كلامه إنكار للجن تصريحاً ولا تلويحاً ، بل إنما لوح أن إنكار الغول التى تدعى العرب أنها تظهر للمسافر وتضله ، وسهى من قال غير ذلك عنه فى هذه المسألة من ظاهر الآية يثبت ما نفاه الزمخشرى والتمثيل فى الآية مخترع أمر رسوله أن يخاطب المشركين به ، وقال مجاهد : إن رجلا ضل فى الأرض بالشياطين وله أصحاب لـه فى سفره يقولون له ائتنا ، فإن الطريق عندنا ، فلم يجبهم إلى أن ضل وهلك فيمثل الله به لرسوله صلى الله عليه وسلم ليخاطبهم به .

(قلْ إنَّ هُدى الله هُو الهدَى) هذا حصر للخبر فى المبتدأ ، أى الهدى محصور فى هدى الله الذى هو دين السلام الذى أنت عليه ، لا توجد هداية فى غيره ، فلا هداية ولا خير فى عبادة الأصـنام ، فـلا تعبدوها ، وكل ما سوى دين الله ضلال .

(وأمِرْنا لنُسْلم) اللام صلة للتأكيد ، وأن المصدرية مقدرة أى وأمرنا أن نسلم ، أى بأن نسلم فقدر حرف واعتبر سقوط حرف ، ويجوز أن يكون لام التعليل أى وأمرنا بترك الأصنام فنسلم أى لنخلص عبادتنا . (لربّ العَالمِينَ) وقيل اللام بمعنى الباء ، وهو مشكل ، لأن الباء لا تدخل على الفعل ولا يضمر حرف المصدر بعدها ، والجملة معطوفة على أن هدى الله هو الهدى .

(وأنْ أقيموا الصلاة واتّقوه) معطوف على نسلم ، أى أمرنا أن نسلم وبأن أقيموا الصلاة ، أو معطوف على محذوف أى أمرنا بترك الأصنام لنسلم ، وبأن أقيموا الصلاة ، وقيل بجواز أمرنا بتركها لنسلم ، ولأن أقيموا الصلاة ، وكان الأول ، خبراً والثانى أمراً ، لأن الإيمان مطلوب من الكفار ، وليسوا بأهل لساحة الخطاب فلم يؤمروا أمر خطاب ، بل قيل لهم : أمرنا فيعلمون أنهم مأمورون ، وكان الأمر بالصلاة والاتقاء بالخطاب تلويحاً بأن الذى تصح منه الصلاة والتقوى هو الأهل لأن يخاطب وهو الداخل فى الإيمان ، وهذا على أن الاتقاء اتقاء صغار المعاصى كما تتقى الكبار ، ويبالغ فى الحذر منها ، ومعلوم أنها داء من شأن من آمن لا من أشرك .

(وهُو الذى إليه) لا إلى غيره (تحْشَرون) تبعثون بالموت للجزاء .

(وهُو الذِى خَلَق السّموات والأرْض بالحقّ) أى قائما بالحق ، فقائما حال ، أو إقامة بالحق ، فإقامة مفعول لأجله ، أو الباء بمعنى اللام متعلق بمفعول لأجله ، أى إظهاراً للحق ، ولا واجب على الله ، وتصرفه فى الخلق حق على الإطلاق ، وقال المعتزلة : معنى كونه

حقاً أنه على وفق المصالح ، وزعموا أنه تجب مصلحة العبد على الله ويجوز أن يكون الحق بمعنى كمال القدرة وإحكام الصنعة ، فتعلق بخلق ، وتم مقول قل فى قوله بالحق .

(ويَوْمَ يقولُ كنْ فيكونُ قولُه الحقُّ) يوم متعلق بمحذوف وجوبا خبر مقدم ، وقوله مبتدأ مؤخر ، أى قوله الحق ثابت يوم يقول كن فيكون ، ويوم بمعنى مطلق الزمان لا مقابل الليل ولا مجموع الليل والنهار ، والنعت للمدح ، فإن قوله أبدا حق أو للكشف لذلك ، كقولك الجسم الآخذ حيزاً مركب ، فإن الجسم أبدا آخذ حيزا ، واسم الزمان يكون خبراً للمعانى ، والقول معنى ، وليس اليوم يوم القيامة ، بل كل زمان يوم القيامة وغيره ، وإن شئت قدرت الكون خاصاً ، أى قوله الحق نافذ يوم يقول بما يشاء كن فيكون ، وليس ذلك احترازاً عن يوم لا ينفذ فيه قوله ، لأنه لا يصح ذلك ، لأن قوله لا يكون إلا نافذاً قبل وجود الزمان وبعد وجوده ، وكأنه قال : قوله الحق نافذ كل وقت يقول كن فيكون ، وهذه الجملة الاسمية معطوفة على قوله : « هو الذى خلق السموات والأرض بالحق » وكن مجاز عن سرعة التكوين ، لا تكلم بالكاف والنون ، ولا خلق لفظ كن فى الهواء أو فى شىء ، وقد لا هواء ولا مخلوق ، ومتعلق قل محذوف أى يوم يقول لشىء كن ، فضمير يكون عائد إلى هذا الشىء المقدر .

والمعنى هو الخالق للسموات والأرض بالحق ، وقوله الحق نافذ بسرعة فى كل ما توجهت إليه إرادة كونه ، فإن قوله هو توجه إرادته إلى شىء حسبما قضى فى الأزل ، وقيل : يوم مفعول به معطوف على السموات لا ظرف ، أى خلق السموات والأرض ، ويوم يقول لما أراد كونه كن فيكون ، أى خلق ذلك اليوم ، أى خلق لوقوع الأشياء زماناً ،

ولعله أراد بيوم يقول يوم القيامة ، ويجوز عطفه عـلى هاء اتقـوه ، فيكون بمعنى القيامة وهو مفعول به ، أى اتقوا الله واتقوا يوم يقول كن فيكون ، أى اعملوا لذلك اليوم ، ويجوز أن يكون ظرفاً يتعلق ممـا يتعلق به بالحق ، أى خلق السموات والأرض قائما بالحق يوم يقول فيكون قائماً حالا مقدراً ، أو يقدر المفعول من أجله يتعلق به بالحق ، ويتعلق به يوم على ما مر فإذا عطفت يوم على السموات أو على الهاء ، أو علقته بما تعلق به بالحق فالمقول يقل تم فى قوله : فيكون وفاعل يكون عائد بمتعلق يقول ، أى يقول لما أراد كونه كن فيكون ، والذى أراد كونه هو حياة الموتى بالبعث ، فيكون قوله مبتـدأ والحق خبره ، والجملـة مستأنفة ، وقوله فاعل يكون ، أى ويوم يقول بقوله الحق كن فيكون قولهُ الحق .

ومعنى قوله الحق مقضية الحق أو معلومة ، وهو يوم القيامة أو كلما أراد ، أو قوله الحق تقديره الشىء وقضاؤه فى الخارج ، وإذا جعلنا قوله فـاعل يكون ، وعطفنا يوم عـلى السموات أو عـلى الهـاء ، أو علقناه بما تعلق به بالحق كان تمام ما نصب بقل هو قوله الحق ، ويجوز أن يكون تمامه هو قوله الخبير ، ويجوز أن يكون يوم مفعولا به لمحذوف ، أى واذكر يوم فيتم ما نصب بقل قبله ، فيعطف اذكر على قل .

(وله المُلْكُ يَومَ يُنفخُ فى الصُّور) قدم له للحصر ، أى له لا لغيره الملك يوم النفخ ، بخـلاف الدنيـا ، فإن الفراعنة والجبابرة يدعون الملك بالباطل ، وأيضا أعطى الله جل وعلا العوارى يوم يتعلق بما يتعلق به له ، أو بله لنيابته عنه ، وفى الصُّور نائب فاعل ينفخ ، والصور قرنه دارته كدارة السموات والأرض ، وضع فيه إسرائيل فاه من حين خلق ينتظر متى يؤذن له فى النفخ ، والمراد فى الآية نفخة البعث ، قال

تعالى : « ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام » ومن قبلها نفخة الموت ، ومن قبل هذه نفخة الفزع ، وهو كالبوق يجمع فيه الأرواح فينفخ فيه فتذهب الروح إلى جسدها فيحيا ، وذلك بين السماء ، ويوم بمعنى مطلق الزمان لا مقابل والأرض عند ابن مسعود ، وقيل على صخرة المقدس فتجيبه الأجساد إلى بيت أنفسها المبلغ لا مجموع الليل والنهار ، ويجمع هذا المراد في العموم على الصخر .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص : جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما الصور ؟ قال : « قرن ينفخ فيه » هذا قول الجمهور وبه قال الحسن ومقاتل .

(عالمُ الغيبِ والشَّهادة) أى هو عالم الغيب والشهادة ، فلا يفوت عمل عامل يوم الجزاء (وهُو الحكيمُ) فى كل ما يفعل (الخَبيرُ) العليم بدقائق الأمور ، وكل ما يفعلونه ، وهذه الجملة كالنتيجة لكمال قدرته حتى قدر البعث ، وكمال علمه حتى شمل الغيب .

(وإذْ قالَ إبراهِيم لأبيه آزَرَ) أى واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم لأبيه آزر ، اعلم أن آزر أبو إبراهيم لا عمه ، قال محمد ابن إسحاق والكلبى والضحاك : آزر اسم أبى إبراهيم ، وله اسم آخر وهو تارخ بالخاء المعجمة ، وقيل بالمهملة ، قال الزجاج : أجمع النسابون أن اسمه تارح بالمهملة ، فآزر اسمه ، وتارح لقبه وهو بالفارسية الشيخ الهرم ، وهذا أنسب بمن يقول إنه من كوتى سواد الكوفة ، لأن أصل الفارسية فى العراق ، وقيل : بلغة أهل خوارزم ، وليست من فارس ، وقيل : معناه المعوج ، وقيل : معناه المخطىء ، لقبه إبراهيم باسم المخطىء لكفره ، قد أباح الله له ذلك أو لم يعرف به أبوه أو لا يضيق به أبوه ، وقيل : فى غير هذه السورة نسب إبراهيم عليه السلام .

وأجاز بعض أن يكون آزر لقباً واسمه تارخ وهو خلاف الأصل ، لأن المذكور فى القرآن لفظ آزر ، وكذا فى الحديث ، ولا دليل على أنه لقب فليحمل على الأصل وهو أنه اسمه ، فإن الاسم أقدم من اللقب ، وأصل له غالباً قال صلى الله عليه وسلم : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة » بل لا ثقة لنا أن تارخ اسم له ولا لقب ، فإنه يتبادر أنه إنما أخــذه بعض العلماء والنســابين كمن ذكرناهم عن أهل الكتاب ، ولا وثوق بما يقول أهل الكتاب .

وقال سعيد بن المسيب ومجاهد : اسمه تارخ ، وآزر اسم صنم يسمى به بعد أن كان يعبده لحبه إياه ، وقيل : يقدر مضاف ، أى يا عبد آزر ، وعلى ذلك كله يكون آزر بدلا أو بياناً لأبيه ، وقيل : مفعــول لمحذوف أى أتعبد آزر ، أى أتعبد ذلك الصنم المسمى آزر ، ففى هذا الهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخى ، والألف بعدهــا أصــلها همزة مفتوحة أو مكسورة قلبت ألفا ، ولا وثوق بما يخالف القرآن بلا سنة عن ثقات يؤول القرآن بها ، ولا إجماع على أن اسمه تارخ ، ولو سلم فإن هذا الإجماع ينتهى إلى يهودى أو نصرانى ، أو إلى قول مسلم واحد ككعب ووهب ، فلا عبرة بادعاء هؤلاء النسابين الإجماع ، حتى طعن بعض المشركين فى القرآن بأنه تارخ لا آزر بإجماع النسابين ، فإن ذلك باطل بما ذكرت لك ، ولأنه لا مانع من كونه يسمى آزر ويلقب تارخ قبل أو بالعكس .

وزعمت الشيعة أن آزر عم إبراهيم وهو مشركٌ ، وأبوه مؤمن أعنى أبا إبراهيم ، والعرب تسمى العم أباً كقوله تعالى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيلَ » فيسموا الأبعد أبا ليعقوب وهو عمه ، وفى الحديث : « العم أحد الأبوين » وعنه صلى الله عليه وسلم

فى عمه العباس رضى الله عنه : « ردوا علىّ أبى » واحتجوا بقولــه تعالى : « وتقلبك فى الساجدين » أى تقلبك من صلب مؤمن ساجد لله إلى صلب مؤمن ساجد لله تعالى .

الجواب : أن معناه أنه يتقلب مع الصحابة الساجدين يصلى بهم جماعة ، والمؤمن يسمى ساجداً لأنه يسجد ويدين بالسجود لله تعالى ، أو تنقله ليلة نسخ وجوب الليل على غيره صلى الله عليه وسلم من دار صحابى إلى دار آخر ينظر كيف حرصهم على الطاعة فيجدهم فى بيوتهم كالزنانير فى بيوتها لكثرة ما يسمع أصوات قراءة القرآن وتســبيحهم وتهليلهم ، أو اشتغاله معهم بأمور الدين أو تقلب بصره فيمن يصلى خلفه إذا سلم ، أو فى صلاته على ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : « أتموا الركوع والسجود فإنى أراكم من وراء ظهرى » أو المراد بالتقلب ذلك كلــه .

والتقلب اسم جنس يصلح للكثير والقليل فليس وضعاً للمشترك فى معانيه ، ولا يدخل فى هذه الكلية ما زعمه الشيعة عن كون التقلب فى الساجدين التقلب فى أصلاب المؤمنين ، واحتجوا أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » فليس فى آبائه صلى الله عليه وسلم مشرك لقوله تعالى : « إنما المشركون نجس » .

والجواب : أن المراد الطهر عن الزنى كقولهم : طاهر الإزار ، ونجس المشرك ذنوبه ، أو عدم تحرزه عن النجس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما أصاب نسبى سفاح الجاهلية » فهذا معنى قوله : « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين » إلخ ، وفى الحديث : « يتشبث إبراهيم بأبيه آزر

يوم القيامة ويقول : يا رب دعوتك أن لا تخزينى يوم تبعث الناس ، فيقول الله له : يا إبراهيم انظر إلى قدمك فينظر فيخسف بأبيه فى النار » •

وروى أنه بينما هو يتشبث به ، إذا مسخ ضبعاً فيقال له : أهذا أبوك ؟ فيقول : لا ، فيجر بمنخره إلى النار ، وإنما يحتاج لتكلف المتكلفين لو ثبت أن أباه ليس اسمه آزر ، ولا دليل على ذلك ، ولو كان ذلك لاستظهر به أهل الكتاب لحبهم تكذيب القرآن ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، قرأ يعقوب آزر بضم الراء على النداء بمحذوف ، وهو يدل أن آزر علم ، لكن قيل أيضاً بجوار حذف حرف النداء ومنع آزر من الصرف للعلمية والعجمة ، سواء قلنا إنه علم أو لقب ، لأن اللقب علم ، ولا يلزم من كونه بمعنى الضال أو المخطىء أو المعوج أو الشيخ الهرم أن يكون وصفاً ، لأن اللقب أيضا مع كونه غير وصف يدل على مدح أو ذم ، ولا مانع من الذم طبعاً بالهرم •

ولما اعتبر بعضهم هذه المعانى قال : إن تارخ علم ، وآزر وصف فى لغة العجم بتلك المعانى ، فيكون اسم جنس عجمى كلجام لكنه وصف ، والعجمة وحدها لا تمنع الصرف ، ولا مع الوصف فلعله منع الصرف لوزن الفعل ، والحمل على وزن أفعل فى العربيسة ، لأن آزر كأعور وأقبح ، وقيل : هو لفظ عربى ، فوزن أفعل وصف ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل مشتق من الوزر ، أو من الأزر ، والصحيح أنه علم أعجمى ، ويناسب القول بأنه وصف عجمى قراءة بعضهم أإزر بهمزة الاستفهام ، فهمزة مكسورة أو مفتوحة بزاى ساكنة وراء منونة بعدها ألف هو الألف الذى يكتب المنصوب المنون ، وهذا القارىء يقرأ بعده تتخذ بلا همزة ، بل يجعل ألف المصحف هو ألف التنوين ، فلو كان علما للصنم أو لأبى إبراهيم لم ينون للعلمية والعجمة ، والحق منع الصرف ،

وأنه علم لأبى إبراهيم ، وكان أبوه آزر نجاراً محسناً مهندساً ، وكان نمرود يتعلق بالهندسة والنجوم ، فحضر عنده آزر فى ذلك ، وكان أميراً على عمل الأصنام يعمل بأمره وتدبيره ، ويطبع هو فى الصنم بخاتم معلوم عنده ، وحينئذ يعبد ذلك الصنم •

زعم قومنا أنه كان يعطى إبراهيم الأصنام يبيعها وهو طفل ، ويقول : من يشترى ما يضره ولا ينفعه ، ويستخف بها ويجعلها فى الماء منكوسة إذا بارت عليه ، ويقول لها اشربى وحاشاه أن يبيعها ، وهذا خطأ فاحش من قومنا ، كيف يبيع نبى الله الأصنام ويبيعها دعاء إلى عبادتها ، وهذا لا يجوز على الأنبياء ولو فى الطفولية لا يجوز هذا ، ولو كان يقصد أن ينبه عليها بالبطلان إذ كانت لا تضر ولا تنفع ، لأن ذلك صيغة دعاء للأصنام فيكف وقد زعموا أنها تباع تارة وتبور أخرى •

(أتتخذُ أصناماً آلهةً) استفهام توبيخ كيف تتخذها آلهة وهى لا تضر ولا تنفع ، الصنم والوثن ما يؤخذ من ذهب أو فضة أو حديد أو حجارة أو خشب أو غير ذلك على صورة الإنسان ، قال بعضهم أو غيره ، فالصنم والوثن مترادفان ، وقيل الوثن ما كان صورة له جثة منحوتة معمولة من حجارة أو جص أو خشب أو غيرها ، من جواهر الأرض ، والصنم الصورة من غير جثة ، وقيل : الصنم هو المنحوت على خلقة البشر ، والوثن ما كان منحوتاً على غير خلقة البشر ، وقيل الصنم ما كان من حجر أو نحوه ، ولا يقال وثن إلا لما كان من ذهب أو فضة أو نحاس وقيل عكسه •

(إنّى أراك وقَوْمك) أعلمك وقومك بما تراه عيناى (فى ضَلالٍ مُبينٍ) عن الحق لعبادتكم الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق

شيئا ولا ترزقه ، والخالق الرازق النافع الضار هو الله تعالى ، اعلم أنه ينبغى أن لا يجادل المقر من أهل البدع إلا بالقرآن والسنة ، فيكون كمن يدعو إلى الهدى بقوله : « ائتنا » ومن ينازل بالجدل ، ويلحق عليهم كان كمن بعد عن الطريق الواضح أكثر ليرد ذلك الزاد ، فهو يخاف عليه أن يضل ، ومن يجادل المنكر فليجادله بالمعجزات والدلائل العقلية •

﴿ وكَذَلكَ نُرِى إبراهيم مَلَكوت السَّموات والأرض ﴾ مثل هذا التبصير لبصر إبراهيم ، والإشارة إلى ما ذكر من رؤية إبراهيم آزر وقومه فى ضلال مبين ، وتعلق الكاف بها بعدها أو بمحذوف نعت مصدر محذوف ، أو تجعل اسما مفعولا مطلقاً إذ كانت نعتاً لمصدر محذوف كما رأيت ، وصحت الإشارة بذلك للمؤنث وهو الرؤية لتأويل المذكور ، وصح تشبيه الإراءة بالرؤية باعتبار ما يحصل من الإراءة وهو الرؤية ، أو باعتبار أن رؤية إبراهيم أباه وقومه فى ضلال مبين إنما هى بإراءة الله جل وعلا إياه ، أن أباه وقومه فى ضلال مبين •

وقيل : الإشارة إلى الإراءة فى قوله : « نرى إبراهيم » وفيه ضعف ، لأن مثل هذا مما فيه الإشارة والتشبيه للشىء بحيث يكون على صورة تشبيه الشىء بنفسه ، يتقدم فيه المشار إليه نحو صحح الله جسمى ، وعلمنى ورزقنى ، وهدانى للإسلام ، كذلك أكرمنى الله إذ أشرت إلى التصحيح والتعليم والرزق والهدى ، ووجه ذلك أن وصف الشىء قد يخالف حقيقته بقصد من المتكلم ، لأن المخاطب لا يحقق ما خوطب به ، أو لأن المتكلم لا يقدر على الوصف الحقيقى لعظمة الموصوف أو لقصوره أو تقصيره ، فكأنه قيل ذلك على نحو ما وصفته ، وترى بلفظ مضارع الحال مع أن الإراءة قد مضت تصويراً للماضى منزلة ما حضر لمزيد تحقيقه ، كما يحقق الشىء الشاهد ، وملكوت مفعول ثان ، وقرىء

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » بمثناة فوقية ، وفتح الراء ونصب إبراهيم ورفع ملكوت على أنه نائب الفاعل ، لكن من نيابة المفعول الثانى ، وهذه الإراءة بصرية تعدت لاثنين : الأول بالهمزة من قولك أراءة ، والثانى بنفسه قبل الهمزة ، ولكونها بصرية تعدت لاثنين فقط ، مع وجود همزة التعدية ، فإنه رأى الملكوت ببصره ، وقد يقال إنها من علم العرفان المتعدى لواحد ، فتعدى الآخر بنفسه .

هذا ما ظهر لى فى تحرير المقام ، قال سلمان الفارسى ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد : هذه الرؤية التى أراه الله إياها ، ملكوت السموات والأرض رؤية عين ، انفرجت له السموات والأرضون ، ورأى مكانه فى الجنة ورأى العرش والكرسى ، وما فى السموات من العجائب ، ونظر إلى أسفل الأرضين وما فيهن من العجائب ، فذلك ملكوت السموات والأرض ، أقامه الله على صخرة فكشف له عن ذلك ، وبذلك قال على بن أبى طالب ، وعنه وعن سلمان : أنه لما رفع إبراهيم ليرى ملكوت السموات والأرض رأى رجلا يزنى ، فدعا عليه فهلك ، ورأى آخر يسرق ، فدعا عليه فهلك ، فرأى آخر يعصى ، فدعا عليه فهلك ، فرأى رابعاً فأراد الدعاء عليه فأوحى الله إليه دع عنك عبادى ، فإنك لم تخلقهم ، وإنك مجاب الدعاء فلم يهلك الرابع ، وقيل هذا فى الثالث فلم يهلك الثالث إما أن يتوب عبدى فأغفر له ، وإما أن أخرج من صلبه ذرية تعبدنى ، وإما أن يبعث إلىّ فلا يفوتنى عذابه ، وفى رواية وإما أن يتولى فإن جهنم من ورائه .

والحديث أنه رفع إلى جهة السماء ، وقيل رفع إلى السموات ولم يجاوز السدرة ، وقيل لم يرفع بل نظر من الأرض وقوى الله بصره على كل قول ، وكشف له ، وقال قتادة : ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار ، كشف الله عنهن

وقوى نظره ونظر مالم يقو على نظره غيره ، وقيل : رؤية بصر فى ظاهر الملكوت وقع له معها فى الاعتبار ، ورؤية القلب مالم يقع لأحد من أهل زمانه ، ونسب هذا لابن عباس رضى الله عنهما وغيره ، وقيل رؤية قلب رأى ملكوت السموات والأرض بفكره ، وهو الأنسب بلفظ ملكوت ، لأنه يقال : ملكوت فى الملك الباطن ، وقال من قال : رؤية بصر أنه يقال أيضا فى ملك الحس ملكوت إذا عظم ، يقال لفلان ملكوت اليمن ، وملكوت العراق ، ولعله إنما يقال ذلك إذا أريد ما بطن من نفس التصرفات ، ثم إذا أريد بملكوت السموات ما بطن من ملكهما فالإضافة للتبعيض أو بشبهه ، أو الظرفية ، وإن أريد نفسهما فالإضافة للبيان ، أى ملكوت هى السموات والأرض ، والواو والتاء على كل حال للمبالغة ، ومثله الرغبوت والرهبوت والرحموت والجبروت ، وهو بمعنى نفس المملوكات ، وقيل بمعنى القدرة والسلطنة ، ثم رأيت عن الراغب أن الملكوت مختص لملك الله تعالى ، فقولهم : فلان له ملكوت اليمن وملكوت العراق مجاز لاستدلال على استقلاله فى السلطنة الظاهرة .

(وليكونَ من الموقنينَ) عطف على محذوف ، والمحذوف متعلق بنرى ، فكلاهما متعلق به أى وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليستدل بها على وجودنا ووحدانيتنا ، وليكون من الموقنين ، إذ متعلق بمحذوف ، والمحذوف معطوف على نرى أى وفعلنا ذلك له ليكون من الموقنين ، أو وأريناه ذلك ليكون من الموقنين ، والموقن من لم يكن فى علمه شبهة ، سواء كانت وزالت أم لم تكن ، وقيل : إن كانت وزالت بنظر تأمل ومشاهدة بتحقيق قلب ، وليس كل من رأى السموات والأرض قد تحقق ، فإن أكثر الناس يشاهدونهن ولا يتحققون ، ولذلك لا يتعظون ، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم أرنا الأشياء كما هى » ولما رجع من الإسراء رأى هولا وأصواتا

ودخاناً تحت السماء الدنيا ، فقال : « يا جبريل ما هذا ؟ » فقال : « الجن تحوم لئلا ترى أمتك ملكوت السموات » وعن ابن عباس رضى الله عنهما : وليكون من الموقنين للأمر سره وعلانيته ، خبره وحسه ، فلم يخف عنه أمر الخلائق ، ولذلك ظهر له معصية العاصين ، فجعل يلعنهم فقال الله تعالى : إنك لا تستطيع هذا فرده لا يرى أعمالهم .

(فلما جنَّ عليْه) ستره بظلامه واستعلى عليه ، وطاف عليه من جهلته (الليلُ رأى كوكباً قالَ هذا ربِّى) عطف على نرى عطف تفصيل وتبيين للإراءة ، وقوله : « كذلك نرى » معطوف على قال إبراهيم ، ويجوز عطف فلما جنّ إلخ على قال إبراهيم ، فتكون جملة كذلك نرى معترضة ، ورأى كوكباً جواب لما قال هذا ربى جواب سؤال كأنه قيل : ماذا كان أو ماذا قال حين رآه ؟ فأجابه بقوله : « قال هذا ربى » ويجوز أن يكون رأى كوكباً بدل اشتمال من جن عليه الليل ، لأن رؤية الكوكب من سببيات إظلام الليل ، والكوب قيل هو الزهرة ، وقيل المشترى ، وكان قوم آزر يعبدون الكواكب والأصنام ، وجمهور المشركين لا يعبدون الأصنام فى ذلك الزمان ، وبديهة العقل تبع عبادتها ، وأما الكواكب فعبدوها لأنهم رأوا تجدد الفصول الأربعة ، وحدوث الأحوال المختلفة بسببها ، والفصول تحصل بتنقل الشمس ، فزعم كفار الرصد أن السعادات والنحوسات إنما هى بالاتصالات الفلكية ، والمناسبات الكوكبية ، فعظموا الكواكب فبعض عبدوها واسطة إلى الله ، وقالوا : إن الله تعالى فوض تدبير الخلق إليها فى العالم السفلى ، فهى تدبره وتعبد الله ، وبعض عبدوها وجحدوا الله وقالوا إنها واجبة الوجود ، قديمه لا تفنى ، وتدبر أمر العالم السفلى هم الدهرية .

ولما رأى الفريقان أن الكواكب تغيب ومنها الشمس والقمر ،

اتخذوا أصناماً يعبدونها لا تغيب ، ويقصدون بعبادتها عبادة الكواكب ، فاتخذوا صنما للشمس من الذهب وزينوه بالأحجار المنسوبة للشمس وهى : الياقوت والماس ، وصنما للقمر من الفضة وهكذا ، وعباد الأصنام قليل من أهل ذلك الزمان ، وكثروا بعد لعنة الله عليهم ، وكان أهل الهند والصين يعتقدون أن الله سبحانه جسم أبهى ما يكون فيصورونه فى أبهى صورة ، ويصورون أيضا الملائكة فى هيئة بهية دون ذلك ، ويعبدون تلك الصور تقرباً إلى الله وإلى الملائكة ، واعتقدوا أيضا أن الله فوض تدبير البحار إلى ملك ، وتدبير الجبال إلى ملك ، والغيوم والأمطار إلى ملك ، والأرزاق إلى ملك ، والقتال إلى ملك ، فاتخذوا لكل منهما صنما يطلبون ما يناسبه منه .

فلما كان قوم آزر يعبدون الأصنام والكواكب نبههم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بطريق النظر والاستدلال على ضلالتهم تنبيهاً تنزل فيه معهم على سبيل الفرض والتقدير إذ قال : الكوكب ربى ، وقال : القمر ربى ، وقال : الشمس ربى ، وهو فى ذلك كله موقن أن إلهه هو الله الواحد القهار ، أيقن من صغره وولادته ومن بطن أمه لأن أثبت ما ترسخ عليه الخصم إذا جريت معه فى مدعاه ، وسلمت بعض تسليم حتى يغتر ، وزعم بعض أن إبراهيم لم يشرك ، لكن عرف أنه لا بد له من إله ونفى أن يكون النجم أو الشمس أو القمر حتى تحقق أنه الله ، وذلك حين خرج من السرب .

وزعم بعض أن ذلك قاله إبراهيم على الاستدلال لنفسه ، كالقول الثانى ، لكن عند مراهقته أو أول بلوغه ، وهذان القائلان هربا من نسبة الشرك لإبراهيم صراحاً ، ولقد أوقعاه فيه ، إذ جوزا أن يكون مضت عليه مدة لا يعرف أن الله إلهه ، ولا أن إلهه غيره ، والحق ما ذكرته

أولا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » ودل على اعتقاد أن له ربا يعرفه قوله : « لم يهدنى ربى لأكون من القوم الضالين » وقوله : « أتتخذ أصناماً آلهة » إلخ وقوله : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات » الخ وتعقيب ذلك بالفاء فى قوله : « فلما جن عليه » إلخ وهى دالة على أن قوله هذا بعد كونه من الموقنين ، وقوله تعالى : « وتلك حجتنا » إلخ ، وهذه الأدلة أيضا تدل أنه يقول ذلك احتجاجاً على قومه لا استدلالا لنفسه ، ومن أجاز على نبى الشرك قبل البلوغ فقد كفر ، فقد ظهر لك بطلان قول من زعم أن إبراهيم قال هذا ربى قبل أن يعرف الله ، وأنه قاله قبل البلوغ وهو غير مكلف ، وهذا خطأ عظيم من قائله ، وأخطأ منه من زعم أنه بلغ ولم يعرف ، وقد عذر أول بلوغه مقدار النظر والتفكر ، وهذا خطأ فاحش ، والحق أنه قال ذلك احتجاجاً على قومه قبل البلوغ وقيل بعد الرسالة ونسب للجمهور .

وأما قوله : « لئن لم يهدنى ربى » فإما أن يريد أن الله هو الذى يعلمه الشرائع ، ولو لم يعلمه الشرائع لكان خالياً منها ، تائها فى غيرها ، وقيل ذلك من كلامهم على حذف القول ، أى يقولون هذا ربى ، وأما قوله : « لا أحب الآفلين » وقوله : وقوله « لئن لم يهدنى » إلخ وقوله : « إنى برىء مما تشركون » فمنه يريهم الحق ، ويشير عليهم أن الرصد قد أثمر لكم ذلك ، فما بقى إلا أن تقولوه ، أو يقدر هذا ربى بزعمكم ، وقال : لو كان إلهاً كما قلتم لم يزل كقوله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » أى عند نفسك فى الدنيا ، وقوله تعالى : « أين شركائى قالوا آذناك » أى بمن زعمتم أنهم شركائى ، ويجوز تقدير الاستفهام أى أهذا ربى فى المواقع الثلاثة .

قال فى عرائس القرآن وغيره : ولد إبراهيم عليه السلام فى زمان

نمرود بن كنعان ، وقال : نمرود أول من وضع التاج على رأسه ، ودعا الناس إلى عبادته ، وكان له كهان ومنجمون وقالوا : إنه يولد فى بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ، ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ، وقد قالوا له قيل ذلك : إنه يولد فى سنة كذا لهذه السنة ، ويقال : إنهم وجدوا ذلك فى كتب الأنبياء ، ويقال رأى نمرود فى منامه : كأن كوكبا قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع فزعاً شديداً ، فدعا السحرة والكهان والمنجمين والقافة ، وأهل مساحة الأرض ، وسألهم عن ذلك وقالوا : هو مولود يولد فى ناحيتك فى هـذه السنة ، يكون هلاكك وزوال ملكك ، وهلاك أهل دينك على يديه ، فأمر بذبح كل غلام يولد فى تلك السنة فى ناحيته ، وإن ولدت أنثى تركها ، وأمر بعزل النساء عن الرجال ، وجعل على كل عشرة رجلا يحفظهم ، فإذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها ، لأنهم كانوا لا يجامعون فى الحيض ، فإذا طهرت حالوا بينهما فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بإبراهيم .

قال محمد بن إسحاق : بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى فى قريته قرب ولادتها فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها ، لأنها كانت جارية صغيرة لا يعرف الحبل فى بطنها ، وقال السدى : خرج نمرود بالرجال إلى العسكر وعزلهم عن النساء تخوفاً من ذلك المولود ، فمكث بذلك ما شاء الله ، ثم بدت له حاجة إلى المدينة ، فلم يأمن عليها أحداً من قومه إلا آزر ، فبعث إليه فأحضره عنده وقال له : إن لى إليك حاجة أحب أن أوصيك بها ، ولم أبعثك فيها إلا لثقتى بك ، فأقسمت عليك ألا تدنو من أهلك ، فقال آزر : أنا أشح على دينى مـن ذلك ، فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة نمرود ، ثم قال لو دخلت على

أهلى فنظرت إليهم ، فلما دخل على أم إبراهيم ونظر إليها لم يتمالك حتى واقعها ، فحملت من ساعتها بإبراهيم ٠

قال ابن عباس : فقالت الكهان لنمرود : إن الغلام الذى أخبرنا به قد حملت أمه به الليلة ، فأمر نمرود بذبح الغلمان التى يمكن حملها من تلك الليلة ، وأمر بأن تعزل النساء إلا اللاتى استبان فيهن الحمل ، وظهر تقدمه على الليلة ، فلا يذبح أولادهن ، ولما دنت ولادة أم إبراهيم ، وأخذها المخاض ، هربت مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها ، فوضعته من بطنها فى نهر يابس ولفته فى خرقة ، فرجعت فأخبرت زوجها أنها ولدت ، وأن الولد فى موضع كذا ، فانطلق أبوه فأخذه وحفر له سرباً فى النهر وسد بابه مخافة السباع ، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه ٠

وعن ابن إسحاق : لما وجدت الطلق خرجت ليلا إلى مغارة كانت قرباً منها ، فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود ، ثم سدت عليه باب المغارة ، ثم رجعت إلى بيتها ، وكانت تختلف إليه تنظر ما فعل فتجده حياً يمص إبهامه ، قالت أم إبراهيم : لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ، ومن أصبع لبناً ، ومن أصبع سمناً ، ومن أصبع عسلا ، ومن أصبع تمراً ٠

وقيل : كان يغذوه ملك ، وقيل تأتيه أمه بألبان النساء التى ذبح أبناؤهن ، وقال السدى : لما عظم بطن أم إبراهيم خشى آزر أن تذبح هى وما فى بطنها ، فانطلق بها إلى أرض بين الكوفة والبصرة يقال لها أورقا ، فأنزلها هناك فى سرب من الأرض ، وجعل عندها ما يصلحها ، وجعل يتعهدها حتى ولدت ، وذلك مخافة أن تقتل هى وأن يقتل ولدها ، إذ سترت نفسها ٠

وقال محمد بن إسحاق : سأل آزر أم إبراهيم عن حملها ما فعل ؟ فقالت : ولدت غلاماً فمات فصدقها وسكت عنها ، وكان يشب فى اليوم كالشهر ، وفى الشهر كالسنة ، فلم يمكث فى المغارة إلا خمسة عشر ، وقيل سبع سنين ، وقيل ثلاث عشرة سنة ، قلت : وقيل عشر سنين ، وقيل خمس عشر ، قال : وقيل سبع عشرة سنة قيل قال لها : أخرجينى فأخرجته عشاء ، وتفكر فى خلق السموات والأرض وقال : إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى الذى مالى إله غيره ، ونظر فى السماء فرأى كوكباً قال : هذا ربى ، وأتبعه بصره إليه حتى غاب ، وكذا القمر والشمس كما ذكر الله جل وعلا .

وعلى قول ابن إسحاق المتقدم : لما رجعت به أخبرت أباه أنه ابنه وأخبرته بما صنع فسر بذلك ، وفرح فرحاً شديداً ، وعلى القول بأن أباه علم به أنه فى الغار قيل : إنه لما شب فى السرب قال لأمه : من ربى ؟ قالت : أنا ، قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك ، قال : فمن رب أبى ؟ قالت : اسكت ، وقيل قالت : نمرود ، وقال : من رب نمرود ؟ قالت : اسكت ، وذلك قوله تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده » ويروى قالت : اسكت وضربته ، ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذى كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك ، ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه آزر فقال إبراهيم : يا أبتاه من ربى ؟ قال : أمك ، قال : فمن رب أمى ؟ قال : أنا ، قال : فمن ربك ؟ قال نمرود ، قال : فمن رب نمرود ؟ فلطمه لطمة وقال : اسكت ، ولما جن عليه الليل دنا من باب السرب ، فنظر فى خلال الصخرة فأبصر كوكباً ثم قال : هذا ربى ، ويقال : إنه قال لأبويه أخرجانى فأخرجاه من السرب حين غابت الشمس ، فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم ، فسأل عنها أباه قال : إبل وخيل وغنم ، فقال : لابد أن يكون لها إله وهو ربها وخالقها ، ثم نظر فإذا المشترى قد طلع

وقيل : الزهرة والليلة من آخر الشهر، فتأخر طلوع القمر فأفوله غيبوبته بضوء الشمس فى هذا .

ونمرود مر حين قيل له : إنه قد ولد كان يشدد فى طلبه مدة قعوده فى الغار ، وما بعد ذلك حتى جاء يخاطبه الناس بالحق ، وكان لكبره كما مر أنه يكبر فى اليوم كالشهر ، وفى الشهر كالسنة ، سقط طمع الذباحين الذين أمرهم نمرود بالذبح ، وأظهر آزر لأصحابه أن لـــه ابنا كبيراً وأراهم إياه .

(فلمّا أفلَ) غاب قيل : يختص لفظ الأفول بالنيرات ، وقيل عام (قالَ لا أُحبُّ الآفلينَ) أن أتخذهم آلهة ، فحذف بدل الاشـــتمال لجواز حذفه أو لا أحب ربوبية الآفلين لعدم صحتها ، فحذف المضاف ، أو يقدر مضاف ناصب لمفعولين ، أى لا أحب اتخاذ الآفلين آلهة كمـــا قال : « أتتخذ أصناماً آلهة » ويجوز أن لا يقدر شىء فيكون المعنى لا أرغب فى الآفلين ، فضلا عن أن أعبدهم ، ولا يلزم من عدم حب الشىء بغضه ، فلا يلزم أن يبغض النجم .

وإنما جمع الله لفظ آفل جمع مذكر سالماً مع أن جنس هذا الكوكب غير عاقل ، لأنه لم يرد هذا الكوكب وجنسه ، بل أراده وأباه وأمه ونمرود وهم عقلاء ، فغلب العقلاء ، ويحتمل أن يكون جمع جنس النجم وأريد النجوم وحدها تنزيلا لهـــا منزلة العقلاء ، لأنهم يعبدونها ويعظمونها ، وكانوا أصحاب علم النجم ، ونظر فى الأفلاك ، ولذلك مثل لهم بالنجم والقمر والشمس ، فيظهر لهم بطلان ربوبيتها ، وعلل بطلان ربوبيتها بالأفول من حيث إن التطبيق بالمشتق يؤذن بالعلية ، لأن الآفل يزول أثره وسلطانه عما غاب عنه ، فلا يصلح إلهاً ، ولأن الأفول انتقـــال ،

والمنتقل يكـون محلا للحوادث ، فلا يكون لها ، ومحل الحوادث حادث ، والحادث يحتاج لمحدث ، والتسلسل يستحيل عقلا وأيضا المتحـرك جسم ، والجسم مركب محتاج إلى حيز والمركب مصنوع محدث ، والمحدث لا يكون ربا ، والجسم محتاج إلى حيز ، والمحتاج لا يكون ربا ، وقد احتاج أيضا فى ظهور نوره وسلطانه الذى يدعونه له إلى زوال ما ستره حين غاب من جبل أو بحر أو أرض •

(ولما رَأى القَمر بَازغاً) طالعاً طرفه أو طالعا كله ، كمـا انفصل عن جسم طلع من جهته مبتدئاً فى الطلوع (قالَ هـذا ربِّى فلمَّا أفل قالَ لئن لم يهْدِنى ربِّى لأكونن من القَوم الضَّالين) عن الحق فاتخذوا القمر رباً ، مع أنه أفل فالعلة فى انتفائه عليه السلام من ربوبية القمر هى أفوله على حد ما مر فى الكوكب كله ، وتعرض بهم أنهم مخذولون إذ اتخذوه ربا ، وأنه إن لم يهده الله كان مثلهم فى الضلال ، وأنه عاجز عن الهدى إلا بتوفيق الله ، وأيضا تعدد الآلهة مستحيل عقلا كما استحال شرعاً ، وكذا الكلام فى الشمس ، والقوم الضالون قوم أبيه ، وضع الظاهر موضع المضمر يسميهم باسم الضلال أو كل من ضل •

(فلمَّا رأى الشَّمس بازغةً قالَ هَذا ربِّى) ذكر بلغته عليـه السلام أن هذا الشىء المنير الطالع ربى ، وإذا ذكره عنه الله تعالى مذكراً مع أن الشمس مؤنث ، لأن المؤنث المجازى يؤنث فى الإشارة ، أو ذكره الله تعالى لتذكير الخبر ، والمراد أن هذا الطالع ربِّى ، وأن هذا الكوكب ربِّى ، فإن الشمس كوكب يزول به الليل ، واختير أن يقال ذلك صيانة عن التأنيث فى حق الله ، كما يقال : الله علام الغيوب ، ولا يقال علامة مع أن علامة أبلغ لصورة تاء التأنيث ، ولو كان يستعمل فيما ذكره •

(هذا أكبر) من الكوكب والقمر ، فإن كان فى الكواكب شىء من الآلهة فهو الشمس ، وذلك منه مجاراة للخصم حتى يعثر وقد عثروا ، وافتضحوا بقوله الذى ذكره الله عنه جل وعلا وهو قوله :

(ولما أفلَتْ قَالَ يا قَوْمِ إنِّى برىءٌ مما تُشْركونَ) مما تشركونه بالله تعالى من مخلوقاته ، أو برىء من إشراككم ، وإنما احتج فى الشمس بالأفول على أنها ليست رباً لا بالبزوغ ، مع أن البزوغ أيضا انتقال وتحرك لزيادة دلالة الأفول على دلالة البزوغ ، بأن الأفول احتجاب ، والمحتجب لا يكون رباً لزوال حكمه عن مربوبه إذا احتجب ، والبزوغ ولو دل على الاحتجاب لكن مشاهدة الاحتجاب بعد الظهور وهو الأفول أعظم دلالة من احتجاب المنزه عن البزوغ ، ولأن فى الأفول انتقالا من القوة إلى الضعف ، بخلاف البزوغ ، وأيضا بينما هو فى النظر والتفكر وقع بصره على كوكب مضىء بعيد ، ولما رآه انتقل إلى الأفول من الحضور علم أنهُ غير إله لانتقاله من القوة إلى الضعف .

ثم طلع القمر فى أثناء تقرير هذا الدليل ، فأعاد ذلك الكلام ، وكذا الشمس وأفول النجم والقمر حقيق كأفول الشمس ، والمتحقق فى مجلس المناظرة هو الأفول دون البزوغ فاحتج به ، ولو صلح البزوغ للاستدلال ، وقيل : سهر الليل كله ، فلما بزغت الشمس زال ضوء القمر قبلها لانتشار ضوئها ، أو دنا من مغربه فسمى ذلك أفولا لقربه من الأفول التام على تجوز فى التسمية ، وهذا الترتيب يستقيم فى الليلة الخامسة عشر من الشهر إلى ليلة عشرين ، ولو قدرنا هذا الترتيب بغيوب القمر فى مغربه لم يغب إلا بعد طلوع الشمس ، ولما بطل أن تكون الأشياء المذكورة آلهة لم يبق أن يكون إلها إلا الله فقال :

(إنِّى وجَّهْتُ وجْهِىَ) الذى فى رأسى هذا لفظه ، ومراده

أخلصت عبادتى ، أو وجهت قصدى (للَّذى فَطَرَ السمٰوات والأرْض) بدعهما (حَنيفاً) حالا من تاء وجهت ، أى مائلا عن عبادة غيره إليه سبحانه وتعالى أميل مائلا عن استقبال غير الكعبة فى الصلاة إلى استقبالها (وما أنا مِنَ المشْرِكين) به شيئاً .

(وحاجّه قَومُه) خاصموه فى الله إذا أظهر توحيده تعالى وأبوا ، ودل على أنهم حاجوه فى الله قوله تعالى : (قال) إبراهيم وكلما قدرت المستتر ظاهراً فذلك تقدير معنوى لا إعرابى (أتحاجُّونِّى فى الله) فى توحيده (وقَدْ هدانِ) إلى معرفته وتوحيده ، وهذه الجملة حال لفظ الجلالة أو من الياء فى أتحاجونى ، فالربط بالواو والضمير ، أو من واو أتحاجونى فالرابط بالواو والنون فى أتحاجونى نون الوقاية ، ونون الرفع محذوفة لأنها مفتوحة ، وهذه مكسورة ، أو هذه نون الرفع كسرت للياء وحذفت نون الوقاية لأنها آخر ، والحذف بالأخير أولى ، ولأن التكرير يحصل بها وبسطت فى ذلك كلاماً فى غير هذا ، وذلك قراءة نافع وابن عامر ، وقرأ الباقون بتشديد النون إثباتا للنونين ، وإدغاماً لنون الرفع فى نون الوقاية .

(ولا أخافُ ما تُشْركونَ بهِ) أى لا أخاف ما تعبدونه الأصنام والكواكب من دون الله أن يضرنى على عيبى إياها ، وإنكارى لألوهيتها ، والزجر عن عبادتها ، أو لا أخاف مضرة ما تشركون به ، لأنها لا تدفع عن نفسها ، ولا تجلب فكيف تضر غيرها أو تنفعه ، وكانوا يقولون : يمسك بها جنون لأنك تعيبها ، والهاء عائدة إلى الله ، والرابط محذوف ، أى ما تشركونه ، وقيل : عائدة إلى ما ، وهى الرابط أى ما تقع به فى الإشراك ، ويجوز كون ما مصدرية والهاء لله .

(إلا أنْ يَشاءَ ربِّى شَيْئاً) الاستثناء منقطع ، أى إلا مشيئة ربى لشىء من الضر فإنه يصيبنى بإذنه تعالى بلا مدخل لها فيه ، أو إلا أن يشاء ربى أن يرحمنى بقطعة من الكوكب أو من القمر أو من الشمس أو بقدرها على مضرتى لذنبى ، وكل ذلك ليس لترك عبادتها ، وفى نفى الخوف عن نفسه على مـا أشركوا تهديد لهم بتلويح أن الواجب عليهم الخوف مما يشرك به ، لأن لهم عذاباً عظيماً ولا يجوز عليه السلام وقت يخاف فيه ما يشركون به ، ولا وقت يشاء الله أن يخاف ذلك ، وجملة لا أخاف ما تشركون به شيئا حال من هاء هدانى أو من المستتر فيه .

(وَسع ربِّى كلَّ شىءٍ علْماً) تمييز محول عن الفاعل ، أى كفى علم ربى كل شىء وأحاط بكل شىء ، فلا يشذ عنه شىء ، فلعل فى عبادة ما تعبدون مضرة لى يعلمها الله لو عبدتها (أفلاَ تَتَذكَّرونَ) تعتذرون أن الصنم والكوكب جماد لا يضر ولا ينفع ، والضار والنافع هو الله .

(وكَيفَ أخافُ ما أشْركْتُم) ما أشركتموه من الكواكب والأصنام بالله ، مع أنها لا قدرة لها على مضرة أو إمساك خـير عنى حتى إنى أعبدها لخوفى منها ، هذا ما لا يكون من عاقل ، ومن وقع منه هذا فهـو أهل لأن يتعجب منه .

(ولا تَخافُونَ أنكم أشْركْتُم باللهِ ما لم ينَزلْ بهِ) أى ما لم ينزل الله به أى بعبادته أو بإشراكه (علَيكم سلْطاناً) حجة من السماء ككتاب أو ملك ، أو ما لم ينصب عليه دليلا ولا شىء مما يعبد من دون الله ، نزلت به حجة ، فليس قوله : « ما لم ينزل به عليكم سلطاناً » قيداً واحترازاً ، بل بيان لحقيقة الأمر ، وهى أنه لا شىء مما يعبد من دون الله تعالى نزلت به حجة ، والجملة داخلية فى التعجب ، والإنكـا

بكيف ، أى كيف أخاف ما لا تلحقنى منه مضرة وهو معبوداتكم ، ولا تخافون أنتم ما يلحقكم به ما لا يوصف من العذاب ، وهو إشراككم بالله تعالى ، وذلك أنهم أخافوه عليه السلام فى موضع الأمن وهو التوحيد ، فإنه لا مضر تلحق بالتوحيد ، وآمنوا فى موضع الخوف وهو الإشراك بالله الذى هو أعظم الذنوب ، والواو عاطفة على أخاف كما علمت من قولى إن الجملة داخلة فى التعجب والإنكار ، أو واو الحال .

(فأىُّ الفَرِيقَيْنِ) الفريق الموحدين ، والفريق المشركين ، ولم يقل ولا تخافون من أشركتم به مالم ينزل الآية ، لئلا يكون قابل الأصنام والكواكب بخالقها (أحقُّ) أى حقيق ، فاسم التفضيل ليس على بابه ، إذ لا تثبت لهما الحقيقة ويتفاضلان فيها ، بل هى لأحدهما فقط ، إلا أن تنزل لهم فى ثبوت الحقيقة من وجه ما على زعمهم فى الشرك ، ولم يقل : أينا أنا أم أنتم احترازاً من تزكية النفس التى يتوهمونها ، لأنه إذا توهموها منه لنفس أبعدهم ذلك عن الإيمان ، وليس كقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » بأنهما ذكر الخبر فقط لصيغة اسم التفضيل ، وفى نسب ذكر الشر أيضا وذكر الجماعة وهى أقرب فى التزكية الإنسان نفســـه .

(بالأَمْنِ) من عاقبة السوء المؤمن أحق بالأمن ، بمعنى أنه إن ختم له بخير كان أمناً بخلاف المشرك فلا آمن له حتى يتقدم إسلام من الشرك (إنْ كُنتم تعْلَمُون) ما يحق أن يخـــاف منـــه ، أو إن كنتم تعلمون أيهما أحق بالأمن ، وعلى كل حال جواب إن محذوف دل عليه : « أى الفريقين أحق بالأمن » أى إن كنتم تعلمون فأخبرونى أيهما أحق به ، قال أبو حيان : هذا الاستفهام تعجب وإنكار .

(الَّذين آمنُوا) بالله ورسوله وكل ما يجب الإيمان به (ولــم يَلْبِسُوا) يخلطوا (إيمانَهم بظُلْمٍ) هــو الكبائر الشرك ومــا دونه (أولئكَ لَهم الأمنُ) من عذاب النار ، الذين مبتدأ ، وأولئك مبتدأ ثانٍ ، والأمن مبتدأ ثالث ، ولهم خبره ، والجملة خبر الثانى ، والمجموع خبر الأول ، وذلك من كلام الله جل وعلا من كلام الله ، بين به أى الفريقين أحق بالأمن ، وتم كلام إبراهيم فى قوله تعالى ، ويجوز أن يكون تمام كلام إبراهيم مهتدون من قوله :

(وهُم مهتَدُون) إلى الحق ، ثم أريت الوجهين للقاضى والحمد لله ، وإنما اخترت أنه من كلام الله تعالى ، لأن الأنسب بالمشرك المدوغل فى الشرك ، الحريص فيه ، يزحزح عنه بالتدريج فالأليق بإبراهيم أن يذكر لأبيه الإيمان ، فالولاية تفيد أنهُ من آمن ومات على ذنب مصر عليه ليس له الأمن ، فذلك كقوله تعالى : « أو كسبت فى إيمانها خيراً » وسواء فى ذلك الظلم ظلم نفسه بذنب ما بينه وبين الله ، أو ظلم غيره .

وما أكثر تخالط الأشعرية ، فتارة يقولون : الفساق بعضــهم فى النار ثم يخرجون منها ، وبعضهم لا يدخلونها ولو ماتوا مصرين ، وتارة قالوا : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، وقالوا فى الآية : « إن الظلم لشرك » وقالوا عن ابن مسعود رضى الله عنه : لما نزلت « ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » شق ذلك على المسلمين وقالوا : أينا لا يظلم نفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس ذلك إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه : يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » وفى رواية : « ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » فإن صحت الرواية عن ابن مسعود رضى الله عنه فالمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الآية

وردت في الشرك وخطأهم في تفسيرها بمطلق الكبائر ، أو أراد أن مطلق الكبائر كالشرك بدليل الآى والأحاديث مثل : « وعملوا الصالحات» ومثل : « إنما يتقبل الله من المتقين » ومثل : « أو كسبت فى إيمانها خيراً » « وهلك المصرون » .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى بن كعب : يا أبا المنذر آية فى كتاب الله أحزنتنى ؟ قال : أية آية يا أمير المؤمنين ؟ قال : قول الله : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » قال أينا لم يظلم ، قال : يا أمير المؤمنين إنها ليست حيث تذهب ، ألم تسمع إلى قول العبد الصالح : « إن الشرك لظلم عظيم » إنما هــو الشرك ، وفهم عمر عــلى العموم هو الحق ، ولعله صلى الله عليه وسلم يشير إلى أن الآية فى أبى إبراهيم ، وأنها تفسر بالشرك ، لأن تفسيرها بــه أليق بجلبه إلى الإسلام ، بأن يذكر له أولا الإيمان لله ، ويذكر له أن لا يخلطه بالإشراك حتى إذا آمن وخرج عن الشرك ذكر له تفصيل الشرع ، وذلك أنه يمكن أن يقر بوجود الله ويعبد الأصنام مع ذلك فقال له إبراهيم : إنما الآمن من أقر به ، وخرج عن عبادة الأصنام وذلك فى الشرك ، يجبُّ الإسلام ما قبله ، ويستقبل بعده تفاصيل الشرع ومنها شرط الإصرار لما بعــد وذلك لدلالة الآيات والأحاديث .

ثم إن الواضح أنها من كلام الله جل وعلا ، وبه قال ابن زيد ، وابن إسحاق ، وصححوه وأن الظلم ما دون الشرك ، لأن الشرك أغنى عن نفيه ذكر الإيمان ، لتبادر أنه التصديق كما هو المتبادر فى آيــات القرآن ، حيث يذكر بعده عمل الصالحات ، ولو كان يستعمل أيضا بمعنى الطاعة التوحيد وما دونه ، وأما قراءة مجاهد : ولم يلبســوا إيمانهم بشرك ، فإنما أراد بها التفسير الذى يذكر عن ابن مسعود ، وليس لفظ

الآية ، فإن صح ذلك التفسير عن ابن مسعود فقدم تأويله ، وكذا إن صح عن الصديق أن الظلم فى الآية الشرك .

(وتِلْكَ حُجَّتنا) الدلائل التى استدل بها إبراهيم لقومه ، من أفول الكوكب وما ذكر بعده إلى « مهتدون » ، أو من قوله : « أتحاجونى فى الله » إلى « مهتدون » وقيل الإشارة إلى قوله : فلا تخافون من آلهتكم أن يغضب عليكم كبارها اذ سويتم بينها وبين صغارها لما قالوا لــه : نخاف عليك الجنون من سب آلهتنا فسمى الله هذا حجة ، وهذا ضعيف إذ لا ذكر لذلك فى الآية ، وقيل : الإشارة إلى قوله : « أى الفريقين أحق بالأمن » أى أمن يعبد آلهة أم من يعبد واحداً ، قال ذلك فقالوا : من يعبد واحدا فقضوا على أنفسهم ، وذلك مبتدأ وخبره قوله : (آتيْناها إبراهيم عَلى قَومه) خبر ثان أو حال من حجة ، لأن المبتدأ اسم إشارة كقوله تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية » أو حجتنا بدل تلك أو عطف بيان له ، وآتيناها إلخ خبر ، وعلى إبراهيم يتعلق بآتيناها أو بمحذوف حال من ضمير النصب فى آتيناها ، وصح أن يقال فى أدلة حجة ، لأنها تمت بمجموع الأدلة ، أو إضافة حجة للجنس ، فصح إطلاقها على حجج ، والحجة ما احتج به ، فيصح أن يعلق به على قومه ، ولو قلنا : إنهُ غير مصدر ، وإذا جعلنا حجتنا بدلا من تلك أو عطف بيان لم يتعلق به على قومه للفصل بأجنبى ، وهو الخبر الذى هو قوله آتيناها .

(نَرفعُ دَرجــاتٍ مَنْ نَشاءُ) فى الدين والعلم ، والحجــة والجنة بتيسير الفهم والحفظ والتوفيق للعمل ، وقيل بالنبوة كما رفعت درجة إبراهيم بما له من ذلك ، وقرأ الكوفيون ويعقوب بتنوين درجــات على أنهُ ظرف أو منصوب على نزع الخافض ، أى فى درجات ، فيكون

من مفعولا لنرفع ، أو درجات مفعول ثان ، ومن مفعول أو على تضمين نرفع معنى نعطى •

(إنَّ ربكَ حكيمٌ) فى صنعه ، ومنه خفض من يخفض ورفع من يرفع (عليمٌ) بكل شىء ، ومنه حال من يرفع واستعداده للرفع •

(ووهبْنا له إسْحاقَ ويعقوبَ كلاًّ هَديْنا) بدين الإسلام ، وقيل : للنبوة والرسالة ، أو حذف للعموم لكل خبر تصلح الهداية إليه ولذلك فى قوله : (ونوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ) أى الأمر قبل إبراهيم ، وقد صح أن الهداية المخصوصة بالأنبياء هى الإرشاد إلى أمر النبوة والرسالة ، فتحتمل عليها هدايتهم حيث ذكرت ، لما ذكر إبراهيم عليه السلام بذكر احتجاجه على المشركين فى إبطال الأصنام كاحتجاج رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو جده ، وإليه انتسب العرب قريش وغيرهم ، وتنتحل أنهُ على دينه ، فبين الله بذلك أنه لا يعبد الأصنام ، وأنه يقول ابنه محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قدمه ناسب أن يذكر من وهب له من الأنبياء وهو إسحاق ، فإنهُ ابنه من صلبه ، ويعقوب ابنه بواسطة إسحاق ، فإن يعقوب ابن إسحاق ، ولما اجتمع ذكرهم متقدماً لما ذكر مع تأخر زمانهم ، ناسب أن يضم إليهم من يجتمع معهم فى أمر مهم معتبر ، ولو تقدم زمانه وهو نوح عليه السلام ، وهو أنهم أصول الأنبياء ، ولا يخفى ذلك فى نوح وإبراهيم فأنبياء بنى إسرائيل من ذرية إبراهيم ، وذلك فضيلة لإبراهيم ، لأن فضل الولد يتعدى للوالد ، وكذا كون نوح أباً له فضيلة له ، لأن فضيلة الولد تتعدى للولد ، والمقام لذكر فضائل إبراهيم عليه السلام ، فإنه أنعم عليه بالحجة على قومه ، ويرفع درجاته « نرفع درجات من نشاء » ويجعل أشراف الأنبياء من نسله •

﴿ ومِنْ ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسُليمانَ ﴾ جمعهما بأن أحدهما أبو الآخر ، ولتوافقهما فى أمر آخر مهم يلى النبوة وهو الملك ، وكذا القدرة والسلطان ، وسليمان أشد سلطاناً ، والهاء فى ذريته عائدة إلى إبراهيم عليه السلام ، وقيل إلى نوح وهو مذهب الجمهور ، لقرب ذكره ، ووجه الأول أن الكلام مبنى على فضائل إبراهيم ، وإبراهيم أقرب زماناً إلى داود وسليمان ، وكلاهما مذكور ، واختير قول الجمهور ، لذكر لوط وهو ليس من ذرية إبراهيم بل ابن أخته ، وقيل ابن أخيه ، لكن يحتمل أن يقدر له هدينا ، وكذا يونس ليس من ذريته ، أو يعطف على « نوحاً » فقد تسلطت عليه الهداية ، أو على إسحاق فتسلط عليه الهبة ، ومن تتعلق بمحذوف حال من داود وسليمان ، ومن للتبعيض ، ويجوز تعليقها بوهبنا محذوفاً ناصباً لداود وما بعده كله ، ومن للابتداء ، ويدل للعطف على كلا أو على « نوحا » أن لوطا ويونس لم يوهبا لإبراهيم ، فالعطف على من ذكر بالهداية لا على ما يرسم الهبة ، إلا أن يقال : إنهما موهوبان له بالقيام بشرعه ، وليسا ذرية له ، أو يقدر لهما هدينا محذوفاً ، وينصب الباقى على الهبة .

﴿ وأيُّوبَ ويُوسفَ ﴾ جمعهما لأنهما جميعاً بليا بالمحن الشديدة المتطاولة فصابراها ، وأورثهما الصبر الجميل الملك ، فليوسف ملك مصر ، ولأيوب أهله ومثلهم معهم ، ومطمورة ذهباً وهو أيوب بن أحوص بن رازح ابن رو بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ ومُوسَى وهَارُون ﴾ جمعهما الله لكثرة المعجزات والبراهين ، وكلاهما رسول وهما أخوان فى زمان واحد ، وهارون تبع لموسى عليهما السلام فى المعجزات والبراهين .

﴿ وكذلكَ نَجْزى المحْسِنين ﴾ كما جزينا إبراهيم على توحيده وصبره لأذى قومه نجزى داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون على إحسانهم ، فهم المراد بالمحسنين وضع الظاهر موضع

المضمر ليوصف بالإحسان أو يجزيهم بكثرة الأولاد أو بالنبوة فيهم ، ورفع الدرجات كما فعلنا ذلك بإبراهيم ، وإذا جزاهم فأولى أن يجازى نوحاً •

(وزَكريَّا ويَحْيَى وعِيسى وإلياسَ) جمعهم لأنهم كلهم زهداء فى الدنيا معرضين عنها ، ولأن زمانهم واحد بمداركة إلياس ، وذكر زكريا وبعده يحيى لأنه أبو يحيى ، وذكر عيسى وإلياس لأنهما حيان إلى الآن ، وقدم عيسى لِيَلى قريبه ، ولزهدهم وصفهم بالصلاح فى قوله : (كلٌّ مِنَ الصَّالحينَ) أى كل واحد من الأربعة ، أو كل من ذكر من الصالحين وهم الآتون بما ينبغى ، المتحرزون عما لا ينبغى ، وزكريا هو بن برخيا بن آدر بن مسلى بن صدوق بن يحيى بن داود بن سليمان بن صديقة بن باخور بن سليم بن مهداسى بن أنيا بن رجعيم بن سليمان بن داود عليه السلام ، وإلياس بن سنا بن فنحاص بن العزار بن هارون بن عمران •

وعن ابن مسعود : هو إدريس والمشهور الأول ، وإدريس قبل نوح ، وعلى الثانى فليس من ذرية إبراهيم ، وفى ذكر عيسى من ذرية إبراهيم دليل على أن ولد البنت من ذرية أبى البنت ، فلو أوصى أحد لذرية فلان ، أو حبس عليهم ، أو أوصى أو حبس لذرية نفســه ، فأجيزت الوصــية والحبس ، أو أوصى أو حبس لذرية بعد وارثه لدخل ابن البنت وابنها ، فإن عيسى عليه السلام لا أب له ، ولم يلحق بإبراهيم عليه السلام إلا بأمه مريم عليها السلام ، وكذا هو من ذرية نوح بأمه ، وإذا عطفنـــا المنصوبات على المهدى كان فكونه من ذريته يعلم من غير الآية •

(وإسْماعيل والْيسَعَ ويُونسَ ولُوطاً) جمعهم لأنهم لم يبق لهم أتباع ، أو اليسع هو ابن أخطوب بن العجوز ، وقرأ الكسائى وحمزة

واليسع بلام مشدد بعده ياء ساكنة وأل فيه على القراءتين داخلة على العلم الأعجمى كدخولها فى الضرورة على يزيد ، ولوط هو ماران ابن أخى إبراهيم ، وقيل ابن أخته ، وفى فتوح الشام للواقدى أنـه مـن العرب ، وليس بمشهور ، ولعله تزوجت أخته رجلا من العرب فولدت منه ، أو كان له أخ من الأم من العرب .

(وكلاً فَضَّلنا عَلى العالمينَ) الملائكة والإنس والجن ، ويقاس على هؤلاء سائر الأنبياء ، وقامت البينة أن رسول الله سيـدنا محمد أفضل الأنبياء ومن الملائكة كلهم ، وزعم بعض المعتزلة أن جبريل أفضل ، منه ، والظاهر أن الآية فى التفضيل على عالمى زمانهم ، بمعنى أن كل واحد من هؤلاء الأنبياء اخترناه من أهل زمانه ، وقيل الملائكة أفضل ، ولا خلاف أن الأنبياء أفضل من ملائكة الأرض .

(ومـن آبائهم وذُرِّيَّاتهم وإخْوَانهم) متعلق بمحـذوف نعت لمحذوف ، والمحذوف مفعول لمحذوف ، ومـن للتبعيض ، أى وهدينا ناساً ثابتين من آبائهم ، أو فضلنا ناساً ثابتين من آبائهم على أهل زمانهم أو أقرانهم بالدين والعلم ، وليسوا بأنبياء فإن من آبائهم وأبنائهم من هو مشرك أو فاسق ، كما دلت عليه من التبعيضية ، وذلك كآزر وابن نـوح .

(واجْتَبَيناهم) اخترناهم عطف على فضَّلنا أو هدينا المحذوف ، وقيل : على هدينا أو فضلنا المذكور (وهَدَيْناهم إلى صِراطٍ مُستقيمٍ) كرر ذكر الهداية لبيان ما هداهم إليه ، وضمير هديناهم واجتبيناهم عائد إلى الناس المهديين من آباء هؤلاء الأنبياء ومن ذريتهم ومن إخوانهم ، وقيل إلى الأنبياء المذكورين .

(ذلكَ) المذكور من توحيد الله ومعرفته أو دين هؤلاء ، أو ذلك الصراط المستقيم ، أو ذلك المذكور من الهداية (هُدَى الله) والهدى بالمعنى المصدرى أو بمعنى ما يهدى إليه بحسب ما ترد إليه الإشارة (يَهْدِى بهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ) إلى دينه وطاعته ، وهو متفضل بالهداية على من يشاء ، وهاهنا أجرى الله على لسانى كالارتجال والحمد لله على كل حال :

وإنى والآثام كالأحمق الذى
ترامى ببحر ظلمة وهو تيار

لعل الذى يداه مبسوطتان منجدى
بسفينة الهدى فهو غفار

(ولَوْ أشْرَكُوا) أى لو أشرك بالله غيره هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو شأنهم (لحَبِطَ عَنْهم ما كانُوا يعْمَلُون) لبطل عنهم ثواب ما عملوا ، وزاد مع علو شأنهم ، وكانوا كغيرهم ممن أشرك ، لكن وفقهم الله لا يشركون ولا يعصون .

(أولئكَ) الأنبياء مبتدأ (الَّذينَ) خبر (آتيناهُم الكِتابَ) جنس الكتاب ، والمراد الصحف والتوراة والزبور والإنجيل (والحُكْم) الحكمة وهى الوعظ البليغ النافع والعلم ، ويجوز أن يراد الحكم بين الناس بالحق ، وإنفاذ الحقوق (والنبوَّة) قبل الرسالة ، والظاهر أن المراد مطلق النبوة ، ونعلم من خارج أنهم مرسلون ، وقدم الكتاب والحكم ليدلا أولا عليها ، والحكم لا يوجبها ، ولكن يناسبها ، فزادت دلالة الكتاب بها ، وإعطاء النبوة على من أعطاه الكتاب والحكم ، لكنها تستلزم الحكم .

(فإنْ يكْفُرْ بها) أى بالنبوة ، أو بهذه الجملة التى هى الكتاب والحكم والنبوة (هؤُلاءِ) كفار قريش ، وعن ابن عباس : كفار قريش ، وكل كافر فى ذلك العصر ، وظاهر الآية ، فإن يكفر بالنبوة أو بها وبالحكم والنبوة فى حق من ذكر من الأنبياء ، وفى حقه صلى الله عليه وسلم بالأولى ، ويحتمل أن يكون المعنى : فإن يكفر هؤلاء بذلك فى حقك يا محمد ، وذلك على طريق الاستخدام (فَقَدْ وكَّلْنا بها) أى بإقامتها (قوماً ليسُوا بها بكَافِرِين) وهم مؤمنو أهل كل عصر من أعصار هؤلاء الأنبياء ، وعلى أن يراد كفر هؤلاء بذلك فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالمراد بالعصر المهاجرون والأنصار ، ومن آمن به صلى الله عليه وسلم قبل بعثه وقبل وجوده ، وبعد ذلك من كل من آمن بــه فى زمانــه •

وعن ابن عباس الأنصار ، وقيل المهاجرون والأنصار ، ولو قيل : المراد من آمن به قبل الهجرة لجاز ، وقال الحسن وقتادة والزجاج : الأنبياء ومن تابعهم له أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، وقيل : كل من آمن به قبل وجوده وبعده إلى يوم القيامة ، وقيل : الفرس ، وقال ابن زيد : هم كل من آمن به من إنس وجان وملك فى أى عصر ، وقال أبو رجاء العطاردى : الملائكة ، واستشكال بأن القوم لا يطلق عليهم ، والآية مشعرة أن دين رسوله منصور عال الأديان ، وأن الله تكفل بذلك ، أى أن يكفر بها هؤلاء فليست مخذولة مضمحلة ، بل قد وكل بها من يقوم بها •

(أولئكَ الَّذينَ هَدَى اللهُ) إلى دينه ، وهم هؤلاء الأنبياء ، والجملة مبتدأ وخبر (فَبهدَاهم) لا بغيره (اقْتَدِه) بهداهم متعلق باقتده قدم للحصر ، ولطريق العرب فى التقديم للاهتمام ، أى تمسك

بهداهم واتبعه ، والمراد بهداهم التوحيد وأصول الدين ، وما لا يختلف فى الأمم ، وليس ذلك أمراً بتقليدهم فضلا عن أن يدل ذلك على أنه أفضل ، بل قد أمره الله فى القرآن بالتوحيد وأصول الدين ، وما لا يختلف ، فقال : اتبع ما أمرتك به فإنه الذى هدينا به من قبلك ، والعامل بالدليل لا يسمى مقلداً ، ولو وافق غيره ، ولو كان الدليل عقلياً .

بل أقول : الآية دليل على فضله صلى الله عليه وسلم بأن يكون المراد بهداهم كل ما فيه من التوحيد وأصول الدين ، وما لا يختلف ، وما فيهم من الخصال الحميدة كشكر نوح وداود وسليمان ويوسف على النعم ، وصبر أيوب ويوسف على البلاء ، وزهد زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، وصدق إسماعيل ، والمداومة على الاحتجاج كموسى وهارون بمعجزاتهما ، وتضرع يونس ، وإذا أمره الله بأن يتخلق بهذه الخصال فلا بدّ أن يكون قد امتثل ، وإذا امتثل فقد اجتمع فيه ما فيهم ، فإذا اجتمع فيه ما فيهم ، كان أفضلهم ، والهاء للوقف ، وليست ضميراً أثبتها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم ، عن أبى بكر فى الوصل أيضا إجراء له مجرى الوقف ، وسكنوها وقفا ووصلا ، وإنما أثبتوها فى الوصل لأنها مكتوبة فى الصحف ، فكرهوا مخالفته وأثبتها حمزة والكسائى فى الوقف ، وأسقطاها وصلا ، كما هو شأن الوقف ، ويريانها كهمزة الوصل تكتب ولا تقرأ إلا إذا وقف على ما قبلها ، وكالمحذوف من الآخر لساكن قبله إذا كتب ألفا أو واواً أو ياء ، فإنه يكتب ولا يقرأ إلا إذا وقف عليه .

وجعلها ابن عامر ضميراً مفعولا مطلقا ، وأثبتها وصلا ووقفاً وأشبعها بياء أعنى مدها مداً طبعياً ، وذلك فى رواية ابن ذكوان ، وكسرها هشام عن ابن عامر باختلاس ، والمعنى عند ابن عامر اقتد اقتداء برد الهاء إلى المصدر المعلوم من اقتد ، ولا يخفى أن هذا بعيد ، ولو ورد كثير

رد الضمير إلى المصدر المدلول عليه بالفعل لكن يجيء من كلام العـرب رد الضمير إلى المصدر المفهوم من الفعل الذى عمل فيه ، بحيث يسلم ، بل ورد على غير هذه الطريقة كقوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » وكما ذكر سيبويه : من كذب كان شراً له ، وقد خطأ مجاهد وقال : إن هذه هاء وقف لا تحرك بحال ، وإنما تذكر لتظهر حركة ما قبلها •

واستدل بعض بهذه الآية على أن شرع من قبلنا شرع لنا فيما لم ينسخ ، وقد تقدم فى قوله تعالى : « أن النفس بالنفس » الكلام فى ذلك ، وأن قوما من أصحابنا اختاروا أن شرع من قبلنا شرع لنا إلا ما نسخ وهو الصحيح ولو شهر خلافه ، وإذا علمت أن الخلاف فى المذهب فليحمل كلام أصحابنا الدال على أنه شرع لنا على ظاهره ، كقول الشيخ عامر رحمه الله فى الاستدلال على ثبوت الإجارة بقوله تعالى : « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى » وهذا فى مطلق الدلالة على مطلق الإجارة ، ولو كان أصحابنا لا يجيزون الصداق بالتمنى ، وكما استدل الشيخ إسماعيل بقوله تعالى : « فبعث الله غراباً » الآية ، وكما قال فى السؤالات •

قال أبو الربيع ، عن أبى محمد عبد الله بن محمد : أول من رمى المعرّة للأرض إدريس صلى الله عليه وسلم وهو رد على الشكاك ، أى لإصلاح الأرض للحرث ، وكما قال فى الوضع : جاء رجل إلى ابن عباس رضى الله عنه فسأله عن الصيام فقال له ابن عباس : إنى لأحدثك بحديث كان عندى من الصُّحُف المخزونة : « إن كنت تريد صيام داود عليه السلام فإنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً » إلخ ، فجعل شرع من قبلنا شرعاً لنا ، إذ جعل استحباب جملة من الأنبياء صوماً مخصوصاً شرعاً مستحباً ، ومن ذلك كل ما ذكر أصحابنا فى الفروع أنهُ كان نبى من الأنبياء يفعله

أو يتركه ، ولم يكن فى القرآن ولا فى السنة ، أو ذكر فى السنة عمن يقدم من الأنبياء من واجب أو مندوب إليـه ، أو محـرم أو مكروه ، فإنهم رحمهم الله إنما يذكرونه لنعمل به ، واختار ابن السبكى من الشافعية الوقف قبل النبوة والمنع بعدها إذ قال : اختلفوا هل كان المصطفى صلى الله عليه وسلم متعبداً قبل النبوة بشرع ؟ واختلف المثبت قال المحلى : فقد فقيل : نوح ، وقيل : إبراهيم ، وقيل : موسى ، وقيل : عيسى ، وقيل : ما ثبت أنهُ شرع من غير تعيين •

وهذه أقوال مرجعها التاريخ والمختار كما قاله كثير هـو الوقف تأصيلا عن النفى والإثبات ، وتفريعاً على الإثبات عن تعيين قول من أقواله ، والمختار بعد النبوة المنع من تعبده بشرع من قبله ، لأن لـه شرعاً يخصه ، وقيل : تعبد بما لم ينسخ من شرع ما قبله استصحاباً لتعبده به قبل النبوة ، وأراد بالتاريخ اسـم كتاب للطبرانى ومختـار المالكية أنهُ شرع لنا ، إلا إن ورد ما يخالفه •

(قـُلْ) يا محمد للكفرة (لا أسألكم عليه) أى على التبليغ أو القرآن وكلاهما يعلم من المقام والحال (أجراً) أجرة كما لو يسألها الأنبياء الذين أمرت بالاقتداء بهم من أممهم على التبليغ ، ولا على كتاب لمن أنزل عليه أو فسره ، وكل الأنبياء كذلك ، فإنى أمرت بالاقتداء بهم فلا أسألها كما لم يسألوها (إنْ هـُو) أى مـا القرآن أو التبليغ أو غرضى فى التبليغ (إلا ذِكـْرى) تذكيراً وموعظة (للعـَالمينَ) الإنس والجن كلهم •

(وما قـَدرُوا الله حقّ قـَدْره) قال الأخنس : ما عرفوا الله حق معرفته ، يقال : قدرت الشىء أى عرفت قدره بصفاته ، ومن لم يعرفهُ

بصفته قيل لم يقدره أى قدره ، وفى الحديث : « إذا غم عليكم فاقدروا له » أى فاعرفوه بإتمام عدة شعبان ، ولما كان قدر الشيء طريقاً وسبباً إلى أن يعرف الشيء به استعمل لفظ قدر بمعنى عرف ، والمراد حق قدره فى النعمة ، إذ جعلوا أعظم النعم وهو بعث الرسل والوحى باطلا غير موجود ، أو قدره فى السخط والبطش على من قال مثل ما قالوا من الكفرة ، أو قدره فى ذلك كله وسائر صفاته ، فعن أبى العالية : ما وصفوا الله حق صفته ، ولفظ الفخر عنه : ما وصفوه حق قدرته وعظمته ، وعن ابن عباس : ما عظموا الله حق عظمته ، هذا لفظ الفخر عنه ، وفى رواية عنه : ما آمنوا أن الله على كل شيء قدير ، وتلك معان صحيحة يرجع بعضها إلى بعض .

(إذ قالُوا ما أنزلَ اللهُ علَى بشرٍ مِنْ شَىءٍ) لا وحى ولا كتاب ولا رسول ولا نبى من الله ، وذلك أن النبوة والرسالة بالوحى ، فإنكار الوحى لهما وللكتاب ، وضمير قدروا وقالوا لليهود على قول الجمهور وهو الصحيح ، وكانوا يختلطون بقريش فى مكة وغيرها قبل الهجرة ، وقد قالوا ذلك ، فلما أنزلت سورة الأنعام جملة فى مكة ، أنزل ذلك فيها رداً عليهم ، إذ أنكروا الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنكروا إنزال القرآن عليه ، وأنكروا كونه نبياً ورسولا ، وبالغوا فى ذلك حتى أنكروا غيره من الأنبياء والوحى إليهم ، مبالغة فى إنكار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدل على أن ذلك فى اليهود لعنهم الله قوله تعالى :

(قلْ مَن أنزلَ الكتابَ الَّذى جَاء به مُوسَى نُوراً وهُدًى للنَّاس تَجْعلونَه قَراطيسَ تُبدونَها وتُخْفُون كَثيراً) فإن غير اليهود لا يقرون بموسى عليه السلام والتوراة ، فكيف يحتج على غيرهم

بهما إذ أنكروا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقريش ولو خالطوا اليهود وذاكرو موسى والتوراة ، وتناولوا الإيمان بهما ، لكن لم يَبلغوا من الإيمان بهمـا بحيث يحتج عليهم بهما إذ لـم يرسخ ذلك ، والذين يجعلون التوراة قراطيس ً يبدونها ويخفون كثيراً هم اليهود لا غيرهم ، والخطاب لهم ، ومن قرأ يجعلونه ويبدونها ويخفون بالمثناة التحتية وهو ابن كثير وأبو عمرو راعى قوله تعالى : « قالوا » وقوله تعالى : « ومـا قدروا الله » واليهود ولو لـم يقرءوا التوراة وموسى ، لكن فيهم مـن أنكرهما مبالغة لغضبه ، وقوله : « قالوا احكم » على المجموع وأيضا أنهم ولو أنكروا ذلك على قائله وعزلوه لم يفعلوا ذلك لله ولا من قلوبهم ، لكنهم رأوا منه ما لا يروج عنهم ، فأظهروا الإنكار ، فلو نفع ذلك فى إبطال دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لم ينكروه ولم يعزلوه .

كان مالك بن الصيف يخرج مع نفر إلى مكة معاندين ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء ، وكان من أحبار اليهود ورؤسائهم ، وكان سميناً ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الخبر السمين ؟ » قال : نعم ، قال : فأنت الحبر السمين ، قد سمنت من أكلتك التى تطعمك اليهود ، فضحك القوم فخجل مالك بن الصيف ، فالتفت إلى عمر فقال غضباً : ما أنزل الله على بشر من شىء ، فلما رجع مالك إلى قومه قالوا له : ويلك يا هذا ما الذى بلغنا عنك ؟ قال إنه قـد أغضبنى ، فلذلك قلت ما قلت ، قالوا : أكلما غضـبت قلت بغير حق ، وتقول غضـبت فقلت بغير حق ، فأخذوا الرياسـة والحبرية منـه ، وجعلوهما إلى كعب بن الأشرف ونزلت الأنعام وفيها هذه الآية ناعية عليـه .

وقيل : قال ذلك فى المدينة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية ، على أن الأنعام نزلت جملة إلا بعض آيات نزلن فى المدينة ، قلت : لعله — لعنه الله — أراد بالبشر سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونكره تحقيراً له ، ولما كانت عبارته توهم تعميم نفى الأنبياء كلهم ، والوحى كله ، لأن بشراً وشيئاً نكرتان للعموم ، ولا سيما شىء لذكر من الاستغراقية معه أنكروا عليه ومنعوه وأخرجوه ، وقيل : لما قال : ما أنزل الله على بشر من شىء قال له أصحاب الذين معه ، ويحك ولا على موسى ، فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شىء قاله عناداً وغضباً إذ أراد أولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما لم يحمل أصحابه كلامه على إرادته ، بل على العموم ، تعمد زيادة الكفر لزيادة غضبه .

وكذلك رد الله عليه كلامه على ظاهر عمومه أو رد عليه بالتوراة ، وكون قائل ذلك مالك بن الصيف ، هو قول سعيد بن جبير ، وقال : إنه قاله بالمدينة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال السدى : قائل ذلك فى فنحاص بن عابورا فى المدينة بعد الهجرة ، وقال مجاهد وابن عباس : إن ذلك منهم نفى للوحى فقط ، ولم ينفوا عموم النبوة بالرسالة ، بل قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت الأنبياء تأتينا ولا تأتى بكتاب من الله قط ، وأنت تقول جاءنى من الله كتاب .

ومثله ما روى عنه أنهم قالوا : يا محمد أأنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : « نعم » فقالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، وفى ذلك نزلت الآية ، وعن محمد بن كعب القرظى : جاء ناس من يهود إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً يحملها من عند الله ؟ فنزل : « يسألك أهل

الكتاب » الآية ولما حدثهم بأعمالهم الخبيثة جاء رجل منهم وقال : ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً ، فأنزل الله : « وما قدروا الله » الآية أنكروا كون التوراة من الله ، فرد الله عليهم بأن قال : من أنزلها ؟

وفى رواية عن السدى ومجاهد : أن الآية فى قريش ، وصححه الطبرى ، لأن من أول السورة الكلام فيهم ، ويعترض عليه بأنهم ينكرون أيضا موسى والتوراة وغيرهما ، فكيف يحتج الله تعالى عليهم بإنزال التوراة على موسى ، ويعترض عليهم أيضا بأن الذين يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً هم اليهود ، اللهم إلا أن يقال : إن قريشاً لما خالطوا اليهود وأذعنوا بعض إذعان للتوراة كما قال الله تعالى : « أن تقولوا لو أنزل علينا الكتاب » الآية احتج عليهم فخوطبوا مع اليهود ، فقيل : « من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » خطاب لهم ، وتجعلونه قراطيس إلخ خطاب لليهود ، ويدل ما قلنا ، ومعنى جعلهم الكتاب قراطيس جعلهم إياها أوراقاً صغاراً ليتمكنوا من إخفائه ما أرادوا إخفاءه كصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآية الرجم ، ولا يلزم من ذلك أن لا يظهر وصفه ، ولا أن لا يكتب إلا فى أوراق صغار فقد ظهرت آية الرجم بإحضار ورقتها فى كتاب التوراة ، بل أخبر الله أن غرضهم تصغير الأوراق لذلك الغرض ، ولا يلزم أن تتم حيلتهم والكثير الذى قال الله جل وعلا إنهم يخفوه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجم وغير ذلك من كل ما الذى لهم غرض فى إخفائه .

والآية ذم لليهود ، وعلى تجزيئهم التوراة ، وجعلهم يكتبون بحقها وكتم بعضها ، ويقدر مضاف أن يجعلون كتبها قراطيس ، أو جاز ايجعلونها فى

قراطيس ، وتبدونها نعت لقراطيس ، وتخفونها معطوف عليه ، وتجعلونه حال من هاء به لا كما قيل إن الجمل الثلاث حال من هاء به .

(وعُلِّمتُم ما لم تعلَموا أنتُم ولا آباؤكُم) خطاب لليهود ، أى علمكم الله ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أمر الغيب ، وتأويل التوراة ، فدل ذلك على أنه نبى الله ، والمراد بالآباء الأجداد ولو علا بعض على بعض وكثروا ، وقال الحسن : الآية سيقت فى تضييعهم النعمة ، إذ جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وعلمه إياهم ولم ينتفعوا به ، بل كفروا به وآذوه ، وقيل : لكفار قريش ، وقيل : لهم ولليهود ، وقيل : للمؤمنين من قريش يذكر الله لهم النعمة بأن علمهم من أمر دينهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ما لم يعلموه هم ولا آباؤهم ، والجمهور على الأول ، وجملة علمتم حال من واو تجعلونه على إضمار قد .

وقيل : يجوز قرن الجملة الحالية الماضوية بواو الحال ، بل التقدير لقد ، والخطاب فى الكل لليهود ، ومن قرأ يجعلونه وما بعده بياء الغيبة فعلمتم حال كذلك ، والضمير لليهود ، وذلك على طريق الالتفات ، وأما أن يجعل الخطاب هنا لقوم ، والخطاب فى تجعلونه وما بعده لآخرين أو الغيبة ، فلا يصح الحال لعدم كونه حالا ممكنة ومقدرة ولا مقارنة .

(قُل الله) أى أنزله الله ، أو الله أنزله فاعل لمحذوف أو مبتدأ لمحذوف دل عليها قوله تعالى : « قل من أنزل الكتاب » أمره بالسؤال توبيخا لهم ، وأمره بالجواب بما لا يمكن أن يجيبوا إلا به ، حيث لا محيد عنه به ، ولو سكتوا أو أنكروا أو أشار بالجواب عنهم إلى أنهم بهتوا فلا يقدرون على الجواب .

(ثمَّ ذرْهُمْ) اتركهم (فى خَوْضهم) متعلق بذرهم أو بقوله : (يلعبونَ) أو بمحذوف حال من هاء ذرهم ، أو واو يلعبون والخوض الباطل ، ويلعبون يستهزئون وقيل : معنى الكلام التهديد للمشركين ، أى تول عنهم يا محمد ، فقد أديت ما عليك فما عليهم إلا العقاب ، وهذا مما قيل منسوخ بآية الكهف ، ويقال : بل هو تهديد باق مستمر لا ينافى القتال إذا جاء ، وجملة يلعبون حال من الهاء بين قبلها .

(وهَذا كتابٌ) أشار إلى القرآن (أنزْلناهُ) خبر ثان (مُبارَكٌ مُصدقُ الَّذى بَيْنَ يَدَيْه) خبر ثالث ورابع ، أخبر بأن الله أنزلهُ ليعلموا أن تركيب كلماته من الله تعالى ، فإعجازه بألفاظه ومعانيه مــن الله تبارك وتعالى لا من رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعنى مبارك أن الله جعله كبير الفوائد والنفع ، صاحب بركة ، والبركة زيادة الخير ، وفى كونه منزلا مباركاً دلالة على كونه مخلوقاً ، إذ نقل وصبر ، وإن قالت الأشعرية : المنزل المبارك هذه الألفاظ ، وقالوا إنها ليست قرآنا ، وإن القرآن مسماها وهو معنى قائم بنفس الله سبحانه عن مقالتهم ، لزم أن القرآن لم ينزل ، بل نزل ذاته فشابه قولهم قول فنحاص ومالك ابن الصيف ، ما أنزل الله على بشر من شىء ، ولزم أن الله محل فوالله الذى لا إلــه سواه ، ما رأيت ديانتهم فى مثل هذا الأخطاء .

والعلم إما نظرى ، وأشرف هذه النوع معرفة الله عز وجل ولا يوجد منه فى غير القرآن من كتب الله ، ما وجد فى القرآن ، وإما عملى بالجوارح ، وإما عملى بالقلب وهو علم الأخلاق وتركية النفس وهما فيه أكثر منهما فى غيره ، ومعنى كونه مصدقا لما بين يديه من كتب أنه موافق له فى أصول الشرائع وما لا ينسخ ، وفى الكثير من الفروع وما تختلف فيه فقد وافقها بأن كلا من الله ، وإن كلا حكمة من الله لأهل زمانه ، ومن أرسل إليهم

به ، وأن كلا منذر مبشر أمر ونهى أو نحو ذلك ، وأما ما نسخ القرآن منها ، فقد وافقه القرآن أيضا من وجه آخر هو أن الله جل جلاله كتب العمل به إلى أن يأتى نسخه بالقرآن ، فنسخه بالقرآن مصدق لهذا الأجل الذى فى علم الغيب عند الله تعالى واقع على ما نسخ ، والذى بين يديه التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله .

(ولتُنْذر أمَّ القُرى) أى وأنزلناه لتنذر به أم القرى ، فهو متعلق بمحذوف ، ويجوز أن يكون من العطف على المعنى المسمى فى غير القرآن عطف توهم ، باعتبار أن المعنى وهـذا كتاب أنزلناه للبركـة ، وتصديق ما بين يديه ، ولإنذار أم القرى ، ففى هذا الوجه هو متعلق بأنزلناه المذكور بواسطة العطف ، وسميت مكة أم القرى لأنها قبلة أهل القرى ، فأهل كل قرية يستقبلون إليها فى الصلاة ، فهن فروع توابع وهى أصل متبوع ، وقيل : لأنها أعظم القرى بركة ، فهكذا الآن ، أو البيت فيه أول ما يبنى على الأرض ، ثم رأيته للقاضى والحمد لله ، وقيل : لأنه يجتمع إليها الحجاج ، وقيل : لأن الأرض سقطت منها ، وعلى كل حال يقدر مضاف أى ولتنذر أهل أم القرى ، ولذلك عطف عليها الناس فقال :

(ومَنْ حَوْلها) أى ومن فى جوانبها من الناس فى بلادهم شرقاً وغرباً فى الدنيا كلها ، وقرأ أبو بكر عن عاصم : ولينذر أم القرى بالمثناة التحتية ، أى ولينذر الكتاب ، واختار لفظ حولها إشـارة إلى أنهـا بالأمومة صارت كأم تجتمع حولها أولادها وتلوذ ، والأم أصل لولدها ، فهى لكونها قبلة للقرى صارت كالأصل لسائر القرى ، وكالأم يجتمع إليها أولادها ويؤمون نحوهـا ، وكذلك يجتمع إليها النـاس فى الحج ويقصدونها كما تقصد الأولاد أمهم ، ويجتمعون عندها ، ولما عظم شأنه صارت كالأم بالنسبة إلى الأولاد ، وأيضا بسط الأرض من تحتها شبيه

بولادة الأم ولدها ، وأيضا البيت فيها أول بناء على الأرض ، فهو كالأم في سبق الولد ، وأنه سبق البيوت .

(والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) أى بالكتاب وهو القرآن ، أو برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوجه الأول أولى ، والثانى يصح على الالتفات من الخطاب للغيبة ، ومعنى الإيمان بالآخرة الإيمان بالبعث للجزاء ، فإن من آمن به خاف العقاب ورجا الثواب ، فما يزال يجود النظر حتى يدرك بنور العقل والنظر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن القرآن كتاب الله ، والإيمان بأحدهما إيمان بالآخر .

(وهم على صلاتهم يحافظون) الإيمان ولو كان سببا للمحافظة على جميع ما يكلف به ، لكن الصلاة عماد الدين ، وأعظم الفرائض بعد التوحيد ، وعلم التوحيد ، فخص المحافظة عليها بالذكر لذلك ، لأن المحافظة عليها تجلب المحافظة على غيرها من العبادات ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم من رواية أبى بردة : « بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » والفرائض فرضت فى الأرض إلا الصلاة ففى السماء ليلة الإسراء لمزيد شرفها ، فبعد الإسراء كل صلاة تذكر فهى الصلوات الخمس ، وقبله مراد بها ركعتان غدرا وركعتان عشيا وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة عند بعض .

وروى أن رجلا من الأنصار حضره الموت فقال : إنى محدثكم حديثا ما أحدثكموه إلا احتسابا ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا توضأ أحدكم فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى الصلاة لم يرفع قدمه اليمنى إلا كتب الله له حسنة ، ولم يضع قدمه اليسرى إلا حط الله عز وجل عنه سيئة ، فليقرب أو ليمد ، فإن أتى المسجد وصلى فى جماعة

غفر له ، وأن أتى المسجد وقد صلوا بعضاً وبقى بعض صلى ما أدرك وأتم ما بقى كان كذلك ، وإن أتى المسجد وقد صلوا فأتم الصلاة كان كذلك » وقال صلى الله عليه وسلم : « من توضأ فأحسن وضوءه ثم راح فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله عز وجل مثل أجر من صلاها أو حضرها لا ينقص ذلك من أجورهم » ذكر هذه الأحاديث الثعالبى عن أبى داود فى سننه .

(ومَنْ أظْلم ممَّن افْترى عَلى اللهِ كَذباً) لا أظلم منهم إذ قال : إن الله بعثنى نبياً كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى من صنعاء اليمن ، أو قال : إن الله حرم كذا وأحل كذا ، وهو ليس كذلك كعمرو ابن لحى ، وقد مر أنه أول من غير دين إسماعيل ، ونصب الأوثان ، وبحر البحيرة وسيَّب السائبة ، وشرع الوصيلة والحامى ، ومر أنـهُ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيته يجر قصبه فى النار » يعنى أمعاءه .

(أو قالَ أوحِيَ إلىَّ ولَم يُوحَ إليْه شَىء") نائب أوحى هو قوله : « إلىَّ » ونائب يوح هو لفظ شىء ، ويجوز أن يكون شىء نائب أوحى ، ونائب يوح ضمير مستتر عائد إلى شىء ، لأن شىء فى نية التقديم ، وذلك مثل ما روى أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نزلت : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » إلى قوله : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » قال عبد الله تعجبا من تفضيل خلق الإنسان : « فتبارك الله أحسن الخالقين » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكتبها كذلك نزلت » فشك عبد الله ، فقال : لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلىَّ كما أوحى إليه ، وإن كان كاذباً لقد قلت كما قال ، فارتد ولحق بالمشركين ، ثم أسلم قبل فتح مكة ،

والنبى صلى الله عليه وسلم نازل بمر الظهران ، وكان قبل ذلك حين كان يكتب له صلى الله عليه وسلم إذا أملى عليه سميعاً بصيراً كتب عليما حكيما ، وإذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفوراً رحيماً ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقرأ كما نزل ، والصحابة يقرءون كما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قال : إن ذلك فى مسيلمة والأسود العنسى يقول : الآية مدنية ، لأن الأسود قتله فيروز الديلى قبل موته صلى الله عليه وسلم بيومين ، ومسيلمة قتله خالد بن الوليد ، أو وحشى ، وتقدم الكلام على ذلك .

(ومَن قَال سأنْزِل مثْل ما أنزلَ اللهُ) كالذين قالوا قد سمعنا لو شاء لقلنا مثل هذا ، وهم النظر بن الحارث ومن معه ، وقال عكرمة : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شىء » فى مسيلمة ، وقوله : « ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » فى عبد الله بن أبى سرح ، ومن معطوف على من المجرورة بمن ، ووجه ذلك أنهُ من قال لو شئت لقلت مثل هذا يتضمن أنه إذا شاء قال مثله ، ولا يمكن مثل إلا بوحى ، فكأنه قال : يوحى إلىَّ مثله ، وكذا فى ابن أبى سرح ، يعنى أنهما لم يقولا إن القرآن أنزله الله فكيف تفسير الآية بهما ، وفيها مثل ما أنزل الله ، ويجاب بأن المراد سأنزل مثل ما تقول إنه أنزله الله ، ويدخل فى الآية من نزلت فى شأن (ولو ترى) يا محمد أو بأن تمكن الرؤية منه .

(إذ الظَّالمون فى غَمَرات الموتِ) مفعول ترى محذوف تقديره ولو ترى الظالمين إذ هم فى غمرات الموت ، ولما حذف أتى بالظاهر فى موضع هم ، فإذا يتعلق بترى ، وكون أن يقدر مفعول يتعلق به ، إذ أى

ولو ترى الواقع إذ الظالمون ، وجواب لو محذوف يقــدر بعد قولــه : « تستكبرون » أى لرأيت أمراً عظيماً ، وفى غمرات الموت خبر الظالمون ، والجملة مضاف إليها ، إذ والظالمون الذين ظلموا أنفسهم بالشرك لقوله تعالى : « ولقد جئتمونا فُرادَى » رداً على إنكار البعث ، ولقوله تعالى : « وما نرى معكم شفعاءكم » وغمرة الموت شدته الغــالبة التى تغشى المختصر من جهاته ، استعارة من غمرة المــوت إذا أغرقه ، وذلك عــلى عمومه ، وقيل : المراد بالظالمين المشركون المعهودون وهم اليهود ومن ادعى النبوة ، ويدخل غيرهم بالإلحاق والمعنى .

(والملائِكةُ) ملائكة الموت (باسطُو أيدِيهِم) لعصر أرواحهم من أعماق أبدانهم بسط المديان المعين الملح على من له عليــه الحق ، يقول له : لا أبرح من الشمس إلى الظل حتى تقضى حقى ، ولو كــان فيه ذهاب بصرك أو روحك ، أو فت كبــدك ، وقيل : باســطو أيديهم بالعذاب ، يضربون وجوههم وأدبارهم ، وبهذا قال ابن عباس ، والجملة حال من المستتر فى ترى ، أو فى قوله : « فى غمرات » وباسطو اسم فاعل جمع جمع المذكر السالم ونونه حذفت للإضافة ، وكتابة ألفه بعد الواو مخصوص بالمصحف ، لأنها واو فى الاسم ، وبسط اليد كناية عــن الطلب والتناول بها أو البطش ، لأنهُ من لم يقصد ذلك لا يمدهــا إلى غــيره إلا لأمر مَّا .

(أخْرِجُوا أنفُسَكم) مفعول لقول محذوف ، وذلك القول خبر ثانٍ أو حال من المستكن فى باسطو ، أى باسطو أيديهم قائلون أخرجوا أنفسكم ، أو باســطو أيديهم قائلين أخرجوا أنفسكم ، وهــذا الأمر للإهانة لا ليتمثلوه ، لأنه لا طاقة لهم على إخراج أنفسهم ، وأنفسهم أرواحهم ، لا يقدر الإنسان أن يخرج روح نفسه ، بل إهانة وتعنيف

وتغليظ ، فإن مخرجها هو الله جل وعلا ، وهو الرحمن الرحيم بالمؤمنين ، والمسبب فى خروجها ملك الموت وأعوانه .

وقيل المعنى : أخرجوا أنفسكم من العذاب ، أى خلصوا أنفسكم منه وانجوا إن قدرتم ، أو كان ما زعمتم فى الدنيا حقاً ، وهو أيضا إهانة وتعجيز وتوبيخ على سالف أعمالهم ، والصحيح الأول الموافق لرواية أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالت : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان ، فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة ، وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، فلا تزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها آلى السماء السابعة ، وإذا كان الرجل السوء وحضرته الملائكة عند موته قالت : اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج » وتمام مثل هذه الرواية والروايات الأخرى فى كتب الحديث والفروع ، ويجوز أن يكون ذلك من كلام الملائكة لهم فى النار ، أو فى عذاب قبل ذلك ، أو فى الحشر ، لأنهم يتمنون أن يموتوا ولا يرجعون للعذاب .

(اليوم تُجْزونَ عَذابَ الهُونِ) اليوم متعلق بتجزون ، وعذاب مفعول ثان ، وأضيف للهوان لأنه يحصل الهوان بالعذاب ، لأنه إذا عذب صار مهاناً لاعزله ولا نجاة ، ولأن العذاب يحصل إذا لم يكن من أهل العزة عند الله ، والهوان الذلة ، وللغراقة فى الهوان والتمكن منه ، والمراد باليوم وقت الموت ، إذ تشتد غمرات الموت عليهم ، أو زمان الآخرة من

حين يموتون إلى الحشر ، وإلى دخول النار ، وإلى ما لا نهاية له ، فإنهم يعذبون فى ذلك كله إلا ما بين قيام الساعة والحشر ، وقال الحسن : ذلك قول الزبانية لهم فى النار بعد دخولها .

(بما كُنتم تقُولُون علَى الله غَيرَ الحقِّ) ما مصدرية أى بكونكم تقولون غير الحق على الله ، والباء سببية وغير الحق هو ادعـاء الولد والشريك لله تعالى ، ودعوى النبوة والوحى ، لأن القريب الذكر هو ذلك ، واللفظ يعم أنواع الشرك (وكنتُم عَن آياته تَستَكبرُون) عطف على كنتم تقولون إلخ ، ومعنى استكبارهم عن الآيات استحقارهم لها ، وتسفيههم إياها فيعرضوا عنها ، لا يتفكرون فيها فلم يؤمنوا .

(ولَقدْ جِئتُمونا فُرادى) كلام ليس من مقول الملائكة ، قاله الله لهم يوم ماتوا فإنهم جاءوا الآخرة منفردين عن أولادهم وأموالهم ، وأخلائهم وأعوانهم ، وأصنامهم وجاههم ، أو جئتمونا للحساب والجزاء كذلك ، على أن هذا الكلام يوم الحشر ، أو يقوله لهم يوم الموت ليـوم الحساب لتحققه بعد ، ولذا جىء بالماضى دون المضارع ، ويجوز أن يكون من كلام الملائكة ، يقولونه عن الله عند الموت أو عند الحسـاب ، فعلى أنه منهم عند الحساب يراد ملائكة العذاب ، يقول : إنـه لا ينفعكم فى الموت أو شدته أو الحساب ما ذكر ، وفرادى ممنوع من الصرف لألف التأنيث ككسالى ، والمفرد فرد على غير قياس .

وقال ابن قتيبة : جمع فردان ككسلان وكسالى ، أو قيل : جمع فريد كرديف ورداف ، وقال الفراء : جمع فريد أو فرد ، وتجمع الفردة أيضا على فرادى ، وقرىء فراداً بالتنوين والألف التى تكتب عند التنوين التى يقلب إليها التنوين ألفا فى الوقف جمع فرد بفتح كرُخال بضم الراء

جمع بكسرها وهو الأنثى من أولاد الضأن ، وهو غير مقصور ، وقرىء فراد بفتح الفاء والدال بلا ألف ولا تنوين ، منع الصرف للوصف والعدل عن فرد فرد ، وقرىء فردى بوزن كسرى بألف التأنيث وأنثوا وأفادوا بتأويل الجماعة ، وهو فى جميع القراءات حال من التاء •

(كَمَا خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ) نعت مصدر محذوف ، أى مجيئا ثابتا كخلقنا إياكم ، أو مجيئا ثابتا مثل خلقنا إياكم ، أو حال ثانية لتاء جئتمونا أى مماثلين بحـالكم حـال خلقنا إيـاكم أو مماثلة حـالكم حال ابتداء خلقكم ، وحال من المستكن فى فرادى ، أو يتعلق بجئتمونا ، أو بدل من فرادى ، ووجه الشبه فى تلك الوجوه التفرد فى الخلق الثانى عن المال والولد والأصنام ، وغير ذلك مما كان يعتد به فى الدنيا ، أو مجرد الإيجاد بعد العدم ، أى كما قدرنا على خلقكم أولا كذلك قدرنا على بعثكم ، وقيل : وجه الشبه أنهم يبعثون قلفاً كما خلقوا قلفاً ، وفيه ضعف إن أراد صاحبه تخصص ذلك فى التفسـير ، وإن أراد التمثيل ببعض أحوالهم التى يبعثون عليها وعليها خلقوا صح •

واختلفوا فى البعث هل هـو رد أجزاء تلفت ، أو خلق مسـتأنف كالأول ؟ والصحيح القول الأول ، والخلاف فى من لم تأكله الأرض إذا قلنا إنه لا يفنون عند الساعة ، ثم يرجعون فى قبورهم ، ثم يبعثون ، واختلف أيضا فيما زاد من الإنسان قبل موته من شعر وظفر وجلد ولحم ، فقيل : يرد فيه عند البعث كما هو ، وقيل مثله ، وقيل لا يرد ، وناسب التمثيل بالقلفة ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : « أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » وما روى عن عائشة : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقـول :

« يحشر الناس حفاة عراة غرلا » قالت : فقلت : الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « الأمر أشد لا يهمهم ذلك » والغرل بضم الغين المعجمة وإسكان الراء المهملة جمع أغرل وهو الأقلف .

ويجوز أن يكون معنى فرادى أعم مما ذكرناه ، حتى إنه يشمل انفراد قلب كل ويصره عن الآخر ، فلا يهتم الرجل بالنظر إلى عورة الرجل أو المرأة ، ولا المرأة تهتم بالنظر كذلك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « الأمر أشد أن يهمهم ذلك » وكما أن عائشة رضى الله عنها قرأت قول الله تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » فقالت : يا رسول الله واسوءتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعا يناظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، لا ينظر الرجل إلى النساء ، ولا النساء إلى الرجال ، اشتغل بعض عن بعض » .

(وتَرَكْتُمْ ما خوَّلناكُم) تركتم ما أعطيناكم من المال والولد والخدم والجاه والأعوان (وراء ظُهورِكُم) أى فى الدنيا ولم يحضر معكم فى الآخرة لينفعكم ، أو تركتم ما أعطيناكم فى الدنيا لتتوصلوا به إلى الآخرة فتركتموه وراء ظهوركم ، أى أعرضتم عن الانتفاع بـه للآخرة ، وشغلكم عن لآخرة ولو انتفعوا به للآخرة لكان لهم مخزوناً فى الآخرة ، وقد قدموه ولم يكونوا قد تركوه وراء ظهورهم ، قال الله تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم » الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم : « قـدم مالك أمامك يسرك اللحوق ولا ينفع شىء مع الإصرار على الذنب » .

(وَمَـا نَرَى مَعَكم شُفعَاءكم الَّذينَ زعمْتُم أنهُم فيكم شُركاء) لله فى الربوبية والعبادة (لَقَد تقطَّعَ بيْنكُم) فاعل تقطع قبل محذوف ، والفاعل لا يحذف إلا لالتقاء الساكنين أو للضرورة ، فكيف

يحذف هنا ، وإنما قدره هذا القائل لقد تقطع ما بينكم ، فما فاعل نكرة موصوفة لبيين ، وكأنه ساغ ذلك لقيام الصفة مقامه ، وإنما ساغ قيامها مقامه ، مع أن الإعراب ليس فيه ، بل نفى على نصب الظرفية ، لأنه قد يحذف الموصوف المبتدأ وتقوم صفته الظرفية والجملية مقامه بدون أن تعرب بإعرابه ، ولم يفد المحذوف موصول ، لأن الموصول لا يحذف وتبقى صلته على المشهور وصححه ابن هشام وغيره ، ويدل لذلك قراءة ابن مسعود : لقد تقطع ما بينكم ، أو الفاعل ضمير مســتتر يعود إلى المعلوم من تقطع ، لأنه إنما يتقطع الوصل ، وبذلك قال مجاهد وغيره ، وهو واضح •

وبين متعلق بمحذوف حال من المستتر ، أو يعود إلى التقطع المعلوم من تقطع ، أى تقطع التقطع ، على أن تقطع بمعنى وقع ، أى لقد وقع التقطع وإن أبقى كان الوصل ، لأن تقطع التقطع زواله فيجب الوصل ، وليس ذلك مراداً ، وذلك قراءة نافع والكسائى وعاصم من رواية حفص ، وقرأ غيرهم بينكم بالرفع وهو قراءة أبى بكر عن عاصم على الفاعلية ، فتكون بين قيد تصرفت كما جرت على الإضافة فى قوله تعالى : « فراق بينى وبينك » وقوله : « مجمع بينهما » وقوله تعالى « شهادة بينكم » ورفعه على الفاعلية توسع من إسناد الفعل إلى ظرفه ، والأصل وقع التقطيع بينكم ، وقيل : بين فى قراءة الرفع بمعنى الوصل ، على أنه من الأضداد تستعمل للوصل والفراق •

(وضلَّ عنكم ما كنتم تزْعمُون) تزعمون أنه شريك لم يحضر لينفعكم ، بل غاب ولو حضر لم ينفعكم ، أو غاب نفعه ولو حضر فهى حاضرة لا تشفع لهم فهى كالغائب ، أو ذهب اعتقادكم أنه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب •

(إنَّ الله فالقُ الحبِّ والنَّوى) أى شـاق الحبوب والنويـات اليابسات بإخراج الورق والأغصان منها ، أى يشق الحب عن النبات ، والنوى عن النخل ، قاله ابن عباس والزجاج والحسن والسدى وابن زيد ، وقال مجاهد : شاق الحب والنوى ، أى جعل فيهما الشق ، وذلك هـو ما يرى عن شق فى النواة وحب القمح والشعير والأرز ، وهذه الأقوال قول الجمهور ، وقال الضـحاك ومقاتل وابن عبـاس فى رواية العوفى قالوا : بمعنى خالق ، ونسبه الأزهرى للزجاج ، وقال الطبرى : لا يعرف فالق بمعنى خالق ، والحب والنوى واحدهما حبة ونواة ، ولا يختص النوى بنوى التمر ، بل يشمل نوى الخوخ وغيره ، والحب ما يؤكل كحبة البر ، وحبة الرمان ، وهذا زيوع إلى تقرير أمر التوحيد ودلائله ، أى أن الله يقدر على فلق الحبة والنـوى ، ولا تقدر عليه أصـنامكم ولا غيرها ، فكيف تشركون به غيره ، والمستحق للعبادة هو الذى يفلق الحب والنوى لا غيره ، وهى كـلام لهم فى الدنيا ، ودليل على صـحة البعث .

(يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الميِّت ويُخْرِجُ الميِّت مِنَ الحىِّ) فخرج ما ينمو مما لا ينمو كالحيوان من النطفة ، والشجر والنبات من الحب والنوى ، ويخرج ما لا ينمو مما ينمو كإخراج الحب والنوى والنطفة والنبـات والشـجر والحيوان ، والجملة بيان لقوله : « إن الله فالق الحب والنوى » ولذلك فصلت ولم توصل بالعطف ، ولذلك فسرت الحى بما ينمو ، والميت بمـا لا ينمو عموماً هكذا عـلى عموم المجـاز لا جمعاً بين الحقيقة والمجاز .

ولما لم يكن مخرج الميت من الحى بياناً لفلق الحب والنوى ، لأن فلق الحب إخراج للحى من الميت لا إخراج للميت من الحى ، لم يكن

بصبغة الفعل ، فعطف مخرج على فالق ، وقيل : المراد مخرج الحيوان من ميت كنطفة وبيضة ، ومخرج الميت من الحى كنطفة وبيضة من حيوان ، وبذلك قال ابن عباس والكلبى ومقاتل ، وعن ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وقيل : المطيع من العاصى ، والعاصى من المطيع ، وفى الآية ما مر فى سورة آل عمران ، وسكن الياء غير نافع والكسائى وحمزة وحفص عن عاصم فى لفظ الميت فى الموضعين .

(ذلِكمُ) أى ذلكم الفالق للحب المخرج الحى من الميت ، المخرج الميت من الحى (الله) المستحق للعبادة لا الشركاء الذين لا يقدرون على ذلكم (فأنّى تؤْفكُون) تتصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

(فالِقُ الإصْباحِ) شاق عمود الصبح عن الليل مظهر له من الظلمة ، والمفلوق هو الظلمة ، فلقها وأخرج منها الصبح ، وضمن الفلق معنى الإظهار ، فجعل الإصباح مفلوقاً أى مظهراً ، والإصباح مصدر أصبح ، سمى به الصبح ، وهو الضوء الذى يكون فى ذلك الوقت ، أو شاق الصبح عن بياض النهار ، أو بياضه هو أول ما يبدو من الفجر ، فيشق عنه الصبح وهو بياض أعظم ، ويشق الصبح عن الإسفار وهو أعظم والصبح ، فالمفلوق هنا على ظاهر وهو الإصباح بمعنى الصبح ، فإنه يشقه ويخرج عنه ضوء أعظم ، وإن قلت : كيف يكون ذلك فى الوجهين شقاً وإنما هو إحداث لضوء بجانب ظلمة ، أو ضوء بجانب دونه ؟

قلت : بل شق فى الوسط لا إحداث لضوء بجانب ، لأن البحر المظلم لا تضيئه الشمس كله بل بعضه ، فإذا لم تكن الشمس بحيث يظهر ضوءها فى طرف الباء والمحيط كله من جانب مطلع الفجر مظلم ، فإذا

طالع الفجر فقد شقت الظلمة ، فبقى بعضها إلى ما توغل من المحيط ، وهو ما لا يصله ضوءها ، كما أنها إذا غربت انقطع المحيط الغربى ، بل من فوق وسطه ، فبعضه مضىء ، وبعضه المتوغل فى الغرب لا ضوء فيه أبداً ، وكذلك يكون الفلق على أصله ، إذا قلنا معنى فالق ، فالق الفجر الكاذب وهو الصبح الكاذب ، فإن الله يفلقه ويخرج منه الصادق ، وكذا إذا قدرنا مضافاً فقلنا : فالق ظلمة الإصباح ، أى الظلمة الصحيحة ، فإن الظلمة هى المفلوقة ، فيخرج الصبح منها .

وقيل : فالق بمعنى خالق ، وفالق خبر ثان لإن ، أو خبر لمحذوف ، أى هو فالق الإصباح ، أو خبر ثان لاسم الإشارة ، وقرىء فالق الإصباح بنصب فالق على المدح ، وجاعل الليل أيضا بالنصب عطفا وقرأ النخعى : فلق الإصباح وجعل الليل بلفظ الفعل فيهما ، ونصب ما بعد الفعل به ، وقرىء الأصباح بفتح همزة إصباح وهو جمع صبح .

(وجَعَلَ اللَّيل سَكناً) السكن ما يسكن إليه الإنسان مثلا ويناسبه للنوم والراحة ، ويأنس به ، وكذا الحيوان ، قال ابن عباس : كل ذى روح يسكن فى الليل ، قال الله تعالى : « جعل منها زوجها ليسكن إليها » ويجوز أن يكون من السكون ، لأن الحيوان ليسكن فيه عن الحركة ، قال الله تعالى : « لتسكنوا فيه » وكلام ابن عباس قابل للوجهين ، ولكن ذكرته أولا تصديقاً لقولى للنوم والراحة ، وذلك أن الحيوان لابد له من تعب ما ، ولو انطرح على الأرض لا ينثنى ، لان نظر العين ، وسمع الأذن وتكلم اللسان ، وفكر القلب أعمال أيضا .

وعلى كل حال فسكناً فعل بمعنى مفعول أى مسكوناً إليه ، أو مسكوناً فيه ، والأظهر أنه لم يرد أنه جعل الليل فيما مضى سكناً ، بل

أراد أنه مازال ولن يزال يجعله سكنا فجاعل اسم فاعل للحال ، فهو مضاف لمفعوله الأول ، وسكناً المفعول الثانى ، فهو باعتبار حاله واستقباله ، فهذا أولى من أن يقال : إن الآية دليل للكسائى على جواز نصب المفعول بوصف الماضى ، ولو لم يكن صلة لأل على أن يكون جاعل بمعنى هـو الذى رأيتم أنه جعل الليل سكناً فيما مضى من أعماركم ، وسمعتم عمن قبلكم وأولى ن أن يقال سكنا مفعول لجعل محذوفا ، أى جعل الليل سكناً كما قرأ الكسائى نفسه وحمزة وغيرهما من الكوفيين ، وجعل الليل سكناً للفظ الفعل عطفا على فالق ، لأنه بمعنى فلق ، ولو أجاز الكسائى عمل الوصف الماضوى ، وقيل : لا يعمل الوصف المستمر ، لأن فيه ظرفاً من الماضى ، وفى تقدير الفعل إشكال لأنه لابد أيضا أن يقدر لجاعل ما يتم به معناه .

(والشَّمسَ والقَمَرَ حُسْباناً) عطف على معمولى عامل واحد ، فالشمس معطوف على محل الليل ، وحسباناً على سكناً ، ويدل لهذا قراءة من قرأ بجر الشمس والقمر عطفاً على لفظ الليل ، فيكون حسباناً أيضا معطوفاً على سكناً ، وهى قراءة أبى حيوة وقيل : فى النصب إنهما منصوبان بفعل محذوف ، أى وجعل الشمس والقمر حسباناً ، كما يدل له قراءة الكسائى ، وجعل الليل سكناً بالفعل ، وليس ما هنا من العطف عـلى معمولى عاملين مختلفين جراً عطفاً على لفظ الليل ، أو نصباً عطفاً على محله ، لأن العامل على كل حال هو لفظ جاعل ، فعلى اعتبار استقباله وماليته يكون محل الليل نصباً ، وعلى اعتبار ماضويته يكون لا محل نصب له خلافاً المجيز عمل اسم الفاعل الماضوى ، وقرىء بالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف ناصـب لحسباناً ، أى والشـمس والقمر محسوبان حسباناً .

وعلى كل فى حال يقدر مضاف حسباناً أى ذوى حسبان ، أو التى حسبان إذ كان على أدوار تحسب بها الأوقات كتقطيع الشمس الفلك فى سنة إذ تزيد على العام العربى أحد عشر يوماً ، ويقطعه القمر فى ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين ، فيكون ذلك الشمس ، والشهور العربية مذكورة فى القرآن كحساب أجل الديون ، ومواقيت الأشياء ، فيكون ذكر الشمس فى الحساب ذكراً للشهور العجمية للحساب ، فالحساب بالسنة الشمسية يكون متضمنا للحساب بالشهور العجمية ، ولكن السنة العربية والشهور العربية أفصح فى ذلك ، لقوله تعالى : « قـل هى مواقيت للناس » وهى أفضل لأن أمور الدين عليها كالزكاة والحج ورمضـان ، وبالفصول تختلف الأحوال من برد وحرارة وتوسط وغير ذلك ، فيتعلق بذلك نضج الثمار ، وأمر الحرث والنسل ونحو ذلك ، فالحسبان حساب الآجال ومواقيت الأشياء الشمس والقمر ، أو حساب مسيرهما لا يزيدان عليه يوماً أو أقل أو أكثر ، فلا يجاوزان منتهاهما إلى جهة منتهى طول الأيام ، أو منتهى قصرها ، والحسبان مصدر حسب ، وقيل جمع حساب كشهاب وشهبان ، وقال مجاهد الحسبان حسبان الرحى والدولاب وهو العود أو الحديد الذى يدوران عليه لعله شبه القطب بذلك العود أو الحديد ، أعنى شبه قطب اسماء بقطب الرحى أو الدولاب .

(ذلك) أى جعلهما حسـباناً (تَقْديرُ العَزيزِ) الغالب لهمـا القاهر لهما على السير المخصوص (العَليمِ) بالتدبير النافع بهما ، وهو التدوير المعتاد لهما .

(وهُوَ الَّذى جَعَلَ لكُمُ النُّجومَ) أى خلقها لكم (لتهْتَدُوا بها فى ظُلُماتِ البرِّ والبَحْرِ) فى ظلمات الليل فى البر والبحر ، وأضافها لهما لأنها نفع فيهما ، أو أراد بالظلمات مشتبهات الطرق شبه اشتباهها

بالظلمات لجامع عدم الاهتداء فى كل ، وإنما تعلق اللامان بفعل واحد بلا تبعية لاختلاف معناهما ، لأن الأولى للتعدية ، والثانية للتعليل ، وإن جعلناهما معاً للتعليل جعلنا لتهتدوا بدل اشتمال من قوله : لكم ، أى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها إلى المواضع التى قصدتم ، وإلى جهة القبلة فى الصلاة ، والخطاب للمشركين يذكر لهم نعمه وقدرته ليؤمنوا ، أو لهم وللمؤمنين ، وذلك إفراد لبعض منافعها ، ومنها زينة السماء ، ومنها رجم الشياطين ببعضها فيما قيل ، وباقتباس الشهب منها للرجم فيما قيل على القول بأن النجوم والشمس والقمر من تحت السماء الدنيا .

(قَدْ فصَّلنا الآيات لقومٍ يعْلَمونَ) قد بينا الآيات الدالات على قدرتنا ووحدانيتنا ، فصلا فصلا لقوم من شأنهم أن يعلموا الحق لتدبرهم ، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بالوعظ ، وأما غيرهم فيمر وهو معرض ، أو يزيد بها ضلالا ، كمن ينسب الأفعال للنجوم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخاف على أمتى حيف الأئمة والتكذيب بالقدر والتصديق بالنجوم » فالمراد بالإمساك عن النجوم فى حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا كرت النجوم فأمسكوا » الإمساك عن التصديق ، والمراد القدر الإمساك عن نفيه أو إثباته لغير الله لوجوب الإيمان به لله فى أحاديث .

(وهُوَ الَّذى أنْشأكُم من نفَسْ واحِدةٍ) ابتدأ خلقكم من نفس واحدة هى آدم ، لأن أمنا حواء منه أيضا ، فصح أن يقال من نفس واحدة ، لأنا وإياها كلنا منه ، فما كان منها فهو أيضا منه ، هذا ما ظهر لى ، ولا يشكل عيسى لأنه من مريم ، وهى من أب وأم إلى آدم ، وهذا أيضا دليل لقدرة الله تعالى ووحدانيته (فمسْتقرٌ ومسْتَودعٌ)

اسما مكان أى موضع استقرار ، وموضع استقرار ، أو مصدران ميميان أى لكم استقرار أو استيداع ، والوجهان فى الأقوال الآتية كلها ، وهو حينئذ محذوف الخبر ، أى فلكم مستقر ومستودع ، فالمستقر صلب الأب أو الاستقرار فيه ، والمستودع رحم الأم أو الاستيداع فيه ، وذلك أن الاسقرار أعظم ثباتاً من الاستيداع ، لأن الاستيداع معرض للانتقال ، فكان المستقر أولى بالصلب ، كذلك روى عن ابن عباس ، وذلك أن النطفة أسبق فى صلب الأب وأبقى فيه زماناً أطول من بقائها فى الرحم ، إذا خرجت من الأب إلى الرحم ، أعنى المادة التى تستحيل نطفة ، وهذا مشكل ، لأن للأم أيضاً نطفة سبقتها ، لأنها فى صدرها •

والجواب أن المعتبر ماء الرجل لأنه أعظم وأكثر ، ووجهه بعض بأن النطفة حصلت فى صلب الأب لا من قبل غيره ، ثم فى رحم الأم من جهة الأب ، فهى فيها وديعة ، وعن ابن عباس المستقر رحم الأم ، والمستودع الصلب ، وقرىء : « ونقر فى الأرحام ما نشاء » لأن النطفة لم تبق فى الأب نطفة إلا زماناً قليلا بعد كونها نطفة ، وتبقى فى رحم الأم أربعين يوما ، وتبقى مستحيلة أطواراً وجنينا مدة طويلة ، وهذه الرواية عن ابن عباس هى المشهورة •

قال سعيد بن جبير : قال لى ابن عباس رضى الله عنهما : هل تزوجت ؟ قلت : لا ، قال : أما أنه كان مستودعا فى ظهرك فسيخرجه الله تعالى ، وهذا قول الجمهور ، قالوا : مستقر فى الرحم ، مستودع فى ظهور الآباء حتى يقضى الله بخروجه ، قال ابن عون : مشيت إلى منزل إبراهيم النخعى وهو مريض ، فقالوا : قد توفى فأخبرنى بعضهم أن عبد الرحمن بن الأسود سأله عن مستقر ومستودع فقال : مستقر

فى الرحم ومستودع فى الصلب ، وكان ابن عباس يقرأ فمستقر الرحم ، ومستودع الصلب .

وعن ابن مسعود : المستقر الرحم والمستودع القبر إلى يوم يبعث ، وقال الحسن : المسقر ظهر الأرض فى حياته ، والمستودع القبر بعد موته إلى البعث ، قال الله جل وعلا : « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » وبه قال مجاهد ، وروى عن الحسن عكس هذا ، وأنه كان يقول يا ابن آدم أنت مستودع فى أهلك إلى أن تلحق بأهلك يعنى القبر ، وقال ابن عطية : كل من الصلب والرحم والدنيا والقبر والمحشر مستودع ، لأنه ينتقل من كل للآخر وكلا أيضا مستقر بالنسبة إلى ما قبله ، مستودع بالنسبة لما بعده ، والجنة أو النار مستقر على الإطلاق ، لأنه لا انتقال منهما ، وكأنه يرى الخلود فى النار كالجنة ، وقيل : المستقر الجنة أو النار ، والمستودع القبر ، وتشكل الفاء بتفسير ما يليها فى بعض هذه الأقوال بالمعنى الذى يتأخر وجوده عن معنى لفظ المستودع ، لما مرّ من أن المتعاطفات بغير الفاء وثم بعد المعطوف بالفاء لا ترتيب بينها وبين ما عطف قبلها بالفاء ، بل ترتيب بينهما بعد الفاء كله وما قبلها .

وأما لو قلت : قام زيد فبكر وعمرو فالترتيب بينهما وبين زيد فقط ، فكلاهما بعد زيد ، وأما هما فيحتمل أن بكراً قام قبل عمرو ، وأن عمراً قام قبل بكر ، هذا ما ظهر لى عند التحقيق ، ورأيت فى بعض الكتب غير هذا ، وهو إنما يلى الفاء مقدم على ما بعدها ، ولا ترتيب بين ما بعدها إذ لم يعطف بحرف مرتب لى قرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب : مستقر ومستودع بكسر القاف ، فيكون اسم فاعل ، ومستودع على هذا اسم فاعل ، أى فمنكم إنسان مستقر ، ومنكم إنسان مستودع ، والاستقرار والاستيداع محلهما على الخلاف السابق ، ولا يجوز أن

يكون مستقر بفتح القاف اسم مفعول ، لأنه لازم لا مفعول له ينوب عن الفاعل ، ولا ظرف أو مجرور أو مصدر ينوب ، اللهم إلا أن يقال : الأصل مستقر به فيه ، أو الهاء نائب فحذف الجار واتصل الضمير به واستتر نائبا على الحذف والإيصال ، فيكون كقولك زيد ممرور به ، فحينئذ يجوز أن يكونا اسمى مفعول أى منكم إنسان مستقر بـه ، ومنكم إنسان مستودع .

(قَدْ فصَّلنا الآيات لقومٍ يفْقَهون) قال : هنالك يعلمون ، وهنا يفقهون ، لأن العلم يقوم بما يدقق فيه النظر وما يظهر ، والفقه مختص بما يخفى ويدق فيه النظر كما سمى علم الشرع فقها ، لأنه بدلائل دقيقة ، وأمر النجوم ظاهراً وبعضه يخفى فذكر فيه يعلمون لصلوحه لذلك ، وأنشأ الناس من نفس واحدة مع كثرتهم وكثرة أحوال نشأتهم وتصرفاتها غامض فذكر فيه يفقهون .

(وهُو الَّذى أنزلَ منَ السَّماء ماءً فأخْرجْنا بهِ نَبَاتَ كلِّ شىءٍ) السماء السحاب ، لأن كل ما كان فوقك منفصلا عنك فهو سماء كسقف وأعلى الخيمة والمظلة التى لم تلتصق برأسك ، أو هى السماء الدنيا ، قال الجبائى من المعتزلة : يخلق الله الماء فى السماء ثم يرسله إلى السحاب ، وحمل السماء على المتبادر هو المتعين عنده لعدم دليل على التأويل ، وقيل : المراد بالسماء جهة السماء ، والله قادر أن ينزل الماء من السماء مسيرة عشرين سنة فى ساعة أو لحظة ، ولكن المتبادر السحاب أو جهة السماء ، وجاء أخرجنا على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم والنبات الأغصان والأوراق الخشب والأعواد ، وكل شىء بمعنى كل شىء من الثمار التى خلقها الله ، فنبات التمر الجذع والجريدة ، ونبات الشعير

ساقه وأوراقه ، ونبات التين أوراقها وأعوادها ونبات القرع غصنه المنبطح على الأرض وورقه •

وقيل : كل شيء هو النبات أيضا لكنه أخص باعتبار أفراده ، فيكون نبات أعم ، وإضافته إضافة عام لخاص ، لأنه بمنزلة نبات النخل وشجر العنب وشجر التين وهكذا ، والمعنى أخرجنا نبات كل شيء مما اعتيد أنه ينبت سواء حملنا كل شيء على الثمار أو على الغصن والورق ، ودخل فى ذلك الكمأة ، وخرج ما لا يكون له نبات ، والآية دليل القدرة ، إذ قدر على إخراج أنواع مختلفة بماء واحد ، وذلك اختلاف فى الغصن والورق كما يذكر الاختلاف فى الثمار ، إذ قال : « تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » وقيل : النبات الغذاء الذى ينبت به الجسم وهو الثمار ، وكل شيء هو الحيوان الذى يأكل نبات الأرض وثماره ، والهاء عائدة إلى الماء •

وأما الهاء فى قوله : (فأخْرجْنا منْه خَضِراً) فللماء أيضا أو للنبات ، والخضر الشيء الأخضر ، والمراد الأغصان والورق الخارجة من أبزارها ، وقيل : المراد بالخضر ما حسن منظره بلا اعتبار لون الخضرة (نُخْرِج منهُ حبًّا مُتراكباً) وقرأ الأعمش وابن محيصن : يخرج منه حب متراكب بالبناء للمفعول ، ورفع حب متراكب وعلى القراءتين : الجملة نعت خضراً ، وهاء منه عائدة إليه ، ومعنى متراكباً ، متراكباً بعضه على بعض كما ترى السنبلة والرمانة حبة على حبة ، وقدم الحب على التمر لأنه قوت مألوف فى كل بلد يغنى عن التمر عالياً ، وحاجة الناس إليه أكثر ، والتمر كالفاكهة ، وإنما يكتفى بها أهل الشدة ، وربما اكتفى به أعراب الحجاز •

(ومِنَ النَّخْل مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيةٌ) الواو عاطفة

لأخرجنا محذوفاً يتعلق به ، من النخل ناصباً لمحذوف ، والمحذوف منعوت بقوله : « من طلعها قنوان » أى وأخرجنا من النخل نخلا منطلعها قنوان ، ومعنى إخراج النخل من النخل إخراج نخل تكون من نوع النخل ، أو إخراج نخلة من أصل نخلة ، أى من جذعها ، فتكون هذه ذات قنوان دانية ، فما حال أصلها ، والمعطوف عليه أخرجنا الأول ، وإن شئت فقل ذلك من العطف على معمولى عامل واحد ، ويجوز أن يكون من النخل خبراً مقدماً ، ومن طلعها بدل بعض ، وقنوان مبتدأ موجز ، فتعطف الجملة الاسمية على الفعلية ، ويجوز تعليق من النخل يكون خاص ، أى ومخرجة من النخل ، من طلعها قنوان ، والطلع الكفرى ، والقنوان جمع قنور وهو العذق أعنى الشماريخ مع ثمارها ، وقرىء بضم القاف جمعاً أيضا كذيب وذوبان ، وقرىء بفتحها على أنه اسم جمع ، لأن فعلان بفتح الفاء لا يكون جمعاً ، ودانية قريبة للتناول لقربها من الأرض لصغر النخل ، فيتناول المضطجع والقاعد والقائم .

وخص ما كان هكذا بالذكر ، لأن النعمة فيه أعظم ، ولدلالتها على الجبار وهى التى فاتت اليد إلا بطلوع فالتقدير فى هذا دانية وغير دانية ، وهو قول ابن عباس ، أو قال الحسن : دانية قريب بعضها من بعض ، بأن تطلع قنواناً كثيرة متجاورة ، وقيل : متدلية ، ولو كانت فى الجبار وبه قال مجاهد ، وخص المتدلية والكثيرة فى القولين لعظم النعمة ، ولدلالتها على غيرها كذلك ، والمتدلية أشهى إلى النفس .

(وجنَّاتٍ مِنْ أعْنابٍ) عطف على نبات خاص على عام لمزيته ، ومن أعناب نعت جنات ، والمراد بالأعناب شجر العنب ، وقرىء بالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف ، أى ولكم جنات ، أو ثم جنات ، أى مع النجل أو من الكرم جنات ، ولا يجوز عطفه على قنوان ، لأن جنات

الأعناب لا تكون من طلع النخل ، ولعل صاحب الكشاف أراد بعطفه على قنوان عطف جملة على شبهها ، هكذا ، ومن النخل من طلعها قنوان ومن الكرم جنات من أعناب .

(والزَّيتُون والرمَّانَ) لم يقرأهما أحد بالرفع ، بل بالنصب عطفاً على نبات ، سواء نصبت جنات أو رفعت ، ويجوز نصبهما على الاختصاص إذا رفعت جنات ، وكذا يجوز نصب الثلاثة على الاختصاص ، وذلك لشرفهن ، ويجوز عطف جنات على خضر ويرجح القرب ، ولأن الإخراج الجنات بعد إخراج النبات ، كما أن إخراج الخضر بعده ، ويجوز أن يعطف الزيتون والرمان على حباً ويقويه ، قيل : إن الحب هو نفس ما أخرج بالأكل ، وكذلك الزيتون والرمان ، وليس كذلك ، بل المتبادر أن يراد بهما شجر الزيتون والرمان ، وإنما قدم النخلة لأنها قد تكون غذاء ، وفيها من المنافع والخواص ما ليس فى غيرها ، وقدم العنب لأنه أشرف الفواكه ثم الزيتون ، لأنه يؤكل فى الطعام ويدهن به ويسرح به وهو مبارك .

(مُشْتبهاً وغير مُتشابهٍ) ردهما قتادة إلى الزيتون والرمان ، أى مشتبهاً ورقها مختلفا ثمرها ، لأن ورقهما مشتبهاً وحب الرمان ليس كحب الزيتون لوناً ولا طعما ، ولا مقداراً ولا هيئة ، فمتشابها حال من الرمان ، أى مشتبهاً بالزيتون ، أو غير متشابه ، ويجوز أن يكون حال من خضرا وحبا ، وحبات والزيتون والرمان ، وأفرد لتأويل ما ذكر أى مشتبها ما ذكر بعضه ببعض ، وغير متشابه ، ووجه الشبه عام أى مشتبهاً لوناً وطعماً ومقداراً وهيئة ورائحة ، أو فى عدم الرائحة أو فى بعض ذلك أو فى الورق ، وبعض ذلك أو فى الورق وحده ، أو حال من نبات أو نعته ، ومشتبهاً بمعنى متشابه وخولف تغليباً فى اللفظ .

(انْظُرُوا إلى ثَمره إذا أثْمر ويَنْعِهِ) انظروا نظر اعتبار إلى ثمر ما ذكر من شجر الزيتون وشجر الرمان والنخل والمخضر ، وهذا مما يدل أن الزيتون والرمان مراد بهما الشجر لا الثمار ، فالهاء عائدة إلى ما ذكر ، ومعنى أثمر أخرج ثماره وقرأ حمزة والكسائى بضم الثاء والميم فى قوله : « إلى ثمره » جمع ثمرة بفتحتين كخشبة وخشب ، أو جمع ثمار ككتاب وكتب ، فهو جمع جمع ، وأما كتاب وكتب فمرد وجمعه ، وقرأ أبو عمرو بضم وإسكان تخفيفا ، اعتبروا كيف يخرج ذلك كله رقيقا لا نفع فيه ، ثم يصير إلى حال مرغوب فيها نافعا غليظاً لذيذاً وهو حال ينعه ، والينع النضج ، أو نفس الثمر النضيج ، وهو مصدر باق ، أو بمعنى الثمر المدرك ، ودل له قراءة ابن محيصن يانعه ، وقيل ينعه جمع يانع كتاجر وتجر ، وقرىء ويُنعه بضم الياء وهو لغة بعض نجد .

(إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون) دلائل على وجود الله جل وعلا ، وكمال قدرته ووحدانيته ، وصحة البعث إذ أخرج هؤلاء الثمار من أعواد وخشب مع اختلافها واختلاف أحوالها ، وتنقلها من حال لأخرى بحسب ما هو لحكمة ولا معارض له ، ينقض ما قضى وخص المؤمنين بالذكر ، لأنهم المنتفعون بالوعظ ، ووبخ الكفار على شركهم مع تلك الأدلة كما قال بعضهم :

تجلت لوحدانية الحق ثمار
فدلت على أن الجحود هو العار

فقال : (وجَعَلوا لِلهِ شُركاء الجنّ) لله متعلق بجعلوا ، أو حال من شركاء على زعمهم لعنهم الله ، وشركاء مفعول ثان ، والجن مفعول

أول ، أى جعلوا الجن شركاء لله فعبدوها ، ولا يصح تعليق اللام بشركاء إلا معنى مشاركين ، ومعنى لام التقوية المختلف فى تعليقها ، ويجوز كما قيل أن يكون لله مفعولا ثانيا وشركاء مفعولا أول ، والجن بدلا من المفعول الأول ، ويرده أنه لا يصح أن يقال : جعلوا لله الجن شركاء ، والجن أولاد إبليس المؤمنين والكافرين ، لأنهم يعبدونهم بحسب ما يتخيل لهم من المنافع ، والمؤمنون من الجن يكرهون أن يعبدهم المشركون ، وقيل : المراد الشياطين ، وهم كفار الجن يوسوسون للمشركين فيعبدونهم .

ومعنى جعلهم الجن شركاء أن الجن أمروهم بعبادة الأصنام فعبدوها ، ومن أطاع أحداً فى الإشراك فقد جعله شريكا ، وهذا قول الزجاج ، فقبول أمرهم فى الإشراك كعبادتهم ، وجعلهم شركاء لله ، ودخل فى الآية عبادة النار والكواكب ، وقول : عزير ابن الله ، وقول : المسيح ابن الله ، وأنها مدبرة أمر هذا العالم ، وقول : إن الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك ونحو ذلك من أنواع الكفر ، فإن الشياطين آمرون بذلك كله ، فمتبعهم قد جعلهم شركاء ، وقيل : الجن فى الآية الملائكة لاستتارهم ، وكانت العرب تعبدهم ، وفى تسميتهم جناً احتقار لهم عن الألوهية .

وعن ابن عباس ، وابن السائب ، والكلبى : أن الآية فى المجوس القائلين بأن إبليس خالق الشر كالعقرب والحيات والحرب والقتل ويسمونه هزمن وهرمن ، وبعض يسمونه ظلمة ، واختلفوا لعنهم الله فى قدمه وحدوثه ، وخالق غير ذلك هو الله تعالى عن الشريك ، ولإبليس لعنه الله أعوان من جنسه يعملون أعماله ، فكانوا جملة شركاء عندهم ، وقرىء نرفع الجن على أنه خبر لمحذوف ، أى هم الجن ، وبالجر على إضافة شركاء إليه إضافة بيان ، أى هم الجن أو تبعيض ، ولا يلزم

من كونها للبيان أن يكونوا يعبدونهم كلهم ، مع أنه يحتمل أنهم يعبدون الجن مطلقاً .

(وخلقهم) أى والحال أن الله خلق الجن ، فكيف يكونون شركاء له تعالى ، أو والحال أن الله خلق المشركين الجاعلين ، فكيف يعبدون من لم يخلقهم ويسمونه إلهاً ، فالواو للحال ، وصاحب الحال واو جعلوا ، أو لفظ الجلالة أو الجن ، وقيل يقدر قد ، أو المبتدأ بعد واو الحال الداخلة على ماض متصرف مثبت ، أى وقد خلقهم ، أو هو خق ، أو الهاء فى خلقهم للجن أو للمشركين الجاعلين ، وفى قراءة ابن مسعود ومصحفه : وهو خلقهم ، وقرىء خلقهم بإسكان اللام ، إذ جعلوا لله شركاء الجن ، واختلاقهم للإفك ، أى نسبوا لله تعالى قبائحهم التى افتروها ، إذ قالوا الله أمرنا بها ، وعطفه فى هذه القراءة على شركاء على أن المفعول الثانى هو لله ، ولا يصح عطفه على شركاء ولا على الجن إذا جعلنا شركاء مفعولا ثانيا ، والجن مفعولا أول ، لأن افتراءهم لا يكون جنا ، ولا يكون شريكاً ، فإنك إذا قلت : جعلوا الجن شركاء وافتراء فقد جعلت الجن افتراء ، وإذا قلت جعلوا الجن والافتراء شركاء فقد جعلت الافتراء شريكا .

ويجوز أن يكون خلقهم فى هذه القراءة بمعنى مخلوقاتهم وهى الأصنام التى تخلق باليد ، أى تقدر بالقياس والنجر والنحت ، أو يكذبون بها فى الألوهية فيعطف على الجن أى جعلوا الجن والأصنام شركاء ، وقدر لفظ الجلالة إعظاماً لله جل جلاله ، بحيث إن من فهم معناه وأحضره غاب عنه سواه فكيف يعبد سواه ثم شركاء لأن المراد التقبيح عليهم بالشرك ، وقدم الجن على الأصنام لأن الجن هى الآمرة لهم بعبادة الأصنام .

(وخَرَقُوا له بَنِينَ وبناتٍ بغَيْرِ علمٍ) عطف على جعلوا لله شركاء الجن ، فالتخريق تشبه الشيء لآخر على جهة الكذب ، والتشديد للمبالغة ، وقرأ غير نافع بالتخفيف ، قال الحسن والفراء : وكان العرب إذا كذب الرجل قالوا اخترقها وخرقها ، أى كذب فى هذه الكلمة ، أو من خرق الثوب إذ شقه أى اشتقوا له بنين وبنات ، وقرأ ابن عباس وابن عمر : وحرقوا بالحاء المهملة وتخفيف الراء ، أى زوروا له بنين وبنات ، وذلك أن العرب قالوا : الملائكة بنات الله ، واليهود قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، والاثنان جمع مجازاً أو حقيقة ، بل قال فى اليهود : « نحن أبناء لله وأحباؤه » فسموا أنفسهم أبناء الله ، بل قيل : إن طائفة من اليهود والنصارى زعموا أن الله أبناء ، وذلك كله كذب وزور وجهل ، كما قال بغير علم أى بغير علم أتاه من الله بذلك وبلا دليل ولا فكر وبغير حال من الواو ، أو نعت لمصدر أى خرقوا له تخريقاً ثابتاً بغير علم ، أو متعلق بخرقوا .

(سُبحانهُ وتَعالى عمَّا يَصفُون) ما مصدرية أى سبحانه عن وصفهم الكاذب وتعالى عنه ، أو سبحانه عنه وتعالى عن وصفهم الكاذب ، تنازع سبحان وتعالى فيما بعده ، ويجوز كونها موصولا اسميا حذف الرابط للعلم به ، ولو لم يوجد شرطه أى عما يصفونه به ، فحذف هاء به مع أن الموصول لم يجر بالباء ، ولا تعلق بمثل يصف ، فذلك قيل محفوظ ، وقيل مقيس لدليل وصفهم هو وصفهم إياها بالشرك والولد والموصوف هو به الولد والشريك .

(بَديعُ السَّموات والأرْض) خبر لمحذوف أى هو بديع ، وبديع صفة مشبهة مضافة لفاعلها كقولك : زيد غريب الصنع ، وحسن الوجه ، وكريم الفعل ، وأن بمعنى الضمير ، أى بديع سمواته وأرضه ، أو يقدر

الضمير ، أى بديع السموات والأرض لــه ، أى حال كونهن لــه ، أو الإضافة الظرفية تعالى الله عن أن يكون مظروفاً ، بل أحدث فيهن ما هو غريب ، ليس إحداثه على قياس لشىء ، أو بديع بمعنى مبدع ، والإضافة لمفعوله ، ومن أجاز الإخبار بالإنشاء أجاز أن يكون بديع مبتدأ خبره هو قوله تعالى :

(أنَّى يكونُ له ولدٌ) أنى بمعنى كيفَ حالٌ من ولد ولو نكرة ، لتقدم الحال عليها ، ولو وجب تقديمها لصدارتها ، أو مفعول مطلق ، أى كونا يكون له ولد ، أو هو بمعنى من أين فيتعلق بيكون ، وله متعلق بيكون ، ولا خبر له ، وولد فاعل يكون أوله خبر ، وولد اسمه أو أنى خبره ، ولد اسمه وإذا لم تجعل لفظ له خبراً صح كونه حالا من ولد •

(ولَم يكُن لهُ صاحِبةٌ) زوجة نفى الولادة عن نفسه من وجه الأول ، قوله : « بديع السموات والأرض » فإن من أبدع الســموات والأرض مع عظمهما لا يحتاج إلى ولد ولا إلى شىء ، أما كيف يحتاج إلى خلقه ، ولا يكون من جنس ما يتوالد فالثانى نفى آلة الولادة وهى الزوجة ، ولا زوجة له ، لأن الزوجة من جنس الزوج ، تعالى الله عن المجانسة •

الثالث قوله : (وخَلَقَ كل شىء) لأن الخالق لكل شىء لا يحتاج لولد ، ثم بعد ما ذكرت ذلك رأيت الزمخشرى ذكر هذه الأوجه ، والعطف فى الأول أن الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكــون جسماً ، وهذه الجملة مستأنفة ، وقرىء ولم يكن له صاحبة بالتحتية ، ولو كان مرفوعه مؤنثا حقيقيا للفصل ، بل له مثل : أتى القاضى بيت الواقف ، أو لأن مرفوع يكن ضمير الشأن ولهُ خبر مقدم ، وصاحبه مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر يكن ، أو لأن فيه ضمير الله جل وعلا ، وجملة

له صاحبة خبره منفية بلم الداخل على يكن ، وكذا الوجه قبله ، والمتكلم هنا لا يدخل فى عموم كلامه قطعا ، لأن الخالق سابق على الخلق ، فكيف يخلق نفسه وهو معدوم ، فلا يدخل الله هنا فى عموم قوله : « خلق كل شىء » ودخل فى عموم قوله :

(وهو بكل شىء عليم) لأنك تقول علم الله نفسه سبحانه وتعالى ، إلا أنه لا يتبادر أن يريد هنا نفسه ، قال أبو يحيى زكريا بن أبى بكر رحمه الله : رب وخالق يستضىء بهما ضوء الشريعة ، فلما جاء الشريعة حرمهما على خلقه يفنى فلا يقال إلا أنه رب للتنكير بلا إضافة ، ولا بأل ولا خالق ولو بمعنى .

(ذلكمُ اللهُ ربكُم) ذلكم الموصوف بالصفات العظام : كخلق السموات والأرض ، وخلق كل شىء ، وعلم كل شىء هو الله ربكم ، المستحق للعبادة لا الأصنام وغيرها من الخلق ، والله خبر ، وربكم خبر ثان ، أو بدل ، أو الله بدل من ذلك ، أو بيان ، وربكم خبر أو ذلك مبتدأ والله عطف بيان ، وربكم بدل من الله والخبر قوله :

(لا إله إلاَّ هُو) وفى غير هذا الوجه يكون هذا خبرا ثانيا أو ثالثا وقوله : (خَالقُ كلِّ شىءٍ) خبر ثان أو ثالث أو رابع ، أو خبر محذوف ، أى هو خالق ، ويجوز أن يكون ربكم نعتا لله (فاعبُدُوه) لأنه المستحق للعبادة لتلك الصفات ، وهو النافع الضار (وهُو علَى كلِّ شىءٍ وكيلٌ) رقيب على أعمالكم بالرزق ، حفيظ وغيره ، فكلوا أموركم إليه ، ولا قائم بها سواه فتوسلوا إليه بعبادته .

(لا تُدْركه الأبْصار) لا تراه فى زمان ما رؤية ما بصر ما ،

ولا دليل على أن الإدراك موضوع لرؤية الشىء ، ورؤية تفيد العلم من كل وجه لا لمطلق الرؤية ، وأل فى الأبصار للحقيقة فانتفى الإدراك أى الرؤية مطلقاً عـن حقيقة البصر ، فكل مـا يسمى بصراً لا يـراه ، أو للاستغراق حقيقة بمعنى كل ، والنفى مع ذلك كلية لا كل ، أعنى لعموم السلب ، ولو تأخرت عن النفى ، وذلك كثير فى القرآن كقوله تعالى : « ولا تطع كل حلاّف » « والله لا يحب كل مختال » ونحوه ، والداعى لذلك أن دعوى جواز رؤيته يدل على جواز النقص عليه ، لأن المرئى لون وجسم وحال فى مكان ، وله عرض ، لأن لكل جسم عرضاً ، وتركيباً وجهات ست ، وحاجة وجريان زمان عليه ، وحدوث وعجز بما بعد عنه ، واحتجاب عن من لا يحضره ، فللزوم ذلك يجب تأويل حديث : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون البدر » بمعنى أنكم ستحققون وجوده ووعده ووعيده ، وتزيدون يقيناً كما تكشفون البدر ، وهـذا كما تعلم أشياء وتجزم بوجودها وبصفاتها ولم ترها ولم تحسها ، وإذا رأيتها فلا بد أن تصفه بالمكان والجهة وتكيفه بأمر ، فبطل ما يقال إنه كما نعلمه بلا مكان ولا حدولا كيف ٠

كذلك يبصره بلا حد ولا مكان ولا كيف ، لأن الرؤية لابد فيها من تكييف وحد ومكان ، وكذلك يجب تأويل « إلى ربها ناظرة » كما تراه إن شاء الله فى محله ، فالرؤية نقص فى حقه فنفيه إياها عن نفسـه نفى للنقص ، كما نفى عن نفسه سائر النقائص ، ولا يلزم من امتناع الوصف لشىء للذات امتناع أن يذكر نفيه ، فالشركة ممتنعة عن الله بالذات ، وقد نفاها الله جل وعلا ، فكما نفى الشركة مدحاً وتعظيماً ، كذلك نفى الرؤية مدحاً وتعظيماً ، فلا يقال إذا كـان فى نفسه ممتنع الرؤية لـم يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم ٠

وإذا كان الإدراك موضوعاً لمطلق الرؤية فلم خصوه فى الآية بالإحاطة ، مع أن الحديث الداعى لذلك ، وهو حديث الرؤية يجب تأويله لأدائه بلا تأويل إلى مستحيل ، وقد علمت الأشعرية بذلك إلى أن تستتروا إلى قولهم نرى بلا كيف ، بل قال الله جل وعلا : « لاتدركه الأبصار » ليدل على أن رؤيته مستحيلة بعيدة فائتة كالشىء الذى فات ، بحيث لو أريد التحاق به ، واجتهد فى ذلك لم يدرك ولا دليل على اختصاص نفى رؤيته بالدنيا إلا ذلك الحديث ، وتلك الآية ، وقد علمت وجوب تأويلهما ، ولا يضرنا أن يدرك فى قوله :

(وهُو يُدْرِكُ الأبْصار) بمعنى يعلم الإبصار من حيث إنه تعالى منزه عن الجوارح ، لأنا نقول : استحالة الجارحة عنه تعالى دليل على أن هذا الإدراك المثبت له بمعنى العلم اللازم لبصر العين فى الجملة ، لا بمعنى الإدراك المنفى عنه تعالى ، وهو رؤيته ، ولا يصح جعل الإدراكين معاً بمعنى العلم ، لأن البصر لا يعلم شيئا فضلا عن أن يقال لا تعلمه الأبصار ، كما لا يقال : الخائط لا يعلمك إلا لداع إلى قوله ، وإنما العالم القلب ، والقلب يعلم الله إلى شبه معنى لا تدركه الأبصار لا تراه ، وهب أنه بمعنى لا يعلمه أحد ، فمعناه لا يعلمه العلماء علم إحاطة ولا بأس بذلك ، فيبقى نفى الرؤية مأخوذاً من نفى صفات النقص المذكورة آنفاً عنه تعالى ، كما قال السدى : البصر بصر المعاينة ، وبصر علم ، وذكر الأبصار فى قوله : « وهو يدرك الأبصار » لتأكيد نفى رؤيته تعالى ، من حيث إن الأبصار الباصرة يدركها ، ولا تدركه ، ولذلك لم يقل وهو يدرك الأبدان أو الأجسام أو الأشياء أو نحو ذلك ، وزاد تأكيد نفيها بقوله :

(وهُو اللَّطِيفُ الخَبِيرُ) فإن اللطف الدقة والخفاء ، أى هو

بعد من أن يراه بصر ما فى زمان ما رؤية ما ، وهو العليم علما دقيقا بكل بصر وغيره ، فإن الخبرة العلم بدقيق الأمور ، فهو يدرك ما لا يدركه الأبصار ويعلم ما لا يعلمه غيره ، فهو لا يرى كما لا يرى الشىء الذى ليس من الكثافة فى شىء ، كما لا ترى الريح لا تراه ، تعالى الله علواً كبيراً عن كل نقص ، وعن أن يشبه الريح أو غيرها ، وعن أن يوصف بالكثافة أو اللطافة الحقيقية ، فقوله : « اللطيف » عائد إلى قوله : « لا تدركه الأبصار » لأن من شأن الشىء الدقيق الخفى من الأجسام أن لا تدركه الأبصار ، تعالى الله عن الدقة والجسمية ، وقوله : « الخبير » عائد إلى قوله : « وهو يدرك الأبصار » كيف لا يدركها من هو عالم بدقائق الأمور ، وقيل : معنى اللطيف العالم بغوامض الأمور ، ودقائق المعانى والحقائق ، فهو أبلغ من الخبير ، والأبصار جرم الناظر من العين أو العين كلها .

ويجوز أن يراد بالأبصار النور الذى ترى به العين وهو لا يراه أحد ، ولا يحققه ، والله محيط علما به من كل وجه ، وإنما فسرت اللطيف بذلك ليناسب نفى الرؤية عنه ، وإثبات أنه يدرك غيره ، بخلاف ما إذا فسر بالمنعم على عباده المزيل عنهم الضر من حيث لا يعلمون أن تلك الجهة يأتى منها النعم ، أو تزول بها المضار ، بل قد يتوهمون العكس ، أو بموصل الخير إليك برفق أو بالمنسى عباده ذنوبهم فلا يخجلوا ، أو بالذى لم يكلفهم ما لا يطيقون ، أو بالمثنى على عباده عند الطاعة ، الذى لا يقطع إحسانه عند المعصية أقوال ، فإن ذلك لا يناسب بظاهره نفى الرؤية عن الله عز وجل .

ثم إن قوله تعالى : « تدركه الأبصار » موجبة كلية يحتمل أنه جاء النفى ، ثم جاء عليه العموم ، فتكون سالبة كلية ، أى لا شىء من

الأبصار يراه ، ويحتمل أنه اعتبر العموم أولا ، ثم جاء النفى عليه ، فتكون سالبة جزئية ، أى لا يراه بعض الأبصار وهو أبصار الكفار ، ويجب الاحتمال الأول بما يلزم من النقص فى رؤيته ، وإن جعلنا أل للحقيقة قلنا : الحقيقة من حيث هى تعد فرداً فكفانا نفا رؤية هذا الفرد الذى هو الحقيقة لله تعالى ، فما صدق عليه أنـه بصر صدق أنـه لا يراه ، والصارف إلى هذا ما يلزم من الرؤية فلم ندخل فى قولك هـذه القضية حينئذ سالبة مهملة فى قوة الجزئية ، إذ لا سور لها كلى ولا جزئى ، وما كان نقصا بالذات لم يتغير بالزمان ولا بغيره ، فرؤية نقص الدنيا والأخرى سواء يراه المؤمن فقط كما زعموا أو الكافر أيضا ، ولا قائل به .

ونفى الرؤية مذهب الأباضية بأصنافها ، والمعتزلة وبعض المرجئة ، وقد قال الله جل وعلا : « لن ترانى » ولن للتأبيد ، ومهما رأيت من جزئى لها لغير التأبيد فلدليل ، ولا دليل فى الآية ، وإذا نفيت عن موسى نفيت عن غيره بإجماع من خالفنا ، وأما : « ولن يتمنوه أبداً » وهم يتمنونه يوم القيامة فلا دليل فيه ، لأن المنفى تمنيهم الموت فى الدنيا ، ورؤية موسى فى الآخرة نقص أيضاً ، ولا يلزم من وجود الشىء أن يرى ، وإن يصح أن يرى سواه عرضاً كان أو جسما ، وهذا مقبول عقلا مسلم ، ولو سلم اللزوم ففى الجسم والعرض ، والله لا يوصف بهما لكن لا يسلم ، فهل ترى الصوت والرائحة والطعم .

(قَدْ جَاءَكُم بصَائر مِنْ رَبِّكُمْ) ايات دلائل على وحدانية الله تعالى وقدرته وتنزهه ، عن أن يرى ، وعن صفات النقص كلها ، وعظمت دلالتها حتى صارت كأنها عيون ، أو نور العين ، أو نور القلب ، وذلك استعارة ، أو لما كانت سببا ببصيرة القلب سميت بصائر ، فمن عرفها

كان له فى القلب بصيرة يعرف بها الهدى من الضلال ، ومن ربكم متعلق بجاء ، ومن للابتداء أو نعت لبصائر .

(فَمَنْ أَبْصَرَ) الحق وآمن به (فَلِنَفْسِهِ) فإبصاره لنفسه أو فلنفسه أبصر (وَمَنْ عَمِىَ) عنه لإعراضه وعدم تدبره (فَعَلَيْهَا) أى فعماؤه على نفسه ، يكون وباله على نفسه لا يعاقب عليه غيره ، أو يقدر فوباله عليها ، وإن قدرت فعليها عمى بلفظ الفعل الماضى ، ورد عليه أن عمى لا يتعدى بعلى فيتكلف له أنه جىء للضرر ، وإنما صح أن قدر فلنفسه أبصر ، وإن يقدر فعلى نفسه ، عمى ، مع أن عمى وأبصر فعلان متصرفان مجردان صالحان لأن يكونا شرطا ، فلا يقرنان بالفاء فى جواب الشرط ، لأنهما لم يذكرا ولو ذكر القرآن الجواب بالفاء أيضا ، لأن الفاء لم تلهما ، بل تلت معموله وهذا على أن معمول الشرط لا يلى الشرط .

وإذا أوهم شىء أنه تلاه قدر له عامل قبله يكون شرطا فكذا هنا لا يصح شرطا لتقدم معموله عليه ، ومن قال يليه قال : لا تثبت الفاء لو ذكر الفعل ، وإن لم يذكر فمن أين يكون الربط ، ويعلم أن الجار والمجرور من جملة الجواب لو لم تكن الفاء ، ولولا الفاء لتوهم أنهما من جملة الشرط ، هذا تحقيق المقام إن شاء الله فاحفظه ، لعلك لا تجده فى غير هذا الكتاب ، ومنع أبو حيان الفاء فى مثل ذلك ، وأجازها غيره ، والتحقيق ما ذكرت ، والمانع لا يقدر فى الآية الفعل ، ويقوى من جهة أن المقدر حينئذ مفرد لا جملة ، وأن الجار والمجرور حينئذ عمدة .

(وما أنا عَلَيْكم بِحَفِيظٍ) يحفظ أعمالكم للجزاء عليها ، بل أنا منذر ، والحفيظ الله تعالى أو لا أدخلكم فى الإيمان قهراً أو لا أدفع عنكم

ما أراد الله بكم من عذاب ، فهذا كلام أمر الله تعالى رسوله أن يقوله عن نفسه ، أى قل : وما أنا عليكم بحفيظ فى زف القول ، لكن الظهور قصده يتوهم المتوهم أنه معلوم المعنى بلا تقدير ، وليس كذلك ومنشىء القصيدة على لسان غيره لا يقدر القول ، ولكن يجرى على نية التقدير ، ولو اشتدت غفلته عنه ، وليست الآية من باب إنشاء القصيدة ، لأنها من أول على لسان الغير ، والآية من باب ذكر المتكلم كلاما يسند إليه ثم شروعه فيما لا يسند له .

وأما قوله : « قد جاءكم بصائر من ربكم » إلى « فعليها » فكلام من الله ، ويجوز تقدير القول له ولما بعده إلى قوله : « بحفيظ » ولا حصر فى قوله : « وما أنا عليكم بحفيظ » وإلا كان المعنى أنا لست وحدى حفيظاً ، أو لم أقتصر على الحفظ ، وليس ذلك مراداً إلا إن أورد على فرض توهم من توهم ذلك ، ولا يمنع عدم الحصر فى ذلك أن تقدر الحافظ الله ، أو الله هو الحافظ بصيغة الحصر ، ومعنى الآية باق ولو مع نزول آية القتال ، فلا نسخ فيها .

(وكذلك نُصرِّفُ الآياتِ) بينها بتكرير ونقل من حال لحال (وليقُولوا دَرسْتَ) متعلق بمحذوف ، أى وصرفنا الآيات ليقول مشركو قريش درست ، أو ونصرفها ليقولوا ، أو العطف على محذوف ، أى ليذكروا وليقولوا ، فيتعلقان بنصرف المذكور ، واللام للصيرورة ، لكنه عالم بما يصير إليه الأمر وهى شبيهة بلام التعليل ، فإن مدخولهما يترتب على ما قبلهما ويضعف تقدير لا النافية كما قال بعضهم : التقدير لئلا يقولوا ، وقيل : يجوز أن تكون للتعليل لأن يكون تصريف الآيات لأجل أن يقولوا ، وقيل اللام للأمر التهديدى ، فالفعل على هذا مجزوم لا منصوب كقوله تعالى : « اعملوا ما شئتم » « ومن شاء فليكفر »

ويناسبه قراءة بعضهم بإسكان اللام ، ولام الجر لا تسكن إلا أنه يحتمل أن تكون لا التعليل أو الصيرورة ، وكلتاهما جارة سكنت تخفيفا لأنها مع الواو قبلها والباء بعدها بمنزلة الكلمة الثلاثية المكسورة الوسط كعلم وكبد ، ويقوى كونها ليست لام إلا لام من لنبينه بعده •

والدرس القراءة والتعلم ، أى وليقولوا : تعلمت وأتقنت ما قلت من عبد رومى ، ثم جئت تقول : إنه أوحى الله إلى ، وقال الفراء : وليقولوا درست عن اليهود ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : وليقولوا دارست بألف بعد الدال وهو للمفاعلة ، أى دارست العبد الرومى ، أو دارست اليهود أى درست معهم ، وقرأ ابن عامر ويعقوب درست بتاء التأنيث ، وفيه ضمير مستتر على هذه القراءة عائد إلى الآية ، أى ليقولوا إنما تذكرة من الآيات قد سبقك وتكرر فى السن ومضى ، حتى كان كالشىء القديم البالى المندرس ، وأنت تقول : إنه جديد طرى من الله ، أنزل عليك كقوله تعالى : « أساطير الأولين » وقرىء درست بفتح الدال وضم الراء حملا إلى باب فعل بضم العين من فعل بالفتح للمبالغة أى بليت جداً إذ تكررت تكرراً عظيماً ، وأعنى أن هذه القراءة مبالغة فى معنى القراءة التى قبلها ، والتاء ساكنة ، والضمير للآيات ، وذلك أن جعل بالضم للطبيعة وما أشبهها فى اللزوم •

وقرىء بالبناء للمفعول ، أى قرئت تلك الآيات أو أبليت وأقدمت أى جعلن باليات ، وتفسيرها بالإبلاء والإقدام بناء على لغة تعدى درس ، يقال : درس الموضع ودرس الريح ، وقرىء دارست بالألف أى تليت الآيات جداً ، فالمفاعلة للمبالغة أو دارست اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم قرأت معه ، وتعلم منهم ، لأنه ولو لم يجز ذكرهم ، لكنهم المعروفون بالدرس فى ذلك الزمان ، وقرىء درسن بالبناء للمفعول والتخفيف أو قرأنا

أو أبلينا ، وقرىء درسن بالبناء للفاعل ، أى بلين وقرىء درسن بالبناء للمفعول والتشديد ، أى صيرت باليات أو قرأهن من سبق جداً ، أى الآيات وقرأ أبى : درس بالبناء للفاعل بلا تاء ، أى درسها محمد عن اليهود والرومى ، أو درس الكتاب برفع الكتاب أى بلى وقدم •

وقرىء دارسات بالرفع أى هن دارسات أى باليات لتكررهن فيمن قبله ، أو دارسات والواو مكسورة وبعد السين ألف ، ولإغراء على التاء أى قارئات أى ذوات درس أى قراءة ، أو ذوات دروس أى قدم ، وقرء درست بالتشديد والبناء للفاعل ، والخطاب والتشديد للمبالغة ، أى درست يا محمد مع اليهود أو الرومى درساً عظيماً حتى حفظت ، أو للتعدية أى صيرت غيرك دارسا الكتب ، أى حملت غيرك على درس الكتب لتدرس معه فتحفظ فتقول : أوحى إلىّ ، وقرىء درست بالبناء للمفعول والخطاب والتشديد ، أى صيرت دارساً أى متعلما قارئاً وقرىء دورست بالبناء للفعول من المفاعلة للمبالغة فى كونها مقروءة قبله صلى الله عليه وسلم •

(ولنُبيِّنَه) أى لنبين القرآن ، ودل عليه ذكر الآيات ، أى نبين الآيات فأفردها وذكرها للتأويل بالقرآن أو الدليل ، أو لنبين التصريف ، ومن زعم أن الهاء للتبين فهى عنده مفعول مطلق (لِقومٍ يعْلمونَ) هم الذين آمنوا به قاله ابن عباس ، أو لنبينه لقوم يعلمونه ، إذا بيناه لهم فيؤمنوا به فيسعدوا •

(اتَّبع ما أُوحىَ إليكَ منْ ربِّك) يا محمد بالتدين به ، والعمل به ، ولا تحـْزن بقولهم درست ، وقوى قلبه بقوله : « أوحى إليك من ربك » إذ هو أعظم من قوله : اتبع القرآن ، لأن فيه ذكر الوحى ، وأنه من ربك ، ولفظ القرآن ليس فيه ذلك ولو تضمنه •

(لا إلهَ إلاَّ هُوَ) هو الواجب أن يعبد ولا عبادة لغيره ، فلا تضعف فى عبادته وتبليغ ما أوحى إليه بقولهم درست ، والجملة معترضة لتأكيد الاتباع كما رأيت ، أو حال من ربك ، ولا يظهر لى أنها مؤكدة لعاملها ولا لصاحبها ، لأن مفهومها ليس مفهوم أوحى ، ولا مفهوم ربك ، نعم فيها توكيد لقوله : « اتبع ما أوحى إليك من ربك » لأنه بمعنى إيجاب اتباعه ، والنهى عن اتباع غيره ، واتباعه عبادته وحده ، فذلك هو معنى لا معبود بحق إلا هو .

(وأعْرِضْ عَنِ المُشْرِكينَ) لا تكترث بقولهم درست ، ولا تلتفت إلى طعنهم ورأيهم ، وهذا مما يبقى ولو مع نزول القتال ، فلا ينسخ ولا حاجة إلى أن يقال : معناه اترك قتالهم فضلا عن أن ينسخ بنزوله .

(ولَوْ شاءَ اللهُ) عدم إشراكهم بالله تعالى (ما أشْرَكُوا) به تعالى شيئا ، فالآية دليل على أن شركهم بإرادة الله ومشيئته ، وكذا معصية العاصى مطلقا ، بإرادته ومشيئته ، وفيه رد على المعتزلة فى قولهم : لم يرد معصية العاصى ، وزعموا أن المعنى لو شاء الله لأكرههم على عدم الإشراك ، ولزم عليهم أن يكون مغلوبا على أمره إذ عصى ولم يرد المعصية ، بل أراد الإيمان منهم ولم يقع ، تعالى الله عن ذلك ، والحق أن المعصية بإرادته ومشيئته مع اختيار العاصى لا جبراً للذم عليها والعقاب والنهى عنها .

(وما جَعَلْناكَ عليْهم حَفيظاً) تحفظ عملهم للجزاء ، أو تقهرهم على الإيمان فيؤمنوا ولو كرهوا ، أو تدفع عنهم عذاب الله ، إنما جعلك مبلغاً فبلغ ولا تهتم بهم .

(وما أنتَ عَلَيْهم بوَكيلٍ) قائم برزقهم ، وقيل : معناه لا تجبرهم على الإيمان بالقتال ، وعليه فقد نسخ بآية القتال .

(ولا تسبُّوا الَّذينَ يدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) النهى النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وواو يدعون من مشركين ، ومعناه يعبدون أو طلبون منهم حوائجهم ، والذين الأصنام ، وإنما قال فيهم الذين مع أنهم ليسوا بعقلاء ، لأنها عندهم بمنزلة العقلاء .

(فَيسبُّوا اللهَ عدواً بغيرِ علمٍ) النصب فى جواب النهى بعد فاء السببية ، نهاهم أن يسبوا الأصنام لأن سبها سبب لسب المشركين الله عدواً أى تجاوزاً إلى وصفه تعالى بالباطل بغير علم ، بما يجب وصف الله به ، فإن سبَّها طاعة ، لكن لما أدى إلى معصية وجب تركه ، ونهى عنه ، فذلك نهى عن سب الله ، وكذا كل طاعة أدت إلى معصية ، فتخرج أن يكون طاعة ، فيجب النهى عنها من حيث إنها تؤدى إلى معصية ، فالنهى عن المنكر إذا كان يؤدى إلى معصية وجب تركه ، وكان معصية ، وكذا لو استحق الواحد اللعنة ، وكان لو لعنته للعن ابنه أباك ، فأنت تقصد بلعنه طاعة لم يجز لك ، وقد كان يكفيك لعنه سراً ، أو فى غير ذلك الوقت ، أو كفى ما سبق من اللعن .

وأما ما لا يكون سبباً لمعصية من الطاعات ، فلا يترك لأجلها ، ولما ترك محمد بن سيرين صلاة الجنازة لما يحضرها من النساء ، فرجع قال له الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك فى ديننا ، فاما أن يكون تخييلا لابن سيرين أن ذلك مثل الطاعة تسببت لمعصية فتركها ، فنبهه الحسن أن هذا ليس كذلك ، لأن صلاة الجنازة ليس سببا لعصيانهن ، لأنهن يحضرن الجنازة ، ولو لم تحضر الرجال ، وإما أن يكون اختار الحوطة والنجاة عن الغنيمة .

وقد اختلف اختيار المؤمنين فى طاعة يخاف عليها مـن معصية ، فبعض يختار السلامة ويطيع بغيرها ، وبعض يختار اغتنامها مع التحرز عن مواقعة المعصية ، وأظن أن هذا مرمى ابن سيرين ، والذى عندى اختيار الطاعة والتحرز عن المعصية والنهى كحضور جنازة فيها نائحة تنهى ولا تنتهى إلا المنظور إليه ، فلعل الترك له أحوط لئلا يقتدى به مقتد غير عالم بمخرجه ، وذلك فى غير الفرض الذى لا يحتمل التأخير والبدل ، وأما هذا الفرض فلا يترك ، ولو يؤدى لمعصية كقتال المشركين المؤدى إلى قتالهم للمؤمنين وسبهم ، بخلاف سب الأصنام فإنه ليس واجباً ، وإنما الواجب النهى عـن عبادتها ، فكانوا يسبونها فيسب المشركون الله تعالى غضبا ، لا لأنهم يقرون به تعالى ، كما ترى موحدا يغضب فيلغط بالشرك ، فنهاهم الله عن سبها .

وعن ابن عباس : لما نزل : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » قال المشركون : يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجـون ربك ، فنزلت الآية فى الأنعام لذلك ، أى نزلت فى جملة الأنعام لذلك بمرة ، ولا بترك القرآن لأجل سبهم ، ولكن إذا كانت قراءته بحضرتهم سبباً لسب الله لم يقرأ بحضرتهم إلا الإبلاغ والإنذار والنهى ، وقيل : إذا لم ترد بقراءته سبها قرأته بحضرتهم ولا بأس ، ولو صرح بالسب ، وقيل : لا تقيسوا على ما ورد من السب فى القرآن ، فتسبوا من عندكم ، وأما ما فى القرآن فيقرأ ولو سباً ككونها حصب جهنم ، ولا تضر ولا تنفع .

قال السدى : لما حضرت الوفاة أبا طالب قالت قريش : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فلنأمره أن ينهى ابن أخيه عن سب آلهتنا ، فإنا نستحى أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : كان عمه يمنعه ، ولما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأمية وأبى ابنا خلف ،

وعتبة بن أبى معيط ، وعمرو بن العاص ، والأسود بن أبى البحترى إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا وندعه وإلهه ، فدعاه فجاء صلى الله عليهم وسلم وقال له أبو طالب : إن هؤلاء قومك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يريدون ؟ » قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا ، وندعك وإلهك ، فقال له أبو طالب : قد أنصفك قومك فاقبل منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أرأيتم إن أعطيتكم هذا فهل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم ، وأدت لكم الخراج ؟ » فقال أبو جهل : نعم وأبيك ولنعطيكها وعشرة أمثالها فما هى ؟ فقال : « قولوا لا إله إلا الله » فأبوا ونفروا ، فقال أبو طالب : قل غيرها يا ابن أخى ، فقال : « يا عمى ما أنا بالذى يقول غيرها ولو أتونى بالشمس فوضعوها فى يدى ما قلت غيرها » فقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا ولنشتمنك ونشتم من يأمرك فنزلت الآية .

وهذه الرواية ليست نصاً فى أنهم يسبون الله لسب المؤمنين آلهتهم ، بل قالوا : نسب من يأمرك ، فلعلهم أرادوا جبريل ، فسمى الله سبه سباً لله تعالى ، لأنه كفر بكلامه ، وقد فسر بعضهم قوله : « بغير علم » بأنهم يسبون الله ولا يعلمون أنهم يسبونه ، ويظنون أنهم يسبون غيره وأنه ليس سباً إلا أن قولهم دع آلهتنا وندع إلهك يدل أنهم يسبون الله وبه قال قتادة وهو ظاهر القرآن وهو الصحيح ، وهو قول ابن عباس ، ونسخ قبل النهى عن سبها بآية السيف .

(كذلك زيَّنا لكلِّ أمةٍ عَمَلهُم) كما زينا للمشركين سب الله ، وزينا لكل أمة كافرة عملهم القبيح من شرك ومعاصٍ ، وهذا أنسب بما قبله فى كون التزيين تزيين المعصية للكافرين ، ويجوز أن

يراد بالتزيين تزيين الطاعة لأهلها ، أو المعصية لأهلها ، وبكل أمة أمم الكفر وأمم الإيمـان ، ومعنى تزيين الله المعصـية خلق الميل إليهـا ، فيميل إليها الإنسان باختياره ، كما خلق الشيطان فاتبعه من اتبعه ، وكما خلق الإسكار فى الخمر فشربها من شربها ، ولا يعد ذلك إجباراً من الله تعالى ولا ظلماً ، وكما خلق سائر ما يعصى به فعصى بـه .

وإن شئت فقل : تزيين الله المعصية ترك التوفيق ، وإن شئت فقل : تزيينها الخذلان ، وإن شئت فقل : خلق ما يحملهم عليها ، فذلك كله سواء صحيح عند الأشاعرة فى إطلاق التزيين على الله بذاك المعنى ، قال فى السؤالات : لا يقال زين الله الكفر للكافرين ، قال : ومعنى قوله : « زينا لهم أعمالهم » جعلنا لهم من يزين أعمالهم ، وهذا كما قـالت المعتزلة : تزيين القبيح قبيح ، فأجابوا بأن المعنى خليناهم وشأنهم ولم نجبرهم إجباراً على تركه فحسن عنده سواء علمهم ، فسمى ترك إجبارهم عن المعصية تزييناً لها ، لأنه لولاه لم يعصوا ، ولو قالوا معناه خليناهم وشأنهم ولم نوفقهم لوافقونا ، وأجابوا أيضا بأن المعنى أمهلنا الشيطان حتى زين لهم ، فسمى إمهال الشيطان تزييناً إذ كان تزيينهم به ، وأجابوا أيضا بأن المعنى زينا لكل أمة عملهم فى زعمهم إذ كانوا يقولون : إن الله أمرنا بهذه المعصية كما قال فيهم : « والله أمرنا بها » وهذا لو كان وارداً على سبيل الحكاية فى الكلام لكنه بعيد .

(ثمَّ إلى ربِّهم مَرْجعُهم) بالبعث (فيُنبِّئُهم) يخبرهم إخبار محاسبة وجزاء (بما كانُوا يعْملُون) من الشر ، على أن المراد بالأمم أمم الكفر ، ومن الشر والخير على إرادة العموم .

(وأقْسمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِم) أوكدها ، وهو أن يحلفوا

بالله كما قال الكلبى ومقاتل ، تقدم إعرابه فى المائدة والضمير لكفار قريش .

(لئنْ جاءتْهُم آيةٌ) تدرك بالحواس وتشابه آيات الأمم السابقة كالمائدة والناقة ، وحضور ملائكة يشهدون ، وإحياء ميت كذلك ، فالتنكير للتعظيم ، استحقروا ما جاءهم به من الآيات ، أو للوحدة زعموا إنما جاءهم به ليس آيات .

(ليُؤْمننَّ بها) يصدقن بها ، قال مشركو قريش : إنك يا محمد تخبرنا بمعجزات موسى وعيسى وغيرهما ، فلو جئت بمثل ما جاءوا لصدقناك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما شئتم » فقالوا : صير لنا الصفا ذهباً ، وأحيى بعض موتانا الأولين ، وأحضر بعض الملائكة ، فيخبرنا من أحييت ومن حضر من الملائكة أنك على حق ، قال : « إن فعلت أفتصدقون ؟ » قالوا : نعم ، والله لنتبعنك أجمعون ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو أن يجعل الصفا ذهباً ، فجاءه جبريل فقال : ما شئت إن شئت أصبح ذهباً ، فإن لم يصدقوك عذبهم الله عن آخرهم كما فعل بالأمم المقترحة ، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « بل يتوب تائبهم » فنزل : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنبها » .

(قلْ إنما الآيات عِنْد الله) لا عندى ، فهو الذى يجىء بها إذاشاء ، فهو القادر عليها ، ولا قدرة لى عليها ، فكيف تطلبون أن أجىء بها على اقتراحكم ، كأنها مفوضة إلىَّ ، وإنما ينزلها الله على مقتضى الحكمة ، والآية قابلة لهذا التفسير الذى عمت فائدته ، وهو أولى ، وجعل ذلك فى الكشاف وجهين :

الأول : أن الله قادر عليها ، لكن لا ينزلها إلا على موجب الحكمة يعنى فكيف أجيئكم بها ؟ ولا حكمة فى المجىء بها ، فلا تتيسر ، إذ لو كانت الحكمة فيها لجاءت ولو بلا سؤال منكم ، ولا دعاء منى .

الثانى : إنما الآية عند الله لا عندى ، فكيف أجىء بما ليس عندى .

(وما يُشْعركم أنها إذا جَاءت لا يؤْمنُونَ) الاستفهام إنكار وتوبيخ ، أى لستم تدرون أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، ولو دريتم أنهم لا يؤمنون بها لم تتمنوا أن تجىء ؟ لأنكم تتمنون أن يجىء ليؤمنوا ، وقد علمتم أن الأمم المقترحة تهلك إذا كذبت ، هذا ما ظهر ، والخطاب للمؤمنين ، وهو قول الفراء والجمهور ، وما ذكرته من تفسير ما الاستفهامية بالنفى لا يلزم منه بقاء الفعل بلا فاعل ، كما قد يتوهم فإنك تقول لمن يدعى : إن للرجل أقام من قام ، تريد أنه إن قام رجل فأخبرنى به من هو ، ولا قائم يخبرنى به .

والحاصل أنه كما لا يبقى الفعل بلا فاعل إذا جعلت للاستفهام لا يبقى بلا فاعل إذا جعلت للنفى ، وداعيك لذلك أنك تراها كحرف النفى فقط ، فلا يبقى مرجع لضمير يشعر إليها ، ويلزمك أن تقول : إنها إذا كانت للاستفهام أيضا كانت كالهمزة فقط ، فلا يبقى مرجع ، وليس كذلك ، بل معانى الحروف التى تتضمنها الأسماء معان زائدة على معانى الذوات المدلول عليها بتلك الأسماء ، فمدلول ما مثلا مطلق الشىء ، وزيد عليه معنى الهمزة الاستفهامية ، ولم أر أحداً توهم ذلك التوهم ، بل رأيت بعضاً قال : ما ليست استفهامية ، بل حرف نفى ، فحينئذ يتكلف للفعل فاعل فقيل : هو ضمير عائد إلى الله تعالى ، والأصل ترك التكليف ولا سيما ما يعد منه ، بل لا يصح هذا ، لأن الله قد أعلمه بأن المشركين لا يؤمنون ، وهذا إنما يصح فى مخصوصين من الكفار .

ومن التكلف أيضا جعل ما صلة للتأكيد ، والضمير لله ، وفيما ذكرت إبقاء الكلام على مشهوره المتبادر من كون ما استفهامية ولو للإنكار ، وإبقاء أنها على ظاهرها من كونها إن واسمها ، وإبقاء لا عـــلى النفى إلا أنه يتوهم من لفظ الآية على ذلك الإبقاء أن المؤمنين راغبون فى عدم إيمان الكفار ، إذ لـــو رغبوا فى إيمانهم لقيل : انها اذا جاءت يؤمنـــون بإسقاط لا ، وقد أنزلت ذلك الوهم بقولى ، ولو دريتم لم تتمنوا أن تجىء ، لأن فيها استئصالهم ولما ترآى هذا التوهم لبعض من تقدم أزاله بجعله لا زائدة ، ورجح أبو على الفارسى أنها زائدة ، وبعض قال : بمعنى لعل على أنها لترجى المخلوق لا حرف مصدر ، ويدل له قراءة أبى ، وما أدراك لعلها قال الكسائى : هى كذلك أيضا فى مصحف أبى ، وقد رويت هذا رواية فى شرح الأجرومية للشريف الفارسى عند قراءته على شيخى ، وفى ذلك الكتاب وغيره كالكشاف قبله التمثيل بقول امرىء القيس :

* لأننا نبكى كما بكى ابن حذام *

فلعله بفتح اللام ، فليست جارة بل حرف من ، لأن بفتح اللام الهمزة بمعنى لعل ، كما أن بفتح الهمزة بلا لام قبلها بمعنى عل التى هى لغة فى لعل ، وتقول العرب : ائت السوق أنك تشترى لحماً أى علك تشترى بفتح الهمزة ، وذلك قول الخليل بن أحمد ، ومنه قول على بن زيد :

أعـــادل مـــا يـــدرك أن منيتى
إلى ما ساعتى فى اليوم أو فى ضحى الغد

لعل منيتى ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فى رواية عنه ، عن عاصم أنها

بكسر الهمزة على الاستئناف ، وبه قرأ يعقوب ، وقيل : استئناف بيان مبنى على ما قوله : « ما يشعركم » كأنه قيل : لم ذلك ؟ فقال : إنها الخ أى لم أنكرت إشعارنا ، أو لم جاءت صيغة الاستفهام الموضوعة للشك ، والله لا يشك ، ومفعولى يشعر محذوفان ، أى وما يشعركم أيؤمنون ، فهذه الجملة المحذوفة قامت مقام مفعولى يشعر ، كما أن قوله : إنها إلخ فى تأويل مصدر قام مقام مفعولين فى قراءة الفتح ، أو فى محل نصب علقت بالترجى إذا جعلت إن بمعنى لعل .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة : لا تؤمنون بالخطاب ، فيكون الخطاب بالكاف والتاء للمشركين ، أتظنون أنكم تؤمنون ولن تؤمنوا فتهلكوا عاجلا ، وقال مجاهد ، وابن زيد : الخطاب بالكاف فى يشعركم للمشركين ، وكانا يقرآن بكسر الهمزة فى إنها ، وبالتحتية فى لا يؤمنون ، والجملة من إن وما بعدها مستأنفة إخباراً للمؤمنين بأن هؤلاء لا يؤمنون ، وقرىء : وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون ، أى لم يدر الكفار أنهم باقون على عدم الإيمان إذا جاءت .

(ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبْصَارهم) عطف على قوله لا يؤمنون ، أى لم تشعروا أنهم لا يؤمنون إذا جاءت ، ولا أنا نقلب قلوبهم عن الإيمان بالله وبالقرآن أو بمحمد ، أو بما سبق من الآيات كانشقاق القمر ، أو بالله ، ونقلب أبصارهم فلا يؤمنون بها رؤية اعتبار فلا يؤمنون بالقرآن أو بمحمد أو بما سبق الآيات بعد مجىء .

(كَمَا لم يُؤْمِنُوا بِهِ) أى بالقرآن أو بمحمد أو بالله أو بما سبق من الآيات (أوَّلَ مرَّةٍ) قبل مجىء الآيات التى اقترحوها ، وقيل أول مرة بمعنى حين أخبروا بمعجزات موسى وعيسى ونحوهما ، لأنهم ولو

طلبوا مثلها منه صلى الله عليه وسلم لكنهم لم يؤمنوا بها جزماً ، وقيل : نقلب كلام فى أمر الرد من الآخرة إلى الدنيا ، فيكون أول مرة الدنيا ، فليس معطوفاً على خبر إن ، والمعنى أنا نصرف أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان به لورددناهم بعد الموت ، ودخول النار إلى الدنيا ، كما لم يؤمنوا به قبل الموت ، ونسب هذا لابن عباس ، وقرىء ويقلب بالتحتية ، ونصب أفئدتهم وأبصارهم ، والفاعل ضمير الله جل وعلا ، وقرأ الأعمش بها ، والبناء للمفعول ورفعهما ، والكاف تتعلق على القول بالتعلق وهو الصحيح بنقلب أو بمحذوف مفعول مطلق ، أو هى اسم مفعول مطلق ، أى تقليباً ثابتا كعدم إيمانهم ، أو تقليباً مثل عدم إيمانهم ، ويجوز أن يكون على المجازاة ، أى جازيناهم بتقلب أفئدتهم وأبصارهم على عدم إيمانهم به أول مرة .

(ونَذَرهُم فى طُغْيانِهِم) فى مبالغتهم فى الشر ، والعطف على خبر إن ، أى وما يشعركم بعدم إيمانهم إذا جاءت ، وبتقليب أفئدتهم وأبصارهم ، ويتركهم فى طغيانهم (يعْمهُونَ) يترددون لا يخرجون عنه .

(ولَو أنَّنا نزَّلنا إليْهم الملائكة) تشهد بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله كما طلبوا (وكلَّمهم الموتَى) بأن أحيينا لهم من تقادم موته كقصى ، ونطق لهم بلسان فصيح ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله كما طلبوا (وحَشَرنا) جَمعْنا (علَيْهم كلَّ شىءٍ) خلقه الله من الدواب والوحش ، والطير والحوت ، والجبال والشجر والحجارة ، وغير ذلك من كل ما خلقه الله ونطق لهم بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك زيادة على ما طلبوا (قُبُلاً) ينطق برسالته مواجهة يرونه بأعينهم ويسمعونه بآذانهم .

(ما كانـُوا ليـُؤمنـُوا) بالله وحده ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسوله لقضاء الله بكفرهم (إلا أنْ يـَشاء اللهُ) إلا مشيئة الله ، أى لكن مشيئة الله هى المعتبرة ، فالاستثناء منقطع ، أو إلا بأن يشاء الله ، أى إلا بمشيئته ، فالاستثناء متصل ، ومعنى قولهم : إن الآية نزلت فى المستهزئين وغيرهم ممن قال لا نؤمن ، إلا أن جـاء ببعض أسـلافنا والملائكة وشهدوا له بالرسالة أن معناها عائد لذلك ، لأنها نزلت مفردة فى زمان لذلك الشأن ، لأن الأنعام نزلت بمرة ، فالقصة الواحدة تنزل فى شأنها آيات واحدة فى حال وقوعها ، أو السؤال عنها ، والآخر بعـد ذلك ، والنازل فى هذه القصة آية الأسرى وغيرها تكرير لها لحكمة ، وعلى الاستثناء المنقطع لا يكون الاستثناء لأحد يؤمن والآيـة فى المشركين الأشقياء ، والمعتبر فى شقاوتهم مشـيئة الله ، وعلى الاتصال يكـون الاستثناء لقوم سعداء ، شاء الله إيمانهم .

وزعمت المعتزلة أن الاستثناء منقطع على طريق يناسب اعتقادهم ، هو أن المراد عندهم ، إلا أن يشاء الله إيمـان الأشـقياء إجبـاراً لا اختباراً كذا قيل عنهم إن الإيمان القهرى لما لم يكن من الاختيارى كان منقطعا ، وهذا خطأ فى الإعراب كما أخطأت المعتزلة فى المعنى أيضا ، فإن الإيمان ولو أريد منه الاختيارى فى قوله : « ما كانوا ليؤمنوا » لكن لفظ عام فالاستثناء المتصل سائغ ولو على مذهبهم ، والحق أن المشيئة مشيئة إيمانهم اختياراً ، أى لو شاء الله تعالى لآمنوا اختياراً ، ولمـا لم يؤمنوا علمنا أنه ما شاء إيمانهم ، وأما إيمانهم قهراً فلا مدخل له ، ولا حضور فى الكلام ثبوتاً ولا نفياً ، ومعنى قـِبـَلا مقابلة ومواجهة ، مفعول مطلق ، أى حشر مقابلة ومواجهة ، أو حال من كل أى مقابلا ، أو ذا مقابلة ، وذلك قراءة نافع وابن عامر بكسر القاف وفتح الباء ، وقرأ غيرهما قبلا بضمهما ، ومعناه مقابلة عند ابن عباس ، وذلك قراءته ،

فإعرابه كإعراب قراءة نافع كلها ، وزاد عليها بأن يكون جمع قبيل بمعنى الكفيل وهو قول الزجاج والفراء قبله ، أى كافلين بصدق محمد فى وعده ووعيده ورسالته وإخباره ، أو جمع قبيل بمعنى فريق ، أى يحشرهم جماعة جماعة ، أو صنفا صنفا يشهدون له وهو أيضا فى الوجهين حال .

(ولكنَّ أكثرهُم يجْهَلون) أكثر المشركين يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا يلزم عند مجيء الآيات ، ولذلك أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم يؤمنون إن جاءت ، وقليل منهم يعلمون أنه بمشيئة الله ، وقيل : المراد بالأكثر الكل كما قد يراد بالقلة النفى ، وقيل : المراد أكثرهم يجهلون عليك عمداً ، وهم يعلمون أنك رسول الله ، كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلاعب أبا سفيان بعد الفتح بمخصرة فى يده ، ويطعن بها أبا سفيان ، فإن أحرقته قال : نح عنى مخصرتك ، فوالله لو أسلمت إليك هذا الأمر ما اختلف عليك فيه اثنان ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أسألك بالذى أسلمت له قتالك إياى عن أى شيء كان ؟ » فقال أبو سفيان : أتظن أنى كنت أقاتلك تكذيبا لك منى ، والله ما شككت فى صدقك قط ، وما كنت أقاتلك إلا حسداً منى لك ، فالحمد لله الذى نزع ذلك من قلبى ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يشتهى ذلك منه ويتبسم .

وقيل : ولكن أكثر المؤمنين يجهلون أنهم لا يؤمنون فى قضاء الله فيتمنون نزول الآيات طمعاً فى إيمانهم ، والقليل منهم علموا أنهم لا يؤمنون فى قضاء الله ، وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أخبره .

(وكذَلكَ جَعَلْنا لكلِّ نبيٍّ عدوًّا شَيَاطِينَ الإنْسِ والجنِّ) كما جعلنا لك شياطين الإنس والجن أعداء ، جعلنا لكل نبى قبلك شياطين

الإنس والجن أعداء ، قال الله تعالى له ذلك ، لعلمه صلى الله عليه وسلم أن له من الجن أعداء ، كما أن له من الإنس أعداء ، كالشياطين الذين يلغون ليلة الجن ، وكالشيطان الذى تبعه بشعلة ليلة الإسراء ، فاصبر لهم ولا تضعف فى الدين كما صبر الأنبياء عقبلك ، وارض بقضائى كما رضوا ، فإن عداوتهم لك وللأنبياء بجعلى وقضائى ابتلاء ، ولكل متعلق بجعلنا ، أو بمحذوف حال من عدواً ولو نكرة لتقدم الحال ، وعدواً مفعول ثان مقدم ، وشياطين مفعول أول مؤخر ، وإنما قلت لك ذلك لأن عدواً نكرة والأصل فيها أن يخبر بها من المعرفة لا العكس ، لأن معنى الوصف معتبر فى عدواً ، فكأنه قيل : معادين أى أعداء ، لكونه بمعنى الجمع صح الإخبار به عن شياطين ، فإن عدواً يطلق على الواحد فصاعداً ، والأصل فى الوصف غير صلة آل أن يكون هو الخبر ولو تقدم .

ويجوز أن يتعلق له بمحذوف وجوباً مفعول ثان ، وعدواً مفعول أول ، فيكون شياطين بدلا من عدواً بدلا مطابقاً ، واعتبار الوصف هى فى عدواً أظهر منه فى شياطين ، ولو بقى عدواً على لفظ المفرد ، وإلا فشياطين أيضا فيه معنى الوصف ، لأن معناه متمردون فى الشر ، أو بعداً عن الخير ، وهذه الصفات موجودة فى الإنس والجن ، بل هى فى الإنس أعظم ، فشيطان الإنس أعظم من سبعين شيطاناً من الجن .

قال مالك بن دينار رحمه الله ، وهو من أصحابنا الأباضية الوهبية : أهل الدعوة شياطين الإنس أعظم علىَّ من شياطين الجن ، وذلك أنى إذا تعوذت من شياطين الجن ذهبوا عنى ، وشياطين الإنس تجيئنى فتجبرنى إلى المعاصى عياناً ، يعنى إذا ذكرت الله ذهبت شياطين الجن وفى السؤالات : يقال للمنافقين يا شياطين . وأما إبليس فلا ، الا للمشركين ، والمعتزلة لما منعوا وصف الله بجعل الشر وخلقه أوَّلوه بالحكم ، أى حكمنا بعداوة

شياطين الإنس والجن لكل نبى ، تقول : زيد يعدل عمراً إذا حكم بأنه عدل لا بمعنى تصييره عدلا .

والحديث المتقدم عن مالك بن دينار ذكره الزمخشرى ، وهو صريح فى أن الشيطان من الإنس ، كما أنه يكون من الجن ، وهو قول ابن عباس فى رواية عطاء ، وبه قال مجاهد وقتادة ، ومثله ما قال أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تعوذت بالله من شيطان الإنس والجن ؟ » فقلت : يا رسول الله ، وهل للإنس من شيطان ؟ قال : « نعم هم شر من شياطين الجن » رواه الشيخ هود بلا سند ، وكذا البغوى ، ورواه الطبرانى بسنده ، وكذا فى لفظ الشيخ هود أن أبا ذر رحمه الله قام إلى الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس » إلخ وليس فى آخرهم شىء من شياطين الجن .

قال أصحاب ذلك القول : شياطين الإنس أشد كما فى الحديث ، لأنه إذا عجز شياطين الجن عن أحد استعانوا عليه بشياطين الإنس ، وتفسير الآية عليه ظاهر هو الصحيح ، فشياطين فى الآية جمع يشتمل شاطين الإنس وشياطين الجن ، ولذلك أضيف للإنس والجن ، فالإضافة للتبعيض ، أى شياطين بعض من الإنس وبعض من الجن ، فهو كقولك : شياطين الإنس وشياطين الجن .

وقال عكرمة ، والضحاك ، والكلبى ، والسدى ، وابن عباس فى رواية عنه : الشياطين من الجن فقط ، وعليه فالإضافة للإنس والجن فى الآية لمجرد الملابسة لا تعرض فيها للتبعيض ، ولو صلح التبعيض بالنسبة للجن ، لكن لا يراد فى الآية لأنه قد جمع مع الإنس ، والمعنى

على هذا الشياطين الذين يلابسون الإنس والجن بالوسوسة ، يوسوسون الجن كما يوسوسون الإنس ، تارة يوسوس الجنى ، وتارة يوسوس الإنسى ، هذا هو الظاهر .

وقال الكلبى : قسم إبليس والعياذ بالله شياطينه قسمين : أرسل قسما إلى الإنس ، وقسما إلى الجن ، فإذا التقوا أعلم هؤلاء ما يقولون ، وأعلم هؤلاء ما يقولون ، فذلك قوله : « زخرف القول غروراً » وكل من الشياطين وباقى الجن من ذرية إبليس ، واسم الجن يشملهم ، وقيل : الجن ليسوا من أولاد إبليس ، والشياطين أولاده ، وهذا قول من زعم أن إبليس من الجن ، وأنه ليس أولهم ، والصحيح أنه أولهم وأبوهم ، والجن كلهم شيطانهم وغيره أولاده .

(يُوحى) يوسوس ويتكلم فى خفاء ، والجملة مستأنفة أو حال من شياطين (بعْضُهم إلى بَعْض) أى يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس بالإغراء إلى الشر ، ووجه آخر أن شياطين الإنس يوسوس بعضهم إلى بعض ، وشياطين الجن يوسوس بعضهم إلى بعض ، وإلى شياطين الإنس ، ولفظ يوحى بعضهم إلى بعض صالح لذلك ، وأيضا إذا فسرنا الوحى هنا بالمناجاة فقد يناجى الشرير من الإنس الشرير من الجن ، إذا كان يتفكر فى الشر ، وأيضا يناجى الكهان من الإنس الشياطين ، وكذلك من يلتحق بالكهان من الأشرار ، وعلى أن الشياطين من الجن فقط ، فالمعنى أنهم يتناجون قد فعلت كذا وكذا من الشر فى الجن أو فى الإنس .

(زُخْرفَ القَوْل) مموه القول ، أى القول الباطل القبيح فى الباطن ، الحسن فى الظاهر ، فإضافة زخرف إضافة صفة لموصوف ، أى

القول الزخرف (غروراً) مفعول لأجله منصـــوب بيوحى ، أى يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروا به ، أو حال من زخرف ، أى حال كون ذلك الزخرف أو القول ذا غرور ، أو حال من بعضهم ، أى غارين ، وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أوشك الشياطين أن تجالس الناس فى مجالسهم وتفقههم فى الدين .

وعن عبد الله بن عمر : أن شياطين أوثقها سليمان بن داود فألقاها من وراء البحر أوشك أن تظهر حيث يقرأ الناس القرآن ، وعن أبى موسى الأشعرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن إبليس اتخذ عريشاً على البحر ، فإذا أصبح ندب جنوده فقال : أيكم فتن مسلماً ألبسه التاج ، فيجىء أحدهم فيقول : لم أزل اليوم برجل حتى سب آخر ، فيقول : سوف يصطلحان ، ثم يجىء آخر فيقول : لم أزل اليوم برجل حتى عق والديه ، فيقول : سوف يبرهما ، ثم يجىء آخر فيقول : لم أزل اليوم برجل حتى زنى ، فيقول : أنت ، ثم يجىء آخر فيقول : لم أزل اليوم برجل حتى سرق ، فيقول : أنت ، ثم يجىء آخر فيقول : لم أزل برجل حتى شرب الخمر ، فيقول : أنت ، قال بعضهم : فأعظمهم عنده منزلا أعظمهم فتنة ، ومراده أنت أهل للتاج .

(ولو شَاء ربُّكَ ما فَعَلُوه) ولو شاء ربك عدم ما فعلوه ، أى ما فعلوا زخرف القول ، أو ما فعلوا إيحاء زخرف القول ، أو ما فعلوا التعادى ، أو ما فعلوا ما ذكر من معاداة الرسل ، أو ما فعلوا الغرور ، أو ما فعلوا ما ذكر كله ، وهذه الأوجه كلها فى هاء إليه أيضا ، وفى هاء ليرضوه ، وفى الآية رد على المعتزلة ، إذ زعموا أن الله لا يشاء الكفر ولا يريده ، وزعموا أن هذه مشيئة إكراه .

(فَذَرْهم وما يفْتَرون) فاتركهم وافتراءهم ، واتركهم والافتراء الذى يفترونه ، فما مصدرية أو اسم موصول ، وافتراؤهم هو كفرهم ومعاصيهم ، إذ زعموا أنها حق ، والمعنى لا يهمنك ، ومن زعم أن المعنى اترك قتالهم ، قال : نسخ بآية السيف ، قال قتادة : كل ذر فى كتاب الله منسوخ بالقتال .

(ولتَصْغِى إليه أفئدةُ الّذينَ لا يؤمنُونَ بالآخِرةِ) عطف على غرورا إذ جعلنا غروراً مفعولا من أجله ، عطفا على المعنى ، لأن المعنى للغرور ، ويسمى فى غير القرآن عطف توهم ، وإنما جىء بلام الجر ولم يقل : وإصغاء أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة إليه بنصب إصغاء عطفاً على غرور ، لأن فاعل لتصغى ، وفاعل عامل المغرور غير متحد فجر ، بخلاف فاعل غرور وفاعل عامله فمتحدان ، والجملتان بين غرور أو لتَصْغى معترفان ، وإذا لم نجعل غروراً مفعولا من أجلـه لم يعطف عليه لتَصْغى ، وعلى كل حال يجوز أن يعلق بمحذوف ، أى وجعلنا لكل نبى عدوًّا لتصغى أو أوجدنا ذلك لتصغى ، أو فعلنا ذلك لتصغى أو نحو ذلك ، وإن يعطف على محذوف متعلق بجعلنا الذى ذكر فى الآية ، أى ليغروا ولتصغى .

إنما يصح التعليق بالجعل المذكر بواسطة العطف على محذوف ، أو بالجعل المقدر مثله ، إذ جعلنا الكلام منسحباً إلى قوله : « يوحى » بأن جعلنا يوحى حالا من شياطين ، وصغوا الأفئدة إليه كفر ، وهو مع ذلك مراد الله تعالى ، وكذا الرضا به فى قوله : « وليرضوه » والمعتزلة منعوا ذلك ، فجعلوا اللام للصيرورة أو للقسم ، كسرت لما لم يؤكد الفعل بعدها بالنون ، أو لام الأمر التهديدى ، ويردّه أن لام جواب القسم لا تكسر ، أكد الفعل بالنون أو لم يؤكد ، ولو زعموا أنها كسرت هنـا

فرقاً بينها وبين لام الابتداء ، وهذا أيضا مبنى على جواز دخول لام الابتداء على المضارع بلا تقدم لئن ، أو دخول لسوف أو السين عليه ، ولو كانت لام الأمر لحذفت الألف وثبوت حرف العلة مع الجازم ضرورة ، وقيل : لغة ضعيفة يعتبر أهلها عمل الجازم بعد تقدير الضمة ، ولكن لضعفها لا يخرج عليها القرآن ، ثم إنه أين نظيرها فى القرآن ؟

ودعوى أن الألف للإشباع تكلف بلا داع ، ثم إن حذف النون فى ليرضوه يضعف جعل اللام فى لتصغى لام جواب القسم ، لأن العطف عليه ، وادعاء أن النون حذفت تخفيفا تكلف ، والصغو والصغى الميل ، أى ولتميل إليه أفئدة ، يقال : صغا يصغو كدعا يدعو ، وصغا يصغى كعلم يعلم ، ولتميل إلى الباطل أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة فيتبعوه •

(وليرْضَوْه) لأنفسهم ديناً (وليقْتَرِفُوا) يكتسبوا ويتناولوا (ما هُم مقْتَرِفُون) إياه ، وفسر الزجاج الاقتراف بالكذب ، وهو تفسير بالمعنى المراد فى الآية ، وإلا فليس الاقتراف فى اللغة الكذب ، بل الاكتساب كما قال جل وعلا : « ومن يقترف حسنة » ومع كونه تفسيرا بالمعنى يضعف من وجه آخر أيضا ، وهو ليس المراد اقتراف ألسنتهم ، بل المراد كسب السيئات فى القلب أو باللسان أو بالجوارح •

(أفغيْر الله أبتَغى حَكَماً) قل يا محمد للمشركين الذين يبتغون غير الله حكما : أفغير الله أبتغى حكما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبتغى غير الله حكما لكن قد يحتمل عند المشركين أن يبتغى حكما غير الله ، ولذلك أمره الله أن يقول لهم ذلك ، إنكاراً عليهم ، وهب أنه لم يحتمل ذلك عندهم ، لكن أمر أن يقوله لهم رداً عليهم بطريق لطيف ، هو أن الإنسان فى العادة والطبع لا يكره الخير لنفسه ، فبانتفائه من

غير الله حكما ، يعلمون أن ابتغاء غير الله حكما غير صواب عنده ، وقد سموه الأمين ، وعرفوا صدقه ، فلعله يخطر فى قلوبهم أن ينتفوا مما انتفى .

وكان مشركو قريش يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعل بيننا وبينك قاضياً حَكَماً يميز المحق منا من المبطل ، فأمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله : « أفغير الله أبتغى حكما » أعنى نزلت الأنعام جملة وفها هذه لآية جواباً لهم على طريق التعجب والإنكار ، كيف أطلب حكما يحكم بيننا ، ويفصل المبطل من المحق غير الله ، وقد حكم بيننا ، والهمزة مما بعد الفاء أو داخلة على محذوف أى أأكفر فاطلب غير الله حكما ، وغير مفعول لأبتغى ، وحكما حال من غير ، ولو كان نكرة لا يتعرف بالإضافة ، أو غير حال من حكما ، ولو كان حكما نكرة لتقدم الحال ، وحكما مفعول لأبتغى ، أو غير مفعول لأبتغى ، وحكما تمييز ، والحكم الذى لا يحكم إلا بالعدل وهو أخص من الحاكم .

(وهُو الَّذِى أنزلَ إليكم الكِتابَ مُفصَّلا) الواو للحال ، والجملة حال ، وصاحب الحال ضمير أبتغى ، كقولك : جاء زيد والشمس طالعة ، والكتاب القرآن ، ومفصلا حال من الكتاب ، ومعنى مفصلا مبين فيه الحق من الباطل ، كيف أبتغى حكما غير الله ، وقد حكم الله فى كتابه الذى أنزل ببيان ما هو الحق ، فلا نحتاج إلى حكم مع حكم الله ، ولا يصح حكم غيره ، ومحصل قوله : « أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا » أن القرآن مغن فى الحكم بيننا عن سائر الهبات من حيث إخباره بالغيوب ، ومن حيث بلاغته ، وكيف أبتغى حكما والحال أيضا أن التوراة والإنجيل شاهدان لى ، وحاكمان لى بالصدق والنبوة والرسالة كما قال :

(والَّذينَ آتيناهُم الكِتابَ يعْلمونَ) من الكتاب وهو التوراة ، والإنجيل وهم اليهود والنصارى (أنه) أى الكتاب الذى أنزل مفصلا وهو القرآن (مُنزَّلٌ من ربِّكَ بالحقِّ) مقترنا ، الحق بأهل الكتاب يعلمون أنه رسول الله ، والقرآن من عند الله ، ولكن ينكرون عناداً وحسداً ، ومن لم يقرأ الكتاب من اليهود والنصارى ، ولم يسمعه ولم يفهمه ، ففى حكم من علمه لوضوح دلائله بحيث تدرك بأدنى تأمل ، ويجوز أن يراد أهل الكتاب الذين آتاهم الكتاب مــن قراءة ، أو سمعه وعلمه لا مطلق اليهود والنصارى ، وقيل : المراد بالذين آتيناهم الكتاب علماء الصحابة ، ورؤساؤهم كأبى بكر وعمر وعلى ، هذا فالكتاب القرآن لا التوراة والإنجيل ، ويجوز أن يراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن منهم ، كعبد الله بن سلام ، والجملة معطوفة على جملة الحال قبلها ، وقرأ ابن عامر وعاصم من طريق حفص عنه بفتح نون منزل وتشديد زايه .

(فلا تكونَنَّ) يا محمد لفظاً لكونه الإمام ، والمراد أمته معنا لأنها التى يمكن امتراء بعضها فى أنه رسول الله ، والقرآن مــن الله ، دونه صلى الله عليه وسلم ، أو يا كل من يمكن منه الامتراء ، وكل أحد ينبغى أن لا يمترى لوضوح الدلائل ، أو يا محمد على طريق ازدياد التمكن والمبالغة فى الصدق ، أو يا محمد على أن الامتراء فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن من الله ، فهذه أربعة أوجه .

(مِنَ المُمتَرينَ) من الذين يشكون فى أنه منزل من ربك ، وأنك رسول منه ، أو فى أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك ، وهذان الوجهان كل واحد سائغ فى جميع الأوجه الأربعة يترجح الأول فى الثلاثة الأولى والثانى فى الرابع .

(وتمَّت كَلمةُ ربِّكَ) أى معلوماته ، أى كملت لا زيادة عليها ،

لأنه لا يجهل ولا تبدو له البدوات ولا نقص منها لتحقق علمه ، فهو كقوله صلى الله عليه وسلم : « قد جفّ القلم بما كان وما يكون » فهو صادق فيما أخبرنا به منها ، وعادل فيما حكم به منها كما قال .

(صِدْقاً وعَدْلا) أى صادقات ، أو ذوات صدق ، أى أخبر بها وعادلات ، أو ذوات عدل إذا حكم بها ، فهما حالان من الكلمات ، ودخل فى ذلك ما فى القرآن من الخبر والحكم ، أو الكلمات ما أنزل الله من كلمات فى كتبه ، ومنها القرآن ، وفى غير الكتب كوحى ما ليس من الكتاب ، أو الكلمات كلمات القرآن ، ففى هذين الوجهين يكون التمام بمعنى بلوغ الغاية فى الصدق ، من حيث ما هو خبر ، ودخل فيه الوعد والوعيد ، وبلوغ الغاية فى العدل من حيث ما هو حكم .

ويجوز أن يراد بالكلمات لفظ القرآن لا باعتبار أخباره وأحكامه ، بمعنى أنه بلغ الغاية فى الإعجاز ، دالا على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وعادلا فى حكمه ، بحيث لا يبقى احتياج إلى معجز آخر ، وآية أخرى ، فضلا عن أن يطلب آيات سواه ، والنصب أيضا على الحال ، ويجوز أن يكون على التمييز أو التعليل ، أى لصدق وعدل ، وقرأ الكوفيون ويعقوب : كلمة ربك بالإفراد ، وفيه ما فى قراءة الجمع من الكلمات ، لأن المفرد يجوز أن يراد به الجمع إذا أضيف ، لأن الإضافة تكون للاستغراق أو للعهد وللحقيقة ، فالاستغراق ظاهر ، وكذا الحقيقة ، والمعهود القرآن أو الكتب كلها ، ووجه إخراجه سمى الكلمات كلمة لانضباطها فى التصديق والصدق ، وكونها حجة وإعجازاً ، وهذا فى القرآن .

(لا مُبَدِّل لِكلماتِه) أى لا أحد يبدل معلوماته التى قضاها

بزيادة أو نقص ، أو جعل شيء فى مكانها لا أصدق منها ، ولا أعدل ولا مساوى ، بل لا صدق ولا عدل البتة فى مخالفة أمر الله ، ودخل فى ذلك أن الشقى لا يسعد ، والسعيد لا يشقى ، وذلك أن التبديل بمعنى التغيير ، والزيادة على الشيء والنقص منه تغيير لحاله ، وتبديل بحال أخرى ، فإن كون الشيء ثلاثة غير كونه اثنين ، فـلا راد لقضـائه ، ولا خلف لوعده ووعيده ، أو لا مبدل لما أنزل الله تبديلا مستمراً ، فربما بدل شيء ثم يظهر الحق •

ويجوز أن يراد بالكلمات كتب الله ، فإنها ولو بدلت لكن لا يستمر بأن يظهر الحق بعد ، كما حرّف اليهـود وظهر تحريفهم ، وأن يراد القرآن الكريم وحده ، وعلى هذا الوجه يكون قوله : « لا مبدل لكلماته » ضماناً من الله تعالى بالحفظ ، كقوله تعالى : « وإنا له لحافظون » ويجوز أن يراد لا وحى ولا كتاب بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، تبدل القرآن بالنسخ •

(وهُوَ السَّمِيعُ) أى الذى يسمع ما يقولون (العَليمُ) أى العليم بما فى صدورهم وأحوالهم فيجازيهم على ذلك •

(وإنْ تُطِعِ أكْثر مَنْ فِى الأرْضِ يُضلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) أكثر أهل الأرض فى الدنيا جميعا حين بعث رسول الله صلى الله عليـه وسلم مشركون ضالون ، والمشرك والضال لا يدعو إلى رشاد فى الدين ، بل يضلون من أطاعهم فى أمر الأصنام والبعث ونحو ذلك من الأصول والفروع ، كما وجد قريشاً يعبدون الأصنام ، وينكرون البعث ، ويحرمون السائبة والوصيلة والحامى والبحيرة ، ويحلون الميتة ، ويقولون : لم حرّمت ما قتل الله وحللت ما قتلت ؟ ويقولون : الملائكة بنات الله ، ووجد أهل

الكتاب يقولون : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، ويصوبون من كفر من آبائهم ، ويرضون فعله ، فلا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أطاعهم فى اعتقاد أو عمل لأضلوه ، وإن لم يتحرز منهم خاف أن يوقعوه فى ضلال ، وسواء فى الوجهين أن يضلوه بما دانوا به من ضلال ، أو بما جهلوا ، أو بما تبعوا فيه هواهم (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ) هو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، فهو تمسك بتقليد ، ويجوز أن يراد بالظن الديانة الفاسدة التى اعتقدوها صواباً لجهلهم ، قيل نزلت : « وإن تطع أكثر » الآيات إلى « المشركين » فى جملة الأنعام جواباً لقولهم تأكل يا محمد بسكينك ، وتترك ما قتل الله وأنت تعبده •

(وَإِنْ هُمْ) ما هم (إِلاَّ يَخْرُصُونَ) يحزرون أنهم على الحق كما يحزر التمر على النخل ، فقد يكون كما حزر أو أقل أو أكثر ، فكل ما يقولون إنما هو على تحزير وتقدير ، فتمسك بما أنت عليه ولا تتبعهم ، وقيل : المعنى ما هم إلا يكذبون على الله فيما ينسبون إليه من ولد وتحليل وتحريم ، ولم يكن كذلك •

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ) منك ومن غيرك (مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ) أعلم اسم تفضيل ، واسم التفضيل لا ينصب المفعول على التحقيق ، ولا يضاف لما ليس منه ، فليست من مفعولا به لأعلم ، لأنه اسم تفضيل ولا مضافاً إليها ، لأن الله لا يطلق عليه أنه ممن يضل عن سبيله ، بخلاف أرحم الراحمين ، وأحسن الخالقين ، فإنه يرحم ويخلق ، أى يقدر بمن مفعول لمحذوف ، أى يعلم من يضل ، وقال الكوفيون : ينصب المفعول به ، وقد يقال : إن اسم التفضيل هنا خارج عن معناه ، ومعناه هنا عالم فهو كاسم الفاعل ، فنصب المفعول به •

وقرىء يُضل بضم الياء ، فيكون ليضل فى هذه القراءة مفعول ،

أى من يضل الناس فيجوز بالصناعة أن تضيف اسم التفضيل إلى من فى هذه القراءة ، لجواز أن تقول أضل الله أحداً ، كقوله تعالى : « من يضلل الله » ولكن يتبادر معنى المفعول ، أى يعلم من يضل الناس ، أو يعلم من يضله أى يضله الله ، فيكون من مفعولا لمحذوف ، أو عـالم بمعنى عالم ، وإلا فما فائدة قولك : الله أعلم المضلين ، اللهم إلا أن يقال : المعنى هو أعلم بطرق الإضلال من غيره من المضلين ، وإضلال الله خذلانه ، ومعنى أضله صيّره ضالا ، أو وجده ضالاً ، والأنسب بقوله :

(وهُو أعْلم بالمهتَدِينَ) أن يكون مَن مفعولا فى قراءة فتح الباء وضمها لمحذوف ، أو لأعلم بمعنى عالم ، وذلك أن المهتدين هـم المعلومون ، فيناسبه أن يكون من يضل هـو المعلوم ، وقراءة الفتح أنسب به ، لأن معناه الضال وهو مقابل المهتدى ، وأما المضل بفتح الضاد فمقابله المهدى اسم مفعول ، ومَنْ اسم موصول أو نكرة منعوتة بقوله : « يضل عن سبيله » والباء للإلصاق .

(فكلُوا مما ذُكر اسْمُ اللهِ عليهِ) قيلَ : الخطاب للمؤمنين والباء سببية عما تأثر فيهم من الزجر عن اتباع المضلين ، أو رابطة لجواب شرط محذوف أى إن تحققتهم ضلالهم أو إن انتهيتم عن اتباعهم ، فكلوا مما ذكر اسم الله عليه عند الذكاة لا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات بلا ذكاة ، أو بذكاة بلا ذكر عليه ، إلا ما ذبح مؤمن ولم يذكر عليه اسم الله نسياناً فقيل : يؤكل ، وقيل : لا ، وقيل : إنه يؤكل ولو تعمد تركها بلا إنكار لها ، ولا قصد مخالفة ، وقائل هذا يرى أن الآية فى تحريم ما ذبح على اسم غير الله تعـالى ، والآية ولو سـيقت جواباً لقولهم للمسلمين تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ، لكن صح أن تكون

جواباً باعتبار مفهومه ، وهو أن ما مات بلا ذكاة لا يذكر اسم الله عليه ، فكأنه قيل : فكلوا مما مات بذكاة وذكر اسم الله ، لا مما مات بلا ذكاة ، ولا مما مات بذكاة ولم يذكر اسم الله وحده عليه .

ولا مانع من أن يكون فى الجواب زيادة عما الكلام فيه ، وأكد ذلك بالتصريح بعد إذ قال : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله » وقيل : لعلهم كانوا يحرمون المذكاة ، ويبيحون الميتة فرد عليهم بإباحة المذكاة ، لكن مع اسم الله بقوله : « فكلوا » إلخ ، وبتحريم الميتة بقوله : « ولا تأكلوا » إلخ ، ثم رأيت ما ذكرت قبل هذا القول وجها ثانيا للفخر ، والحمد لله ، وكذا هو تخريج القاضى .

وقيل : الخطاب للمشركين ويضعفه قوله : (إِنْ كُنْتُم بآياته مُؤْمِنِينَ) فإن مثل بهذا إنما يقال لمن آمن ، كأنه قيل : إن تحقق ما عندكم من الإيمان ، لأن الإيمان يوجب تحليل ما حلل الله ، وتحريم ما حرم ، لكن يقويه قوله تعالى :

(ومَا لكُم ألاّ تأكلُوا ممّا ذُكر اسْم الله عليهِ) فإن المتحرجين عما ذبح باسم الله هم المشركون لا المؤمنون ، أى أى شىء لكم من النفع أو الديانة الصحيحة فى أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، بأن ذبح مثلا ، وذكر اسم الله ، اللهم إلا أن يقال : المعنى وما لكم أيها المؤمنون ألا تقصروا أكلكم على ما ذكر اسم الله عليه ، ولا تخلطوا معه أكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، فإن مثل هذا قد يقال لمن لا يخلط معه ، لكن أؤكد عليه بترك الخلط أو عرض بغيرهم كقوله : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » وما مبتدأ استفهامية إنكارية وأن لا تأكلوا على تقدير الجار كما رأيت ، وهذا أولى مما قيل : إن زائدة للتأكيد ناصبة ، والجملة

بعدها حال من الكاف ، ولا يقدر الجار ، ويدل لهذا الوجه الذى هو أن المعنى ما لكم أيها المؤمنون ألا تقصروا أكلكم على ما ذكر اسم الله عليه قوله :

(وقَد فصَّل لكُم ما حرَّم علَيكم) أى كيف لا تقصرون الأكل على ما ذكر عليه اسم الله ، وتتركون ما حرم عليكم ، وقد بينه الله لكم فلا عذر لكم فى ترك الاقتصار ، وأما عـلى أن الخطاب فى ذلك كلـه للمشركين ، فالمعنى كيف تتحرجون مما ذكر اسم الله عليه ، وهو غير محرم ، والمحرم هو ما فصَّل الله لكم تحريمه بقوله : « حرمت عليكم الميتة » الخ فى المائدة ، أو قوله فى الأنعام : « قل لا أجد فيما أوحى إلىَّ محرماً » الخ نفى أن يقال كيف قال ، وقد فصل ، وهو عند قراءة الآية التى هنا لم يفصل ، بل سيفصل بعد فى هذه السورة بقوله : « قل لا أجد » الخ أو سيفصل بعد الهجرة فى المائدة إذ هى مدنية من آخر ما نزل ، فيجاب والله أعلم بأن المعنى قد فصل لكم فى اللوح المحفوظ ، أو فى الغيب عنده ، أو فيما سينزل من القرآن ما حرم عليكم فى ذلك أيضا ، فلا يحل لكم أن تحرموا من عندكم شيئا أحلوا ما أحل الله ، وانتظروا ما ينزل الله من الأحكام مطلقا ، فمهما وجدتم فيها فاعملوا به .

أو يجاب بأن المعنى قد فصَّل لكم فى آخر هذه السورة ما حـرم عليكم ، فالسورة مضت وتمت عند الله ولو قبل نزولها ، فصحت صيغة الماضى ، وهذان الجوابان أحسن ما استخرجته بفكرى والماضى فيهما على أصله ، وظهر لى وجه ثالث هو أن فصَّل بمعنى يفصل ، أى وقد يفصل بعد عليكم ، فالماضى بمعنى المضارع ، وهذا وجه ثالث لى .

ووجه رابع أن الآية يحتمل أنها نزلت بعد نزول المائدة ، وجعلت

فى الأنعام بأمر الله ، وأما ما فى تفسير من تقدم قبلى ، فقال الفخر : المراد التفصيل لما حرم بقوله : « لا أجد » لقلة هذا التأخير ، وهو مقدار تلاوة ما بين الآيتين ، وتلاوة الأخيرة وإتمام السورة ومضيتها قبل نزول جبريل بها ، وهذا والحمد لله بعض الأوجه التى ذكرت ، لكن باعتبار قوله : وإتمام الخ ، وقد حكيت كلامه بالمعنى .

وانظر هذا الوجه الذى أذكره الآن وهو أن ترتيب السور فى اللوح المحفوظ هو على ترتيبها فى المصحف ، فالمائدة قبل سورة الأنعام فى اللوح المحفوظ ، ولو تأخر نزولها عن الأنعام ، فالمعنى باعتبار ترتيب اللوح المحفوظ والله أعلم ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وابن كثير فصل بالبناء للمفعول ، وغير نافع ويعقوب وحفص حرم بالبناء للفعول .

(إلاّ ما اضْطُرِرْتم إليه) فإنه حلال أيضا ولو كان مما فصل لكم تحريمه بأن تشارفوا الموت أو ذهاب حاسة بالجوع ولم تجدوا سواه والذى اضطرهم هو الله ، والفعل مبنى للمفعول وهو مفتعل من الضر ، والطاء عن تاء ، والاستثناء منقطع ، أى لكن ما اضطررتم إليه يحل لكم ، وما موصول اسمى أو نكرة منعوتة ، ولا تصح أن تكون ما فى قوله : « ما حرم عليكم » حرف مصدر لضعف قولك : قد فصل لكم تحريمه عليكم ، وهب أنه لا ضعف فيه ، لكن لا يكون الاستثناء به متصلا ولو ضمنا الظرفية إلى مصدريتها ، لأن المعنى حينئذ قد فصل لكم مدة التحريم عليكم ، فإذا ضمت إليها الظرفية فالظرف مفعول ، أو المفعول الأشياء محذوفا ، أى قد فصل لكم الأشياء التى حرم عليكم مدة تحريمها ، وليس ما اضروا إليه زماناً فيكون مستثنى من المدة استثناء متصلا .

نعم رأيت بعض المتأخرين من الترك ، حاول الاستثناء المتصل بأن

جعل ما فى قوله تعالى : « ما حرم عليكم » اسماً وما فى قوله : « ما اضطررتم » ظرفية مصدرية ، والظرف مستثنى استثناء متصلا من ظرف المحذوف ، أى وفصل لكم ما حرم عليكم فى جميع الأوقات إلا وقت اضطراركم إليه ، وهذا إنما يتم له على قول ابن الحاجب بجواز حذف الظرف المستثنى فى التفريع تسيمته حال الإثبات ، وفى تسميتها ظرفية مصدرية فى الآية ، لأنها ليست ظرفية ، بل المصدر هو ظرف الزمان لنيابته عن اسم الزمان ، وإنما يقال : الظرفية إذا كان المعنى بأدام كذا سواء مع لفظ الدوام أو غيره ، لكن سماها ظرفية ، لأن المصدر المشتبك بها نائب عن الظرف ، وذكر أيضا وجها آخر للأشياء المتصل ، على أن ما فى الموضعين اسم ، وأن معنى ما حرم هو الميتة والدم ونحوهما تعتبر هذه الأشياء بقطع النظر عن تحريمها ، فيدخل فيها ما اضطررتم إليه .

(وإن كثيراً ليضلُّونَ) فى أنفسهم بتحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، وقراءة الكوفيين بضم الباء أى يضلون غيرهم (بأهوائهم) بتشبيههم فإنهم يحللون ويحرمون بأهوائهم كتحليل الميتة ، وتحريم ما ذبح باسم الله والبحيرة ونحوها ، فتقديرى بتحليل قبل بأهوائهم تقدير معنى ، وإن شئت فقدر بتشريع أهوائهم الحلال والحرام .

(بغَيْرِ علمٍ) بدل اشتمال من بأهوائهم أو متعلق بأهوائهم لتأكيد لأنهم يتشبهون بغير علم يجيئهم من الله أن هذا حلال أو حرام أو بغير دليل يفيد العلم ، أو حال من أهواء ، ومن الهاء أو من الواو مؤكدة ، ووجه التأكيد أن العمل بالهواء مجرد عن علم ، وإنما يقال : وافق الحق الهوى ، إذا وافق لا عمل بهوى ، ووافق الحق ، وهذا حيث وافق (إنَّ ربَّكَ هو أعْلَم) من غيره (بالمعْتَدِين) المجاوزين الحق إلى

الباطل ، ثم رأيت القاضى قال : المجاوزين الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام .

(وذَرُوا) عطف على كلوا داخل فى تسببه ، أو معترض بين كلوا أو لا تأكلوا (ظَاهِرَ الإِثْمِ وبَاطِنَهُ) اتركوا الإثم كله ، والإثم الذنب شرك أو كبيرة أو صغيرة ، وظاهر الإثم ما كان على اللسان متحركاً به ، ولو لم يسمع أحد ، ولو لم يكن هناك إنسان ، لكن لا يخلو من الملك والجن ، وما كان على الجوارح ، ولو لم يحضر أحد كذلك ، فإن الظاهر من الأشياء ما برز حتى أنه لو كان أحد لأحس به ، فمن خرج من بيته سمى ظاهراً منه ولو لم يره أحد ، وباطنه ما كان فى القلب ، ووجه آخر ظاهر الإثم ما يعلم أنه ذنب ، وباطنه ما لا يعلم أنه ذنب إلا بتدقيق النظر كدسائس النفس والشيطان ، فكم معصية فى صورة مباح أو طاعة ، هذان ما ظهر من الوجوه بالتأمل .

وأما بالنقل فقال سعيد بن جبير : الظاهر تزوج ما لا يحل تزوجه ، والباطن الزنى بمن لا يحل تزوجه ، أو بمن يحل ، وقال السدى : الظاهر الزنى بمن شهرن للزنى ، والباطن اتخاذ الصاحبة للزنى سراً ، ومثله للضحاك قائلا : كانوا فى الجاهلية يرون الزنى سراً حلالا ، فحرم الله سره وعلانيته ، وعن ابن زيد : الظاهر التعرى فى الطواف ، والباطن الزنى ، وقال الكلبى : الظاهر تعرى الرجل فيه نهاراً ، والمرأة ليلا ، وكانوا يفعلون ذلك ، وقيل : الظاهر فعل الذنب ولو فى القلب أو سرا ، والباطن تركه خوفاً من الناس لا من الله .

(إنَّ الذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ) ويصرّون عليه ولو صغيراً (سَيُجْزَوْنَ) فى الآخرة (بما كانُوا يَقْتَرِفُونَ) يكسبون فى الدنيا من الإثم .

(ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) بأن ذكر عليه اسم الصنم أو لم يذكر عليه شيئا ومات بلا ذكاة ، فلو ذبح مسلم ونسى التسمية أكلت ، وقيل : لا وإن تعمد لم تؤكل ، وقيل : تؤكل ، ووجهه أن المراد عند هذا القائل بما لم يذكر اسم الله عليه ما ذكر للصنم ، كقوله تعالى : « أو فسقاً أهل لغير الله به » فإنه ما ذكر عليه اسم الصنم ، وقد قال فى هذا إنه فسق .

(وإنَّهُ لفسقٌ) فالفسق هنا ما هنالك ، وهو ما ذكر عليه اسم الصنم فالهاء ما لم يذكر اسم الله عليه ، أى وإنه لفسوق به ، أو سمى فسقا مبالغة ، والأولى ردها إلى الأكل ، أى وإن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لفسق نفاق ، وقيل : المراد أكله بإباحة فالمراد فسق شرك ، ودل عليه لا تأكلوا ، أخذ أحمد وداود الظاهرى والشعبى وابن سيرين وابن عمرو ، ونقله الفخر عن مالك بظاهر الآية ، فقال : ما لم يذكر عليه اسم الله عمداً أو نسياناً حرام ، وهذا فى ذكاة الحيوان ، وهو قول عطاء ، وزعم عطاء مع ذلك أن كل طعام أو شراب لم يذكر عليه اسم الله فهو حرام ، فمن أكل أو شرب ولم يسم فقد أكل حراماً أو شرب حراماً ، واختص بذلك وحده ، فإن نسى فقال إذ ذكر : الحمد لله أوله وآخره حل ما أكل قبل .

والمجتهد ليفسق من خالف من المقلدين اجتهاده ، إلا إن أخذ بمذهب مجتهد آخر ، فمن رأى أن المذبوح بلا ذكر الله ميتة حكم يفسق أكله ومبيحه من المقلدين ، لا كما قيل : إن المسلمين أجمعوا أنه لا يفسق بأكل ذبيحة المؤمن الذى ترك التسمية ولو عمداً ، وأما ما ذبح الكتابى بغير ذكر فقيل حلال ، وقيل لا والذى عندنا أن الذبيحة بلا ذكر لله عمداً ميتة ، وبلا عمد قولان ، سواء من الكتابى أو من المؤمن ، والظاهر أن

ذبيحة أهل الكتاب أباحها الله مطلقا بديانة ، والقول بأنها تحل بلا ذكر الله ولو عمداً منسوب للشافعي ومالك وأحمد في رواية عنهم وهو رواية عن ابن عباس ، ذلك ما لم يكن إن تارك مستخففا وإلا فسدت .

واحتجوا بأن المؤمن على ذكر الله تعالى ما دام مؤمناً إن لم يذكر في الذبح ، وبما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليها » وهذا عام في الترك عمداً ونسياناً ، ولو كان سبب حديث آخر النسيان حيث روى أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن تارك التسمية نسياناً فقال : « كلوه فإن تسمية الله في قلب كل مؤمن » فإن لفظ الجواب عام وحمله بعض على النسيان فقال : لا تفسد بالنسيان وتفسد بالعمد ، وهو رواية عن أحمد ، وهو قول أبي خليفة وسفيان ، واحتج بأن الهاء عائدة إلى ما يدل عليه أقرب مذكور ، وهو لم يذكر أي ، وإن عدم الذكر لفسق ، ومعلوم أن الفسق إنما هو بالعمد ، وبحديث جواب السؤال عن الناسي ، واعتبر سبب الحديث فحرم ما ترك عمداً فقط ، ونسب هذا القول للجمهور ، ومما احتج به الشافعي على حلها ولو تعمد الترك قوله :

﴿ إنَّ الشَّياطين ليوحُون إلى أوليائهم ليجادلُوكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإنْ أطعتُموهم إنكُم لمشركونَ ﴾ وذلك أن الجدال قولهم : أخبرنا يا محمد عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ قال : « الله قتلها » فقالوا : كيف تحلون ما قتلتموه أنتم أو كلابكم أو صقوركم فتأكلونه وتحرمون ما قتله الله ولا تأكلونه ؟ وقولهم : نأكل مما ذبح باسم إلهكم ولا تأكلون ما ذبح باسم آلهتنا ، والمجوس أرسلوا إلى قريش لما نزل تحريم الميتة بهذا الجدال ، وعلموهم إياه ، وكانت بينهم مكاتبات على الروم ، فدل على أن الكلام في الميتة ، والمذكور عليه اسم غير الله ، وذكر الله الإشراك

وهو بإباحة الميتة ، وما ذبح باسم غير الله ، وعلمت من ذلك أن الشياطين المجوس مجوس فارس ، وهم الذين أوحوا أى أرسلوا بهذا الجدال إلى قريش ، وهو قول عكرمة ، وان أولياءهم قريش ، وأن الإيحاء هو هذا المذكور ، وسأل الجدال •

والظاهر أن الشـــياطين يعم المجوس وشـــياطين الجن ، لأن الكل يوسوس ، بل لو قيل شياطين الجن لأمكن ، لأنهم الموسوسون للمجوس بالإرسال ، ولقريش بالمواطأة ، ثم رأيت هذا قول ابن زيد وعبد الله ابن كثير ، ووحى شياطين الجن بالوسوسة وألسنة الكهان ، ولما جادل قريش رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم بذلك ، وقع فى نفوس بعض المؤمنين فنزل : « وإن الشياطين » إلى « لمشركون » ومذهبنا ومذهب الأشعرية ، ومذهب المعتزلة وغيرهم أن المعنى وإن أطعتموهم فى إباحة الميتة كنتم مشركين •

وقالت الصفرية بأنواعهم : إن أطعتموهم فى أكلها ولو بدون إباحة أشركتم ، والهاء فى أطعتموهم عائدة إلى الأولياء الراجع إليهم واو يجادل ، والكلام محطة ذلك ، ولو أمكن عودها إلى الشياطين وحدهم أو إليهم وإلى الأولياء : « وإنكم لمشركون » جواب قسم مقدر قبـل إرادة الشرط يغنى عن جواب الشرط ، وقيل : جواب إن حذفت منــه الفاء على القلة ، وقيل : لكون الشرط ماضياً ، وقيل : جواب إن محذوف أى هلكتم أو فسقتم •

(أوَ مَن كانَ مَيْتاً) شبيهاً بميت فى عدم الانتفاع لنفسه ، وعدم تخليص نفسه من المهالك ، وذلك مخلو قلبه عما هو كالحياة وهو الإيمان ، وتشديد الياء قراءة نافع ويعقوب ، وقرأ غيرهما بإســكانها

(فأحْييْناه) أزلنا مـا فى قلبه مـن الشركُ الشبيه بالمـوت بالتوفيق للإيمان (وجَعَلنا لـهُ نوراً) دلائل وبراهين توصـله إلى الإيمـان شبهية بالنور الذى يهتدى به إلى المطـالب (يمْشِى بهِ فى النَّاسِ) يميز به أعنى بذلك النور بين الضلال والرشاد تميزا شبيهاً بمشى من يمشى فى الناس ذاهباً وراجعاً بينهم فى مصالحه .

(كَمن مثلُه فى الظلمات) أى صفته الغريبة الشبيهة بالمثل فى الغرابة فى الظلمـات مثله مبتدأ ، وفى الظلمات خبره ، وكمن خبر مـن الأولى ، والهمزة مما بعد الواو أو داخلة على محذوف ، ومعنى كون صفته فى الظلمات أنه مغمور بالظلمات غارق فيها ، لا يجد طريقاً ولا يتيسر له التصرف فى مصـالحه ، والخروج عن المضـار ، وذلك هو إشراكـه ومعاصيه الشبيهة بذلك ، ويجوز فإنه بهاء بإشراكه لا ينجو من الشر ولا يفوز بالخير ، ومن أجاز زيادة الأسماء قال مثل مفخم ، والأصل كمن هو فى الظلمات .

(لَيسَ بخَارجٍ منْها) الجملة حال من المستتر فى قوله : « فى الظلمات » حال كونه مقيماً فيها لا يفارقها ، أى ليس بخارج من الظلمات ، أى من الضلالات ، وليست الجملة حالا من هاء مثله ، ولو كان المضاف كجزء المضاف إليه هنا للفصل بالخبر ، ومجموع قوله : « من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » استعارة مركبة كما رأيت بيان إفرادها ولا يشكل معى ذلك ذكر أداة التشبيه فى قوله : « كمن مثله فى الظلمات » لأن هذا لفظ آخر خارج عن تلك الاستعارة .

وقيل : النور نور يوم القيامة الذى أمام المؤمن والظلمات ظلمات يوم القيامة أمام الكافر ، وقال قتادة : النور القرآن ، والظلمات الجهل ،

وعلى كل حال المراد لتمثيل للمؤمن والكافر عموماً ، وهو ظاهر متبادر ، وبه قال الحسن وغيره ، وعن ابن عباس : « من كان ميتا فأحييناه » حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم « ومن مثله فى الظلمات » أبو جهل لعنه الله ، رجع حمزة رضى الله عنه من الصيد ، ودخل المسجد ليطوف وكانت عادته إذا رجع منه أن يطوف قبل أن يدخل بيته ، فأخبر بسب أبى جهل لعنه الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل عليه غضبان يضربه بقوسه ، فجعل أبو جهل يتضرع ويقول : يا أبا يعلى ألا ترى ما جاء به سفّه عقولنا ، وسب آلهتنا ، وخالف آباءنا • فقال حمزة : ومن أسفه منكم عقولا ، تعبدون الحجارة من دون الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فحينئذ أسلم حمزة فنزلت سورة الأنعام جملة وفيها هذه الآية فى شأنه ، وهذا الإيضاح منى •

قال ابن إسحاق : حدثنى رجل من أسلم كان واعية أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هناك مولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمد إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه ، راجعاً من قنص أى صيد ، وكان صاحب قنص يرمى ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش ، وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت : يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفاً من أبى الحكم بن هشام ، وجده هنا جالساً ، فآذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامة ، وخرج يسعى

لم يقف على أحد ، معداً لأبى جهل إذا لقيه أن يقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا فى القوم ، فأقبل نحوه حتى وقف عليه ، فرفع قوسه فضربه فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك علىّ إن استطعت .

فقام رجال بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل لعنه الله : دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت بن أخيه فدام حمزة على إسلامه ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية غير ابن إسحاق أن حمزة قال : لما احتملوا الغضب فقلت أنا على قوله ركبنى الندم على فراق دين آبائى وقومى ، وبت من الشك أمر عظيم ، فما استتممت دعائى حتى زاح عنى الباطل ، وامتلأ قلبى يقيناً ، فغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بما كان من أمرى ، فدعا لى بأن يثبتنى الله ، وقال رضى الله عنه حين أسلم :

حمدت الله حين هدى فؤادى
إلى الإسلام والدين الحنيف

لدين جاء من رب عزيز
خبير بالعباد بهم لطيف

إذا تليت رسائله علينا
تحدر دمع ذى اللب الحصيف

رسائل جاء أحمد من هداها
بآيات مبينة الحروف

وأحمد مصطفى فينا مطـــــاع
فــلا تغشـــــوه بالقــــول العنيف

فـــــلا والله نســـــلمه لقــوم
ولمـــا نقض فيهم بالســــيوف

ونتـــرك فيهم قتـــلى بقـــــاع
عليهـــا الطير كـــالورد العكــوف

وقـــد خبرت مـــا صـــنعت ثقيف
بـــه فجـــزى القبـــائل مـــن ثقيف

وقال الضحاك : نزلت الآية فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأبى جهل لعنه الله ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين » يعنى عمرو بن هشام أبا جهل ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأيده الله عز وجل به .

وقال عكرمة والكلبى : فى عمار بن ياسر رضى الله عنه وأبى جهل ، وقال مقاتل بن سليمان : نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى جهل لعنه الله ، وذلك أن أبا جهل قال : زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا نحن وهم كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى إليه ، والله لا نؤمن إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ، فنزلت الآية ، ومعنى نزول الآية فى ذلك على هذه الأقوال نزول الأنعام وفيه هذه الآية فى هذا الشأن ، والصحيح عموم الآية فتلمح بعمومها إلى هذه الأفراد المدعى نزه لها فيها ، والله أعلم .

(كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلكافِرِين ما كانُوا يعْمَلُون) كما زين للمؤمنين ما كانوا يعملون من الإيمان ، زين للكافرين ما كانوا يعملون من الكفر

المزين للكفر بالله تعالى ، بمعنى أنه خذلهم أو الشيطان بمعنى أنه وسوس لهم ، وتزيين الله الإيمان توفيقه للمؤمنين إليه .

(وكَذلكَ) كما جعلنا فى مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، كذلك (جَعَلنا فى كلِّ قريةٍ أكابر مُجْرميها ليمكرُوا فيها) فى كل قرية مفعول ثان ، وأكابر مفعول أول مضاف لمجرميها ، وتقديم المفعول الثانى هنا واجب ليعود إليه الضمير للمجرمين من مجرميها ، وإلا عاد الضمير المتأخر لفظاً ورتبة ، لا يصح أن يجعل مجرميها مفعولا أول وأكابر مفعولا ثانيا ، لأن أكابر جمع أكبر ، واسم التفضيل يلزم الإفراد والتذكير إذا لم يضف أو أضيف لنكرة ، وأجاز بعضهم هذا الإعراب ، وعلق فى كل يجعلنا ، وأجاز هذا البعض أن يكون فى كل قرية مفعولا ثانيا وأكابر مفعول أول ومجرميها بدل أكابر ، وهذا لا يجوز كالذى قبله للزوم جمع اسم التفضيل فيه مع عدم إضافته ، إلا أن يقال : هو خارج عن باب التفضيل ، على أن يكون أكبر بمعنى كبير .

وقرىء أكبر مجرميها ، فحينئذ يجوز تلك الأوجه كلها لا فى إفراده لأنه إذا أضيف لمعرفة جاز الإفراد والمطابقة ، ويجوز فى القراءتين أن يكون أكابر أو أكبر حالا من مجرميها ، أو من ضمير الاستقراء فى قوله : « فى كل قرية » ويجوز جعل الجعل بمعنى التمكين ، فيكون له مفعول واحد هو أكابر أو أكبر مضاف لمجرميها ، أو هو مجرميها ، وأكابر وأكبر حال من مجرميها ، أو هو أكابر على التأويل بكبيرين أو أكبر ، ومجرمى بدل وإذا لم تجعل فى كل مفعولا ثانيا كان متعلقاً بجعلنا ، سواء بمعنى صيرنا أو بمعنى مكنا .

(ليمكُرُوا فيها) يصدوا فيها الناس عن الدين باحتيال وخدع ،

ويفسد فيها بنميمة وغيبة وبيمين كاذبة ، وترويج الباطل ، والكذب ، والضعفاء ، لا يقدرون على المكر والغدر ، ولذلك جعل المجرمين أكابر فيها ، وذلك ابتلاء كما خلق إبليس ؛ وعن مجاهد : معنى مكرهم أنهم أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر يقولون : محمد كاهن ، محمد ساحر ، محمد مجنون ، محمد علمه بشر ، ونحو ذلك ليصدوا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومثل ذلك عادة فى أقوام الأنبياء ، وكثرة المال والجاه يحملان الإنسان على حفظهما ، فكانوا يتمنونهما ويحافظون عليهما بأنواع الحيل والغدر .

(وما يمكرونَ إلاّ بأنفسهِم) لأن عاقبة مكرهم دائرة عليهم بعد دنيا وأخرى (وما يشعُرونَ) أن دائرته عليهم ، قيل : لما قال أبو جهل : زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف ، حتى إذا صرنا نحن وهم كفرسى رهان قالوا : منّا نبى يوحى إليه ، والله لا نؤمن به إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ، وقال الوليد بن المغيرة للنبى صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سناً ، وأكثر منك مالا ، واستحب كل رئيس من رؤساء الكفار النبوة لنفسه ، أما ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده كما قال مقاتل أراد كل واحد منهم أن يخص بالرسالة والوحى ، وخرج عليه قوله تعالى : « بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة » عاب الله تعالى عليهم بأن أنزل فى جملة الأنعام قوله تعالى :

(وإذا جاءتْهُم) أى رؤساء قريش المرادون بأكابر مجرميها أو كفار قريش (آيةٌ) دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (قالُوا) أى رؤساء أو كفار قريش ، والقائل حقيقة رؤساؤهم (لَنْ نُؤمِنَ) بمحمد وبما يقول (حتّى نُؤتى مِثْل ما أوتىَ رُسُل

الله) المضمون من النبوة والرسالة ، فنكون أنبياء رسلا مثلهم ، وقال مقاتل : الآية فى قول أبى جهل المذكور آنفاً ، وقال الفخر عن المفسرين فى قول الوليد ، واستحسن بعض ما روى عن ابن عباس أنهم لم يطلبوا أن يكونوا رسلا ، بل المعنى حتى ينزل الله علينا جبريل يصدقك ، والصحيح الأول من أنهم طلبوا أن يكونوا رسلا ، لأنه ظاهر قوله : « حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » ولقوله تعالى ردا عليهم :

(الله أعْلمُ حيثُ يَجْعل رِسالتَه) فإنهُ ظاهر فى أن المعنى أنهُ تعالى أعلم ممن يتأهل لأن يكون رسولاً ، وهذا إنما يصح رداً على من يزعم منهم أنهُ أهل للرسالة ، لا على من طلب نزول الملك بتصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى لستم أهلا لها ، لأنكم تطلبونها ، ولأنكم أهل إجرام ومكر ، ولأنكم أهل شرك ومعاص ، ولا نبوة لأهلها ، ولأنكم مطاعون فى قومكم ، فلو أوتيتموها قيل إنكم رؤساء مطاعون فاتبعكم الناس لذلك لا لصحة النبوة ، بخلاف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه يتيم من أبيه وأمه معا ، وليست الرسالة بالمال والسن ، ولا من أجل النسب ، ومع ذلك يبعث الله الرسل من أشراف أقوامهم ، كما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل بالفضائل النفسانية من حيث الدين بلا كسب لها ، أعنى بدون أن يدوم العمل فيترقى إلى رتبتها لا بقصده إليها ، ولا بدون قصده إليها ، وقيل : بالكسب بدون قصده .

وحيث مفعول لمحذوف أى يعلم ، أى يعلم يجعل رسالته ، هذا على جواز تصرف حيث إلى المفعولية ، وأن ما لم يجعل مفعولا به لأعلم ، لأن أعلم اسم تفضيل ، اللهم إلا أن يقال : إنه بمعنى عالم أو عليم ، فنصب المفعول وهو حيث ، وعلى نصبه لمحذوف يكون المعنى الله أعلم بكل شىء يعلم حيث ، والأظهر أن حيث تتعلق بأعلم وهى ظرف ، أى

أعلم فى موضع جعل الرسالة ، أى هو أعلم فى هذا المعنى ولا حصر مراد فى ذلك ، بل هو أعلم فى كل شىء وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم : رسالته بالإفراد وفتح التاء .

(سَيُصيبُ الَّذين أجْرَمُوا صَغارٌ عنْد اللهِ وعَذابٌ شَديدٌ) سيصيب الذين أتوا الله بذنوب عظام ، ذل وحقارة وعذاب شديد بعد كبرهم مجازاة بعد مطلوبهم الذى هو العز والكرامة ، إذ حاولوهما بمعصية الله ، وتلك الإصابة بالآخرة كما قال عند الله ، أى فى الآخرة عند بعث الناس للحساب ، وذلك الحشر والنار ، وسميت الآخرة عند الله ، لأن الناس يحضرون فيه للحساب ، كمن يحضر الملك للحساب ، فعند متعلق بيصيب ، وقيل : عند الله متعلق بمحذوف نعت لصغار ، وإن الإصابة فى الدنيا ، فالعذاب على هذا القتل والأسر والسلب ، وفيه هوانهم وذلهم .

وقيل : يتعلق بمحذوف نعت لصغار ، وهو فى الدنيا بالقتل والأسر والسلب ، والعذاب الشديد فى الآخرة ، ولذلك أخره ، وقيل : إن الصغار والعذاب الشديد كليهما فى الدنيا والآخرة معا ، وإن عذاب شديد فى نية التقديم على عند الله ، وقيل : معنى أجرموا قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله .

(بما كانُوا) بسبب كونهم (يمكُرونَ) أو على مكرهم أى جزاء لمكرهم .

(فَمَن يُرد اللهُ أنْ يَهْديه يَشْرح صَدْره للإسْلامِ) الفاء تعليل للإصابة ، لأن الإصابة تختص بمن لم يشرح صدره وقام التعليل بمفهوم هذا الكلام وبما بعده ، ومعنى الهداية ، والشرح هنا واحد وهو

توفيق القلب لقبول الحق ، والرغبة فيه ، والصدر القلب ، سمى صدرا لأنه فيه ، والشرح التوسيع بأن يقبل الحق ويرغب فيه ، وينبسط له ، ولا ينفر عنه لما فيه من رضا المحبوب سبحانه وتعالى ، والفوز بالجنة والنجاة من النار ، وذلك توفيق ، ولما نزلت الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال : « نور يقذفه الله فى قلب المؤمن وينشرح له وينفسح » قيل : فهل لذلك أمارة ؟ قال : « نعم الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله » .

(ومَنْ يُرِدْ أن يُضلَّه) عن الحق (يجْعَلْ صَدْرَه ضيِّقاً) عن الحق نافراً عنه غير منفسح ، غير راغب فيه ، ولا منبسط له إذ لا يرى داعية إليه محبوبه سبحانه وتعالى ، ولا يعتقد فيه خيراً يصيبه كفوز بالجنة عن النار ، وذلك لجعل ضيقاً هو نفس الإضلال ، وكلاهما هو الخذلان ، وضد الشرح المذكور وعلامته الركون إلى الدنيا بحيث لا تنشط جوارحه للاستعداد للآخرة ، ولا يستنشطها ، بل يتركها ويهملها وقرأ ابن كثير ضيقاً بإسكان الياء وهو وصف مخفف من ضيق بالتشديد أو مصدر أو خبر به عن الجثة مجاز مبالغة كأنه نفس الضيق لعظم ضيقه ، أو بتقدير مضاف ، أى ذا ضيق ، أو تأويله بالوصف ، أى ضائقا ، وكونه وصفاً مخففا أولى .

(حَرَجاً) صفة مشبهة ، أى متعطلا لا يصل إليه الحق ولا يتأثر به ، ولا منفذ فيه للحق ، قاله الكلبى وعن ابن عباس : إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه ، وإذا سمع ذكر الأصنام ارتاح لها ، قرأ عمر الآية وعنده أعرابى من كنانة فقال له : ما الحرجة فيكم ؟ قال : الشجرة التى لا تصل إليها الدابة ترعاها ، ولا الإنسان يقطعها لمنفعة ، فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شىء من الخير ، وروى أن عمر رضى الله

عنه قرأها يوما بفتح الراء فقرأها بعض الصحابة بكسرها ، فقال : ابغونى رجلا من كنانة وليكن راعياً ، وليكن من بنى مدلج ، فلما جاءه قال له : يا فتى ما الحرجة عندكم ؟ قال : الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ، قال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شىء من الخير .

وقرأ ابن عباس فقال : هل ها هنا أحد من بنى بكر ؟ قال رجل : نعم ، قال : ما الحرجة فيكم ؟ قال : الوادى الكثير الشجر المشتبك الذى لا طريق فيه ، فقال ابن عباس : كذلك قلب الكافر ، يعنى لا يعى علماً ولا دليل التوحيد ، وصف الله جل جلاله صدره بأنه ضيق نافر عن الحق ، ثم بأنه متعطل شبيه بذلك الشجر لا مطمع فيه ، ولو فسرنا ضيقاً بما فسرنا به حرجا ، وحرجا بما فسرنا به ضيقا لجاز ، لأن الحرج الضيق ، والجمع بينهما تأكيد ، والآية نصت أن الإيمان والضلال بمشيئة الله ، وكسر رائه قراءة نافع وعاصم من رواية أبى بكر عنه ، وقرأه الباقون بفتحها مصدراً أخبر به عن الجثة المبالغة كأنه نفس الضيق ، أو بتقدير مضاف ، أى إذا حرج أو بمعنى الوصف ، وقيلَ المفتوح والمكسور كلاهما وصف ، والأظهر ما ذكرته ، وحرجاً مفعول ثان بعد مفعول ثان ، ومن أجاز وصف الصفة أجاز كونه نعتاً لضيقاً .

(كأنَّما يصَّعَّدُ) يتصعد يتفعل من الصعود لتكلف ، أبدلت التاء صاداً وسكنت وأدغمت فى الصاد ، أى يعالج ويتكلف الصعود بجسده (فى السَّماء) أى فى جهة السماء ، فهى على ظاهره لأنه يوقع تكلف الصعود فى تلك الجهة ، والدخول فيها ، والمعنى أن متابعة الحق عنده صعبة شديدة متعذرة كصعوبة وشدة ، وتعذر الصعود إلى السماء فى الهواء بلا درج ، فهو لا يؤمن كما لا يصعد فى السماء ، ويجوز كون

فى بمعنى إلى ، ويجوز أن يراد بالسماء جهتها بلا استشعار وصولها ، وأن يراد بالتصعد فى السماء التصعد إلى أعلى عقبة كئود صعبة لا تتيسر .

ويجوز أن يكون المعنى أنه ليس يستشعر أن الإسلام صعب متعذر كالصعود للسماء ، بل مجرد أنه بعيد عن الإيمان كبعد الصعود إلى السماء ، وقرأ شعبة وابن مسعود يتصعد بفتح التاء والصاد وتشديد العين ، وهى أصل القراءة الأولى ، وقرأ عاصم من رواية أبى بكر عنه يصاعد ألف بعد الصاد المشددة ، وتخفيف العين ، أصله يتصاعد بتاء قلبت صاداً ، وأدغمت فى الصاد ، وهؤلاء القراءات الثلاث فيها مبالغة والصيغة فيهن لتكلف الشىء .

وقرأ ابن كثير يصعد بإسكان الصاد ، وهو مضارع الثلاثى ، وقرئ يصعد بضم الياء وإسكان الصاد وكسر العين مضارع أصعد بمعنى صعد ، وكأن للتشبيه ، وما صلة لتأكيد التشبيه مسبقة لدخولها على الجملة الفعلية ، وبطلان عملها ، والجملة مستأنفة ، أو مفعول لمفعول ثان ، أى مفعولا فيه كأنما يصّعد فى السماء ، والتحقيق أن الشرح والتضييق لم يرد بهما شأن التوحيد والشرك فقط ، بل شأنهما وشأن العمل ، وفسوق الموحد ، فإن الموحد الفاسق قد جعل صدره ضيقا حرجاً أيضا كأنما يصّعد فى السماء .

(كَذَلِكَ) أى كما يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد فى السماء (يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ) العذاب فى الدنيا والآخرة (عَلَى الَّذِين لا يؤْمنونَ) لأجل عدم إيمانهم ، إذ ضاقت صدورهم عنه باختيارهم ، فجازاهم الله بالرجس على ذلك وهو العذاب كما رأيت ، وهو قول ابن عباس ، وقيل : يحتمل أن يكون الرجس فى الدنيا ، فيكون بمعنى

اللعنة أو فى الآخرة ، فيكون بمعنى العذاب ، قال الزجاج : الرجس فى الدنيا اللعنة ، وفى الآخرة العذاب ، قلنا : لا يلزم ذلك ، لأن الرجز وهو الرجس قد ورد فى القرآن بمعنى عذاب الدنيا كقوله تعالى : « وأنزل عليهم من السماء » الآية .

وقال مجاهد : الرجس أعم من العذاب ، فهو يعم كل ما فيه شر ، وعن ابن عباس : الرجس الشيطان ، وجعله عليهم تصديقه عليهم ، فإنهم لما اختاروا الضلال ازداد عليهم أطاعوا الشيطان وأنفسهم أولا ، فعوقبوا بالازدياد من الضلال ، وقيل : الرجس الخذلان ، وليس كذلك ، لأن جعل الصدر ضيقا حرجا خذلان ، ولعل المراد زيادة لخذلان ، فإن كل معصية خذلان .

(وهذا صِراطُ ربِّكَ مُستقيماً) الإشارة إلى القرآن فيما روى عن ابن عباس ، لأنه يؤدى من تبعه إلى طريق السداد الموصل إلى الجنة ، بمعنى أن ألفاظه ومعانيه توصل إلى العمل بها ، والعمل بها طريق الجنة ، طريق لا عوج فيه ، وعنه أيضا : الإشارة إلى الإسلام ، أى الخضوع بامتثال الأوامر والنواهى ، وقيل الإشارة إلى معانى القرآن ، فإنها من حيث العمل بها طريق إلى الجنة كما فى الوجه الأول ، ويجوز أن تكون الشارة إلى ما ذكر من شرح الصدر للإسلام ، وجعل الصدر ضيقا حرجا وهما التوفيق والخذلان .

ومعنى كونهما صراطا مستقيما أنهما عادته فى خلقه ، كطريق يمشى فيه الناس بتكرر ، وأنهما صواب واستقامة اقتضتها حكمة ، ومستقيما حال من صراط ، والعامل فيها الإشارة ، وهى مؤكدة ، لأن صراط الله لا يكون إلا مستقيما ، كذا قيل ، وفيه نظر بل هى مؤسسة لأن هذا من

خارج ، لأن صراطه مستقيم تحقيقا ولا بد ، ولكن ليس لفظ صراط موضوعا لمعنى مستقيم ، والجواب أنه التزم قائل ذلك أن التأكيد فيه من الخارج ، وهو ما فى الحقيقة من أن صراطه تعالى أبدا مستقيم ، لأن الله تعالى ولو كان قد خلق سبيل الشيطان ، لكن لا يطلق أنها صراطه ولا سبيله .

(قَدْ فَصَّلْنَا الآيات) بيناها شيئا فشيئا ولا يختلط بعضها ببعض (لِقومٍ يذكَّرونَ) يتعظون بها فيعلمون أنه القادر الخالق بالخير والشر ، كالشرح والتضييق ، العالم بالأحوال ، العادل فى صنعه ، وهذا لقوم هم مَنْ شرح الله صدره وخصهم بالذكر ، لأنهم المنتفعون بها ، وإلا فكذا فصلها لغيرهم ، قال عطاء ، المراد بقوم يذكرون أصحاب النبى ومن تبعهم بإحسان ، وهذا مما يتعين إلا إذا جعلنا الآيات كتب الله كلها ، فيشمل الكلام من تقدم قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن تبعوا أنبياءهم ولم يخالفوهم .

(لَهم دارُ السَّلام عنْدَ ربِّهم) الجملة مستأنفة كأنه قيل : ما لهم على تذكرهم ؟ فقال : لهم دار السلام ، أو حال مقدرة من واو يذكرون ، أو من قوم لوصفه يتذكرون ، وهذه الجملة مقابلة كقوله : « يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » ذكر الله جعل صدره ضيقا حرجا ، فذكر عاقبته وهى جعل الرجس على الذين لا يؤمنون ، فالذين لا يؤمنون هم من جعل صدره ضيقا حرجا ، فهو من وضع الظاهر موضع المضمر ليعلل جعل الرجس عليهم بانتفاء الإيمان ، ثم ذكر قوما يذكرون وهم من شرح صدره للإسلام ، فذكر عاقبتهم أنهم لهم دار السلام عند ربهم ، وذلك إن أريد لمن جعل صدره ضيقا حرجا المشرك فقط ، وإلا

فليس من موضع الظاهر موضع المضمر ، والواضح أن يراد به المشرك وغيره كما مر •

وعند ربهم ظرف متعلق بمحذوف حال من المستكن فى لهم العائد إلى دار السلام ، لا من دار السلام ، لأنه مبتدأ الصحيح أن لا حال من المبتدأ ألا يجعل لهم نعتاً أو حالا لما قبل ، وجعلنا دار فاعلا لقوله لهم لاعتماده على صاحب حال ، أو نعت ، فحينئذ يجوز عند حالا من دار ، ومعنى كون دار السلام عند الله أنه تكفل بها ووعدها لأصحابها ، أو أنها فى علمه وغيبه فى أى مكان أرادها ، وأى وقت ، وفيها ما لا أذن سمعت ، ولا عين رأت ، ولا خطر على قلب بشر ، ودار السلام الجنة بأنواعها ، وهن ثمانى جنان ، وأضيفت للسلامة لسلامتها وسلامة من من الآفات والفناء والأحزان والأمراض والأوساخ ، وكل ما يكره ، فالسلام مصدراً ودار السلام بمعنى دار التسليم كما قال الله تعالى : « تحيتهم فيها سلام » أو لمعنى دار الله السالم من النقص ، والسالم خلقه من ظلمه ، فتكون أضيفت لله تعظيما كبيت الله ، وفى الإضافتين الأوليين تعظيم ، وهذه أعظم ، والسلام من أسماء الله السلام المؤمن المهمين ، وبهذا الوجه يقول الحسن والسدى •

(وهُو وليُّهم) يلى أمرهم بإيصال المنافع إليهم ، ودفع المضار دنيا وأخرى ، ولا استعمال الوالى فى ذلك المعنى اكتفى به عن ذكر النصير ، وقيل : المراد ذلك لكن فى الدنيا ، لأن الآخرة ذكرها بقوله : « لهم دار السلام » لكن لا يكون قوياً مع قوله (بما كانُوا يعْملُون) لأن التعليق بالكسب يقتضى الآخرة ، لأنها المعتبرة ، وقيل : يلى أمرهم فى الدنيا بالتوفيق ، وفى الآخرة بالجزاء ، أو نسب للحسن بن الفضل ، وقيل : وليهم ناصرهم على عدوهم ، وقيل : محبهم ، والباء للسببية فى

جميع الأوجه ، ويجوز كونها للملابسة إذا كان وليهم بمعنى متولى أمرهم على حذف مضاف ، أى متولى أمرهم بجزاء ما كانوا يعملون ، وتتعلق بقوله : « وليهم » وان كان بمعنى متولى أمرهم جاز تعليقها بحال محذوف ، أى ملتبساً بجزاء ما كانوا يعملون •

(وَيومَ يحْشرهم جميعاً) مفعـول لمحذوف ، أى واذكر يـوم يحشرهم ، ويقدر القول حالا ناصباً لقوله : (يا مَعْشر الجنِّ قـد اسْتكثرتم مِن الإنسِ) وصاحب الحال المستكن فى نحشرهم ، أى واذكر يوم نحشرهم قائلين يا معشر الجن ، والحال مقـدرة أن يريد بالحشر البعث من القبر ، وأن يريد استكمالهم فى الموقف بعد البعث من القبر ، فهى مقارنة ، ويجوز أن يكـون يوم ظرف لنقـول ، ناصباً لقوله : « يا معشر » إلخ أى ونقول يوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن الخ ، وهذا قول الزجاج ، إلا أنه يقدر القول مبنياً للمفعول مؤخراً كهذا ، ويوم نحشرهم جميعا يقال : يا معشر الجن ، والظاهر أن هذا المبنى للمفعول فاعله غير الله ، أى ويقول الملك ، لأنه لو كان الله لقدر نقول فقيل : إن الله جل وعلا لا يكلم المشركين بنفسه ، ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم •

والحق أن الله منزه عن التلفظ لمؤمن وكافر ، والمتلفظ على كل حال هو الملك ، سواء قدرنا قائلين ، أو يقال ثم رأيت ما يدل بما ذكرته فى الكشاف إذ علقه بقول مؤخر كالزجاج ، لكن الله إذ قال : أو يوم نحشرهم ، قلنا : يا معشر الجن ، وأجاز وجهاً آخر هو أن يقدر قول معطوف على يحشر ناصب لـ : « يا معشر » الخ ، يعلق اليوم بمحذوف مقدر بعد النداء ، حذف للتهويل ، أى ويوم نحشرهم ، وقلنا يا معشر الجن إلخ كان ما لا يوصف لقضائه ، ولك وجه آخر أن يقدر يا معشر الجن الخ نائباً

عن فاعل حال مقدر ، أى واذكر يوم يحشرهم مقولا لهم يا معشر ، فيكون صاحب الحال الهاء ، والظاهر مما قرب عود الهاء إلى المجرمين والمؤمنين جميعاً لعمومهم فى قوله : « فمن يرد الله أن يهديه » « ومن يرد أن يضله » ويجوز عودها إلى كفار الإنس والجن فى قوله : « ليوحون إلى أوليائهم » قيل : تعود إلى كل ما يبعث من الجن والإنس والدواب والطير والحوت وغير ذلك ، ولو كان الخطاب بالنداء للثقلين فقط والمحتمل لعله المعشر الجماعة التى ضبطهم أمر واحد كالمعاشرة والمخالطة ، أو دين واحد كقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء » أو غير ذلك .

والمراد بمعشر الجن الكفار منهم ، ولذلك فسر بعضهم الجن بالشياطين ، ولا مانع من إرادة المجموع الجن كلهم ، لكن الكلام كل لا كلية لأنهم ليسوا كلهم فيهم ما ذكر فيهم من السوء بعد ، وقرأ عاصم فى رواية حفص عنه ويعقوب فى رواية : روح عنه ويوم يحشرهم بالتحتية برد الضمير المستتر إلى رب فى قوله تعالى : « عند ربهم » .

(قَدِ اسْتَكْثَرتُم مِنَ الإنسِ) قال مجاهد والحسن والكلبى : أى من إغواء الإنس وإضلالهم بالوسوسة ، ولا قدرة لهم على الجبر ، والسين والتاء للعلاج والمبالغة والطلب ، أى طولتم كثرة إغواء إبليس الإنس ومنى الابتداء وذلك فى الدنيا ، ويجوز أن يكون المعنى حاولتم أن يكثر عددكم وأتباعكم ، وأخذتم الكثرة من الإنس بأن وسوستموهم فاتبعوكم فى الدنيا فحشروا معكم اليوم ، وهذا الاستكثار فى الدنيا ظهرت نتيجته فى الآخرة إذ حشروا معهم ، وذلك تبكيت لهم وتوبيخ على إضلال الإنس تضمن توبيخاً وتبكيتاً للإنس التابعين ، وليس كثرة العدد قصداً للجن فى الآخرة ، ويجوز أن يقصدوا وجودها فى الدنيا ، كما روى أن عظماء الجن الذين يعوذ بهم الإنس فى أسفارهم يعجبون بذلك ، ويقولون :

ملكنا الإنس والجن ، ولما حصل تبكيت الإنس التابعين لهم حكى الله جل وعلا جواب الإنس بقوله :

﴿ وقال أولياؤهم مِنَ الإنس ﴾ أى الذين أطاعوا الشياطين من الإنس ﴿ ربَّنا اسْتمتعَ ﴾ انتفع ﴿ بعضُنا ببعْضٍ ﴾ بعض الإنس ببعض الجن ، وبعض الجن ببعض الإنس ، فانتفاع الإنس بالجن بكون الجن يدلونهم على أشياء خفية على ألسنة الكهان وغيرهم ، وعلى الشهوات وما يوصل إليها ، وإجارتهم اذ استجاروهم كقولهم : أعوذ بعظيم هذا الوادى ، ويعينونهم فى أمر السحر وانتفاع الجن بالإنس تعاظمهم باستجارة الإنس فإنهم يرون استجارة الإنس شرفاً لهم ، وطاعة الإنس لهم فيما يأمرونهم به ، وتقربهم إليهم بالذبائح وغيرها ، ولا يضعف ذكر الاستجارة فى الانتفاع فله من يستجير بهم ، لأن بعضا ينتفع بالاستجارة ، وبعضا بغيره ، وإنما يضعف نقلته قول من فسر الانتفاع فى الآية بها فقط ، بأن قال انتفاع الجن تعاظمهم باعتراف الإنس لهم بالسيادة وطلب الإجارة ، وانتفاع الإنس انتفاعهم بإجارة الجن وهو قول الكلبى ، وأصله من قوله تعالى : « وإنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجال من الجن » .

ومن ذلك ما روى أن خزيم بن فاتك قال : أضللت إبلا لى أى وجدتها ضالة ، فخرجت فى طلبهن حتى إذا كنت ببراق العراق تلت رحلتى وأنشأت أقول :

ثم توسدت ذراع ناقتى ونمت ، فإذا هاتف بالليل يهتف :

أعوذ بسيد هذا الوادى
أعوذ بعظيم هذا الوادى

عـذ مخلصاً بالله ذى الجـلال
منـزل الحـرام والحـلال

ووحـد الله ولا تبـالى
قـد صار كيد الجن فى سفال

إن التقى وصالح الأعمـال
أفضـل مـا أملت مـن مـال

فانتبهت فازعاً وأنشأت أقول :

يـا أيها الهـاتف مـا تقـول
أرشـد عنـدك أم تضـليل

فأجبنى :

هـذا رسـول الله ذو الخـيرات
بيثـرب يدعـو إلى النجـاة

يأمر بالصـوم وبالصـلاة
ويزجر النـاس عـن الهنـات

ينكـر فى الأنـام منكـرات
يـأمر بالمعـروف والصـلات

* مبشراً بغرف الجنات *

فوقع قلبه فى قلبى فقمت إلى راحلتى وحللت عقالها ، ثم استويت عليها وناديت من أنت أيها الهاتف ؟ فقال إنى ملك من ملوك الجن أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وآمنت به ، وأرسلنى إلى أهل نجد أدعوهم إلى طاعة الله إجابة داعيه ، فالحق به ياخزيم وأسلم تسلم ، وقد كفيت

خبر إبلك حتى تأتى أهلك ، فانطلقت حتى أتيت المدينة يوم جمعه ، فوافقت النبى صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر فقلت : أقيم على باب المسجد فإذا صلى دخلت ، فلما قمت إذ أبو ذر قد خرج إلى فقال : يا خزيم مرحباً بك ، قد بلغنى إسلامك ، ادخل فصل مع الناس ، فدخلت فصليت وأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرى فقال : « قد وفى لك صاحبك فقد أبلغ الإبل إلى أهلك » وهذا الرجل قد أسلم وحسن إسلامه ، وإنما مثلت به للاستجارة بالجن فقط ، وذلك حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثله ما روى أن تميما الدارى قال : كنت بالشام حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إلى بعض حاجتى فأذكرنى الليل فقلت : أنا فى جوار عظيم هذا الوادى الليلة ، فلما أخذت مضجعى إذا بمنادٍ ينادى لا تعذ بالجن ، فإن الجن لا تجير أحداً على الله ، فقلت : ما تقول ؟ فقال : قد خرج الرسول الأمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلينا وراءه بالحجون وأسلمنا واتبعناه ، وذهب الجن ورميت بالشهب ، فانطلق إلى محمد فأسلم ، فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب فسألت راهباً وأخبرته بالخبر فقال : صدقوك تجده يخرج من الحرم ، ومهاجره الحرم ، وهو خير الأنبياء فلا تسبقن إليه ، فأتيته صلى الله عليه وسلم فأسلمت .

وقيل : معنى بعضنا ببعض بعض الإنس ببعض الإنس ، لأن ظهور انتفاع الإنس بالجن والجن بالإنس نادر ، بخلاف انتفاع الإنس بالإنس ، فوجب حمل الكلام عليه وهو ضعيف ، لأنه لا يصلح للتبكيت والكلام سبق له .

(وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) يا رب ، وهو وقت الموت وبه صرنا إلى هذا الموقف للحساب ، ذهب ذلك التمتع وبقيت الحسرة ،

والإضافة فى أجلت للاستغراق مع العمد لعلم الله وعلمهم بها ، وما علموا إلا بعد حلوله بإرادة الاستغراق صح إطلاق الأجل على آجال لا تحصى ، وذلك قول الحسن والسدى ، وقيل : المراد بالأجل وقت البعث ، فهو مفرد لفظاً ومعنى ، أى وبلغنا هذا الأجل الذى كنا نكذب به تكذيباً ، سهل لنا اتباع الشيطان والهوى فى المعاصى وذلك تحسر •

(قال) الله بالملائكة (النَّارُ مَثْوَاكُم) مقامكم فهو اسم مكان ، أى موضع ثواكم أى إقامتكم لا تبرحون منها ، كذا ظهر لى ، ثم رأيته للزجاج ، أو موضـــع هلاككم من ثـــوى بمعنى هلك ، والمراد التضرر لا الموت إذ لا موت فى الجنة والنار ، وأما أن يقال مصدر ميمى بمعنى الإقامة أو لهلاك فلا يحتاج إليه أنه يصح بتقدير مضاف أى ذات هلاك أو إقامة ، وقد أغنى عن هذا كونه اسم مكان مبهما •

(خَالدينَ فِيها) أما من أجاز مجىء الحال من الخبر مطلقاً ولو لم يكن المبتدأ اسم إشارة فيقول : خالدين حال من مثواكم مقدرة ، لأنهم حال قول الله ذلك ليسوا فيها وهى سببية ، لأن الخلود ليست صفة لها بل لهم ، وإنما هى محل الخلود ولـــم يبرز الضـــمير لأمن اللبس ، أى خالدين هم ، وعدم وجوب الإبراز قول الكوفيين ، ومن أجاز مجىء الحال من المضاف إليه مطلقا أجاز مجيئه من كاف مثواكم ، وهذا راجع أيضا إلى جواز الحال من الخبر بالمعنى ، لأنه لا يعمل فى ذلك الحال مثوى ، لأن اسم المكان واسم الزمان الميميين ولو تضمنا حدثا لا يعملان عمل الفعل ، فهو أيضا معمول لعامل مضاف وهو المبتدأ ، فكأنه حال من خبره وقيد له •

وإذا اشتد الأمر هكذا فقد ظهر لى تحتملُ ضعف كـــون مثـــوى مصدراً ميميًّا ليكون عاملا فى الحـــال إذا جعلناه من الكاف كمـــا عمل

المصدر الميمى فى الحال فى قوله تعالى : « إليه مرجعكم جميعاً » وقد يقال : عامل الحال وصاحبها محذوفان أى تقيمون فيها خالدين فيها ، أو تدخلونها خالدين فيها وهو الواو (إلاّ ما شاء الله) استثناء من محذوف وسهل حذفه كون خالدين كالصريح باسم الزمان ، أى خالدين فيها جميعا إلا زمان بعد البعث ، إلا الزمان الذى شاء الله أن لا يكونوا فيه مقيمين فيها أولا زمانا شاء الله ألا يكونوا الخ ، أو إلا الزمان الذى شاء الله ، أو إلا زمانا شاء الله ، وذلك الزمان هو زمان نقلهم من النار إلى الزمهرير ، ومن الزمهرير إليها يستغيثون منها إليه ثم منه إليها ، وذلك أن الضمير فى فيها عائد إلى النار المحرقة المقابلة للزمهرير ، ولا للبقعة التى فيها تلك النار ، وذلك الزمهرير ، وزمان صعودهم من النار إلى أعلاها ، حتى إذا رأوا الجنة ردوا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وقال الزجاج : إلا ما شاء الله هو الزمان الذى من البعث إلى دخولها ، أى هى مثواكم أبداً إلا هذه المدة التى قبل دخولها وبعد البعث ، فإنى أمهلكم فيها ووجه إخراجها مرجعكم أبدا من حين متم إلى ما بين نفخة موت الناس إلى وقت عودكم إليها ، وقد كانت أرواحهم فيها قبل البعث ، ويعذبون منها فى قبورهم إذا رجعت إلى قبورهم أرواحهم فى زمان الدنيا ، ويجوز كون الاستثناء منقطعاً ، أى إلا مشيئة الله أى مشيئة ينتقلون بها من هذا إلى هذا ، وإلا ما شاء الله من العذاب ، فما على هذا واقعة على العذاب ، أى لكن ما شاء الله من العذاب الزائد النار ، أو لكن مشيئة وقد شاء الله أن لا يفتر عنهم العذاب ، وعلى الوجه قيل : هذا مصدرية ، وقيل : ما واقعة على المؤمنين والاستثناء منقطع .

(إنّ ربك حكيم) فى عقاب العاصى وإثابة المطيع ، وسائر صنعه لا يفعل ما هو عبث ، أو حكيم فى تصريف خلقه بالتوفيق والخذلان وتدبير أحوالهم فى الأولى والأخرى .

(عليم") بخواتم خلقه من سعادة أو شقاوة وأعمالهم وأحوالهم •

(وكَذلك نُولِّى بعْضَ الظَّالمينَ بعضاً بما كانُوا يكْسِبُون) من الكفر والمعاصى كما نولى الكفار بعضهم بعضاً فى الدنيا بالإغواء نولى بعضهم بعضاً فى الآخرة بالقرن فى العذاب ، أو كما نولى بعضهم بعضا فى الدنيا بالاستمتاع نكل بعضاً لبعض فى الآخرة ليتعاونوا ويتناصروا فلا يجدوا نفعاً ، ويجوز أن لا يراد التشبيه ، بل بمعنى أنا فعلنا بهم التولية على تلك الصفة المذكورة من استمتاع بعض ببعض ، وقيل نسلط بعضهم على بعض فى الدنيا بالمضار ، كما انتفع بعض ببعض فيها ، قال : قال الكلبى فى تفسير الآية رواية من غيره : إن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى أمرهم خيارهم ، وإذا أراد بقوم شراً ولى أمرهم شرارهم •

وعن مالك بن دينار رحمه الله : جاء فى بعض كتب أن الله قال : أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك بيدى فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك وتوبوا أعطفهم عليكم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كما تكونون يولى عليكم » وعن قتادة : كلما تمادوا فى المعصية ندخلهم فى النار بمتابعة يتبع بعضهم بعضاً ، وعنه : كما نولى بعضهم بعضاً كذلك نجعل بعضاً يلى بعضا فى الاعتقاد ولو لم يلتقيا وغاب كل عن الآخر ، وكذلك المؤمن يلى المؤمن أينما كانا •

(يا مَعْشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل" منكم) رسل من الإنس إلى الإنس تسمع من الملك ، ورسل إلى الجن من الجن يرسلها إليهم بأمر الله ، رسول الإنس يسمعون من رسول الإنس ، وليس ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز ، لأن لفظ الرسول موضوع لرسول الله ورسول غيره ، وها هنا تذكرت قوله تعالى فى رسل عيسى عليه السلام : « إنا إليكم

مرسلون » « إنا لمرسلون » يتبع « اتبعوا المرسلين » فى قول من يقول إنهم رسل عيسى لا رسل الله ، وقد أرسل رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الجن إلى الجن رسلا منهم وقال الله فيهم : « ولّوا إلى قومهم منذرين » وإنما فسرت بذلك الآية لأن الأنبياء كلهم من الإنس ، وأما الجن فتسمع من رسل الإنس ومن أممهم ، فالرسل فى الآية رسل من الإنس ورسل من الجن ، لكن رسل الجن ليست مرسلة من الله ، بل مرسلة من رسله ، ثم رأيته عن ابن عباس ، وفى الآية تأويل آخر هو أن الرسل فى الآية رسل الإنس ، وأما الجن فتسمع منهم ومن أممهم ، وعليه فقوله : « منكم » أريد به المجموع لا جمع الفريقين ، وليس المراد من هذا الفريق ومن هذا الفريق ، فالرسل من الإنس فقط ، وقيل منكم خطاباً للجن معهم لاستوائهم فى التكليف بما يجىء به الوحى ، وجمع الخطاب لهم فى قوله : « يا معشر » وقوله : « يأتكم » كما شهر فى قوله : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » أى منهما لم يعدهما لكن من أحدهما وهو المالح لا منهما جميعاً .

وقال الضحاك رسل الجن من الجن يأتيها الوحى من الله ، كما أن رسل الإنس من الإنس يأتيها الوحى من الله متمسكاً بظاهر الآية وبقوله تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقوله تعالى : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا » وقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » وجه الدلالة بالآيتين ظاهر لكن من تأويل الأولى ، وأما الثانية فلا يتعين أن يكون النذير منهم ، بل نظيرهم من الإنس رسول ينذرهم ويرسل إليهم ، هو منذراً منهم ، كما ذكر الإنذار مثل هذا وأريد به الإنذار بإرسال رسول الإنس رسولا منهم إليهم ، إذ قال الله جل وعلا : « وإذ صرفنا إليك » الآية وأيضا إذا كان فى أمة رجل مسلم أى يعظ

ويذكر الأحكام والجن تسمع منه وتحضر مجلسه ، فهو نذير الإنس خلاف الإنس والجن •

وجه الدلالة بقوله : « ولو جعلنا » وقوله : « وما أرسلنا من رسول » لأن الحكمة فى جعل الرسل من الإنس للإنس ، وجعلهم بلغة قومهم أن يتمكنوا من مواجهتهم ومن فهم كلامهم ، ويأنسوا بهم ، فكذا الرسول من الجن للجن أحق أن يتأسوا به ، وقال الضحاك ومن تبعه : يحتمل أن يكون جاء بعد الإجماع على أن لا رسول من الجن ، فلا يعتد به ، ويحتمل انعقاد الإجماع بعده فبلغه ، وهذا كله بعد وجود الإنس ، وأما من زعم أن الجن قد عمرت الأرض قبل آدم ، وأن إبليس والعياذ بالله ذرية منهم لا أولهم فلا يصح عندنا معشر الأباضية ، وعلى تقدير صحته فرسلهم منهم قطعاً قبل آدم ، وأجمعت الأمة أن رسول الله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الثقلين •

وقيل : رسل الجن منهم بواسطة رسل الإنس ، بأن يوحى الله إلى رسول الإنس أن أرسل فلاناً من الجن إليهم ، وهذا لا بأس به ، كما أنه لا بأس بما مر أولا من أن رسول الإنس يرسل إليهم بعضا منهم مفوضاً ، وجملة يا معشر الجن إلخ من مقول القول السابق ، وقوله : « إن ربك » إلى « يكسبون » معترض ، ومنكم نعت رسل ، ومن للتبعيض أو متعلق بيأتكم ، ومن للابتداء ، والرسل غير داخلين فى الخطاب بالراء وكاف يأتكم ، والمعنى من جنسكم على التأويلات السابقة •

(يقصُّون) يلتون ويلقون (عليكُم آياتِى) الآيات التى نزلت فى كتبى دالة على وجودى ووحدانيتى ، وصدق رسلى ، والجملة نعت رسل ، أو حال منه ، لكن الحال إذ جعلنا منكم نعتاً والنعت يجوز مطلقاً ،

وإذا جعلنا منكم نعتاً جاز أن تكون الجملة أيضا حالاً من المستكن فى منكم (وينْذِرُونكم لقاء يومِكُم هذا) يوم القيامة وإضافة لقاء ليوم إضافة لمفعوله ، أى يخبرونكم خبراً شديداً وهو أنكم تبعثون ، فإن لم تؤمنوا فى الدنيا وتطيعوا عوقبتم يوم تبعثون .

(قالُوا شَهدْنا علَى أنْفسِنا) قال كفار الجن والإنس يوم القيامة شهدنا على أنفسنا أن الرسل جاءتنا وبلغتنا رسالتك وعصينا ولم نؤمن ، وقد استوجبنا العذاب وذلك اعتراف بألسنتهم أو بجوارحهم حين ختم على أفواههم ، أو ختم عليها فتكلمت جوارحهم بذلك ، ثم نطقت ألسنتهم فقالت : إن جوارحنا قد شهدت علينا ، ذلك أنهم يوم القيامة تارة ينكرون وتارة يقرون ، تقر جوارحهم وقد قالوا : « والله ربنا ما كنا مشركين » فحينئذ ختم على أفواههم فنطقت جوارحهم ، وها هنا تم كلامهم واستأنف الله جل وعلا كلاماً فى ذمهم فقال :

(وغرَّتهُم الحياةُ الدُّنيا) زينت لهم القبيح الذى عاقبته النار وهو الكفر والمعاصى اشتغلوا بهما عن الآخرة ، والعطف على قالوا ، ولو اختلف زمن الغرور والقول أو حال ماضية ، أو من جملة المقول على الالتفات أى وغرتنا الحياة الدنيا .

(وشَهدُوا على أنفسِهم أنهُم كانُوا كافرِينَ) بالبعث والرسول والوحدانية ، أو بالله ، فكل واحد ومقدار كفره ، والجملة معطوفة على التى قبلها أو كلتاهما من الله ، والأولى من مقولهم على الالتفات ، والثانية من الله ، ويجوز أيضا أن تكون الثانية من مقالهم أيضا مع الأولى على الالتفات ، أى وغرتنا الحياة الدنيا ، وشهدنا على أنفسنا أنا كنا كافرين ، أى قد أقررنا لك بكفرنا على كل حال ، فالله سبحانه ذكر ذلك تحذيراً عن حالهم .

(ذلك) المذكور من بعث الرسل مع عقاب من لم يتبعهم (أنْ لَمْ يكُن ربُّكَ مُهلك القُرى بظُلْمٍ) أن مصدرية مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، والجملة بعدها خبرها ويقدر قبلها لام التعليل ، ويعلق بمحذوف خبر لمبتدأ الذى هو لفظ ذلك ، أى ذلك ثابت لأنه لم يكن ربك مهلك أهل القرى بظلم لا يهلكهم بإرسال رسل إليهم ولو أهلكهم بدون إرسالهم لكن ظلماً والله منزه عن الظلم لا يظلم ، ولا يجوز فى صفته ، وكذلك لو اتبعوا الرسل وأهلكهم مع ذلك لكان ذلك ظلما حاشاه ، ويجوز كون ذلك خبراً لمحذوف ، أى الأمر ذلك وان لم يكن بدل من فيكن ، فلا تقدر اللام والباء متعلق بمهلك لا يهلكهم بظلم منه لهم ، أو بمحذوف حال من ربك أو من المستتر فى مهلك أو من القرى ، ملتبسا بظلم منه أو ملتبسة بظلم واقع عليها منه تعالى ، وهى للإلصاق المجاز أو بمعنى مع .

(وأهْلها غَافلُون) عن الشريعة خالون منها لعدم إرسال الرسل ، والجملة حال أيضا ، وصاحبها صاحب الحال الأول ، وهى من حيث المعنى مؤكدة ، لأن إهلاكهم بظلم هو إهلاكهم حال خلوهم من الرسالة ، وإهلاكهم حال خلوم هو الظلم المذكور ، وذلك أن تفاصيل الشريعة لا تدرك إلا بالرسل ، بخلاف معرفة الله ، فإن العقاب على تركها ولو بلا إرسال للرسل ، وإذا جعلنا بظلم حالا جاز كون الجملة حالا من المستكن فيه ، وأنت خبير أن الظلم فى الآية مسند على طريق النفى إلى الله تعالى وهو قول الفراء ، ويجوز أن يكون المراد ظلما منهم وهو ذنوبهم ، وهو قول الجمهور فتتعلق بمهلك لا غيره ، فكون الباء للسببية فالمعنى لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلمهم ، أى ذنوبهم ، والحال أن أهلها غافلون عن الشريعة ، خالون عنها لعدم الإرسال إليهم .

وعلى هذا فهذه الجملة حال غير مؤكدة ، وأنت خبير بتقدير

المضاف ، أى مهلك أهل القرى ، ولما حذف لم يقل وهم غافلون ، ويجوز أن لا يقدر بأن يراد بإهلاك القرى تعطيلها وتخريبها ، ويدل هذا على إهلاك أهلها أيضا ، لأن خرابها بذهاب أهلها ، ولا أعرف أنّ أنْ خفيفة مصدرية لا اسم لها ولا خبرها قبل لم وغيرها مما بعدها فيه مخففة مصدرية ، وهنا أجاز القاضى كونها مصدرية خفيفة لا اسم لها ولا خبر ، وأنها التى تدخل على المضارع وتنصبه ، لم تنصب هنا لأنها لم تدخل عليه كما لا نصب لها إذا دخلت على الماضى نحو : إن كان ذا حال ، فعلى هذا يكون المعنى لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم ، وعلى أنها مخففة يكون المعنى ذلك لكون الشأن عدم كون ربك مهلك القوى بظلم .

(ولكلٍّ) واحد من الكفار (دَرَجاتٌ مما عَمِلُوا) أى مراتب فى الدركات على حسب عصيانهم تثبت لهم بسبب ما عملوا ، وحصلت مما عملوا ، فمن السببية أو للابتداء ، وإنما جمع درجة لأن لكل واحد مراتب لأنها دركات ، وإن اعتبر آخرها إلى الأسفل فقط فالجمع باعتبار دركة كل واحـد .

(وما ربُّكَ بغَافلٍ عمَّا يعمَلون) أى عمل يعمل الكفار فهو عالم بعملهم ومقدار عقابهم ، والكلام فى الكفار ، والدرجة قد تستعمل بمعنى الدركة ، ولو شهر أنها للأعلى ، والدركة للأسفل ، ويجوز أن يراد بالآية المؤمنين ، فالدرجات للأعلى ، فالمراد بما عملوا عمل الطاعات لا يغفل الله عنها ولا عن ثوابها ، هو عالم بهما ، ويجـوز أن يراد بهـا المؤمنين والكافرين ، والدرجات المراتب للأسفل والأعلى والعمل عمل الطاعـة والمعصية ، وعدم الغفلة هو العلم بالطاعة والمعصية ، ومقدار ثـواب الطاعة وعقاب المعصية ، وهذا قول الجمهور أى لكل من المكلفين درجات ، ووجهه تعميم اللفظ فى المعنى ، ووجه الثانى شهرة الدرجة فى الخير .

وفسرت أنا الآية بالكفار ليناسب ما قبله مع ما يتبادر من التنزيل في قوله : « وما ربك بغافل عما يعملون » ولو كان أيضا يصلح لغير ذلك ، وقرأ ابن عامر : تعملون بالفوقية التفاتاً من الغيبة للخطاب ، لأن لكل درجات غيبية في جميع تفاسيره ، وإذا جعلنا الكلام في المؤمنين فقد غلب الخطاب في الكاف على الغيبة .

(وربُّكَ الغنيُّ) عن خلقه لا تنفعه طاعتهم كما لا تضره معصيتهم (ذُو الرَّحْمة) لعباده كلهم مسلمهم وكافرهم بإمهالهم ، ليتمكنوا من شاء التوبة ، وبالتكليف يثابوا ، وبإرسال الرسل إليهم ، لأن ذى الرسالة والتكليف كمال ذنبهم ودنياهم ، وعن ابن عباس : ذو الرحمة بأهل طاعته ، ومن رحمته إبقاؤه إياكم على كفركم ومعاصيكم يا كفار قريش ، وهو قادر على إهلاككم كما قال .

(إنْ يشأ) إذهابكم (يذْهِبْكم) يهلككم يا أهل مكة وهذا وعيد لهم على معاصيهم ، وتقرير لغناه لولا رحمته لأذهبكم ، إذ لا حاجة له إليكم ، ربك مبتدأ والغنى نعت ، وذو نعت ثان ، وجملة إن يشأ يذهبكم خبراً ، والغنى نعت ، وذو خبر وإن يشأ الخ خبر ثان أو مستأنف ، أو الغنى خبر ذو خبر ثان ، وإن يشأ الخ خبر ثالث أو مستأنف .

(ويسْتَخلفْ مِن بَعْده) أى بعد إهلاكهم (ما يَشاءُ) من خلقه ، فمن يكون طائعاً وهو موجود يجعله في موضعكم أو ينشئه إنشاء (كما أنشأكم من ذُريَّة قَومٍ آخَرينَ) من أولاد قوم آخرين ، فالذرية آباؤهم ، والقوم الآخرون أجدادهم الأدنون ، وقيل : من قرب بعد قرن إلى أولاد نوح .

(إنَّ مَا تُوعَدون) من عذاب الآخرة ومن البعث للجزاء (لآتٍ)

يقع لا بد قريباً (وما أنتُم بمعْجِزِينَ) فائتين الله عن إماتتكم أو عن بعثكم وحسابكم وعذابكم .

(قُل يا قومِ) كفار قريش (اعْملُوا على مَكانتِكُم) اعملوا فى المكر والمعاصى على قدر قوتكم وتمكنكم ، لا تتركوا منها شيئا ، وهو مصدر مكن يمكن بمعنى قوى على الشىء وهو ثلاثى ، أو اعملوا على جهتكم التى أنتم عليها من العناد والكفر والمعاصى ، لا تتحول عنها على أن المكانة مفعلة من الكون اسم مكان الكون والثبوت ، سميت الحالة التى هم عليها باسم المكان مجازاً ، والمكانة بمعنى التمكن أو الجهة صالحة للكثير والقليل ، والمراد الكثير لأن إضافته للاستغراق ولا سيما المصدر ، ففيه أصلح ، والتاء فيهما ليست للوحدة ، والأمر فى ذلك كله للتهديد كحال من يريد إهلاك أحد فيغريه بما يوجب هلاكه ، وفيه تلويح بأنهم لا ينفكون عن اكفر ، ولو طولبوا فى الانفكاك ، لأنذروا بوعيده ، وقرأ أبو بكر عن عاصم : مكاناتكم بالجمع فى كل القرآن ، ووجه الجمع أو الاستغراق فى وجه كون المكانة بمعنى الجهة ، والحالة أن أنواع نفاقهم ومعاصيهم وكفرهم كثيرة .

(إنِّى عامِلٌ) فى رضا ربى وطاعته ، والصبر على مخالفة من عصاه على مكانتى (فَسوفَ تعْلمُون مَنْ تكونُ له عاقبةُ الدَّار) من استفهامية مبتدأ ، والجملة بعده خبره ، والمجموع علق تعلم عن العمل فى لفظه واعمل فى محله نائبا عن مفعولين ، والمعلق الاستفهام ، ويجوز جعلها موصولة مفعولا ليعلم تعدى لواحد فى هذا الوجه لكونه بمعنى يعرفون ، وهذه الجملة إنذار أيضا مع الإنصاف والأدب والمعتادين فى محاورة المنصفين ، إذ كان اللفظ بعبارة تصلح لأن يكون لهم عاقبة إدراكها يصلح أن تكون للمؤمنين ، والمراد أنها للمؤمنين خاصة ، وذلك

معلوم أيضا من اللفظ وفى الآية تنبيه على أن الذى ينذرهم بها على وثوق بأنه محق ، وأن له عاقبة الدار لا لهم وهى الجنة ، وعاقبة الشىء خاتمته التى تجىء بعده عقبه ، فالعاقبة الجنة ، والدار الدنيا أى الجنة التى تجىء بعد الدار الدنيا ، ويجوز أن تكون العاقبة والدار واقعتين على الجنة من إضافة الصفة للموصوف ، أى الدار العاقبة وهى الجنة التى عقب الدنيا ، وإنما نعلم أنها الجنة لسياق الكلام فى التحبب إلى الله مع ذكر عاقبة الدار فى القرآن بمعنى الجنة ، كقوله تعالى : « أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن » ويحتمل أن يكون المراد بعاقبة الدار النار تهديداً فهى للكفار وحدهم لا للمؤمنين ، وجىء أيضا بلفظ الإنصاف والأدب كذلك ، ويناسب هذا قوله :

(إنَّه لا يفلحُ الظَّالمونَ) لا يفوز بالجنة عن النار من ظلم نفسه بالشرك والمعاصى ، فمن كانت هذه صفته لم يفلح ، فيجدون هذه الصفة فى أنفسهم لا فى المؤمنين ، ولم يقل الكافرون لأن الظلم أقبح من حيث إن فيه تنقيص حظ الإنسان لنفسه بنفسه ، وأما من حيث العموم فإن الكفر والظلم كليهما يطلقان على الشرك ، وما دونهما من الكبائر فليس الظلم أعم ، ومعنى الآية باقٍ ولو مع نزول القتال بعد ، ومن زعم أن المعنى أمره بترك القتال قال نسخها القتال ، وقرأ حمزة والكسائى يكون بالتحتية ، لأن اسمه ظاهر مؤنث مجازاً ، ولأنه مفعول .

(وجَعَلوا) أى مشركو العرب من قريش وغيرهم (لله مِمَّا ذَرَأَ) خلق (مِنَ الحَرْث) أى من ثمار الحرث فحذف المضاف ، والحرث مصدر ، وإضافة الثمار إلى الحرث تصح ، لأن الحرث سببها وملزومها وآلتها ، أو بمعنى البذر المحروث ، وإضافة الثمار إليه لأنه أصله وآلته ، أو بمعنى ما نبت من الأوراق والأغصان ، أضاف الثمار إليه لأنها منه ،

وأنه آلة لها ، ويدل لهذا الوجه الأخير ما روى أن أهل الجاهلية كانوا يقسمون الحرث وهو قائم على سوقه ويقولون : ما ردت الخطة داخلا لأصنامهم ، وما ردت خارجا لله تعالى ، ففى هـذه الرواية لا يحتاج لتقدير مضاف ، لأنهم يجعلون النصيب من النبات كله ، فما فيه من الثمار فهو لله ، وما فى النصيب الآخر للأصنام ، ويجوز أن يكون الحرث بمعنى الثمار بشىء يسببه أو أصله ، فإذا كان بأصله فمجاز مركب ، لأن الحرث بمعنى الورق والأغصان مجاز أول ، ثم بمعنى الثمار مجاز ثان ، ولم يقل : وجعلوا لله من الحرث والأنعام ، بل قال : « مما ذرأ من الحرث والأنعام » ليكون أزيد فى تقبيح فعلهم إذ عمدوا إلى شىء خلقه ، فجعلوا منه نصيبا يتقربون به إلى ما لا ينفع ولا يضر وهو الأصنام .

(والأنْعام) الغنم والبقر والإبل أنفسها وما تنتج (نَصيباً) وليسوا يقولون يأكلون حاشاه ، ولكن يتصدقون به على الفقراء والضعيف ، ويقطعون منه فى النائبة ويغيثون منه الملهوف ، فهـذا فى نفسه ليس معيبا ، والمعيب إنما هو رجوعهم به إلى نصيب الأصنام ، إذا احتاجوا أن يردوه إليه ، وأكلهم إياه إذا احتاجوا اليه فى مجاعة ، وعيب عليهم فى الآية شيئان : جعل نصيب للأصنام ، ووصول ما كان لله تعالى إلى نصيب أصنامهم ، عاب عليهم ذلك بعد ما عاب عليهم إنكار البعث ، وغير إنكارهم من القبائح ، وفى الكلام حذف تقديره : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، وجعلوا لشركائهم نصيبا أو لشركائهم نصيبا ، ودل عليه قوله بعد : « وهذا لشركائنا » وذكر الرواة أيضا أنهم يجعلون نصيبا لله ونصيبا لشركائهم من سائر مالهم أيضا غير الحرث والأنعام .

(فقالُوا هذا) أى هذا النصيب (لله بِزَعْمهم) بكلامهم الكاذب ، أو كلامهم الفاسد لا وجه كذبه أنه نصيب لله فيما قالوا ، ثم إنهم يعطون

منه فى الأصنام ويأكلون منه ، ووجه فساده ذلك أيضا مع أنه مقابل لنصيب الأصنام ، وهذه المقابلة إشراك ، وبزعمهم متعلق بقالوا ، وقرأ الكسائى بضم الزاى وفيه لغة ثالثة لم يقرأ بها أحد وهو كسر الزاى •

(وهَذا لشُركائِنا) أى وهذا النصيب الآخر لشركائنا ، أى للأصنام التى هى شركاؤنا فى أموالنا ، فالشركاء شركاء المال لا شركاء عبادة الله ، فهو من الشركة ، وفيه وجهان :

أحدهما : أن تعتبر أنهم أشركوا الأصنام لأنفسهم ، أى وهذا للأصنام الذين أشركناهم ، فنا فاعل من حيث المعنى •

والآخر : أن تعتبر أن الأصنام شاركتهم ، فنا مفعول فى المعنى ، ويجوز أن يكون الشركاء شركاء العبادة ، أى الذين أشركناهم فى العبادة مع الله سبحانه وتعالى ، فهو من الشرك ، وأضافوهم لأنفسهم لاعتقادهم أنهم شركاء لله حاشاه ، وما كان لشركائهم يجعلونه نفقة لخدمتها ، ويصرفونه فى تصقيلها وتزيينها وتزيين بيوتها ، وتصحيح ما ضعف من شركائهم ، ويصرفونه فى التصدق تقربا بها ، وفى ذبائح يجعلونه قرابين لها •

(فَما كانَ لشُركائِهِم فَلا يصلُ إلى اللهِ) بوجه ما ، ولو ذهب ما جعلوه للشركاء للفقراء ، وما جعل من أجله أو بالسرقة أو بأهلهم أو غير ذلك ولو احتاجوا أو احتاجت الفقراء أو الضيفان ، والمراد لا يصل إلى نصيب الله ، أى لا يجعل كله ولا بعضه نصيبا لله تعالى ، أى لا يصرفون حيث يصرفون نصيب الله حتى أنه لو ذهبت الريح ببعضه ، أو انحدر لردوه إلى نصيب الشركاء •

(وما كانَ لله فهو يَصلُ إلى شُركائِهِم) مثل أن ينحدر بعضه إلى نصيب شركائهم ، أو تهب به ريح ، أو يتخلط إليه بوجه ، أو احتاج شركاؤهم بزعمهم لنفقة خدمها أو تصقيلها ، أو بنائها أو تصحيحها أو تجديد أخرى ، أو بناء بيوتها أو تصحيحها أو تزيينها ، أو تزيين الأصنام ، أو التقرب بالذبح أو الصدقة إليها ، فما اتصل تركوه للشرك أو ما احتاجوه ، وكانوا يقولون : الله غنى عن المال ، والأصنام محتاجة فقراء ومعنى الوصول إلى شركائهم الوصول إلى نصيبها مع إقراره فيه وصرفه فيما يصرف فيه نصيبها ، قال مقاتل : إن زكا وإنما نصيب الآلهة ولم يترك نصيب الله تركوا نصيب الآلهة لها ، وان كان بالعكس قالوا لا بد لنا لآلهتنا من ثقة فأخذوا نصيب الله وأعطوه السدنة ، أى خدامها .

قال ابن عباس ، ومجاهد والسدى : وكانت عادتهم الاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منه نصيب الله تعالى ، إذ كانوا يقدرون أن الأصنام فقراء ، وليس بالله فقر ، فكانوا إذا قسموا الزرع فهب الريح فحملت من الذى لله إلى الذى لشركائهم أقروه ، وإذا حملت من الذى لشركائهم إلى الذى لله ردوه ، وإن لم يصيبوا فى نصيب شركائهم شيئا قالوا : لابد للآلهة من نفقة فيجعلون نصيب الله تعالى فى ذلك ، وكذلك فى الأنعام وما يقوله منها .

قال قتادة : ثم إذا كانت السنة شديدة أكلوا نصيب الله وحفظوا نصيب الأصنام ، قال الكلبى : يرسلون الماء فى نصيب الله من الحرث ، فإن نصيب الفخر فى نصيب الصنم قالوا أقروه فإن هذا محتاج ويرسلونه فى نصيب الصنم ، فإن انفجر فى نصيب الله قالوا سدوه فإن الله غنى عنه ، والصنم محتاج إليه ، وكذلك إذا كانوا يحرثون ووقع شىء من بذر نصيب الله فى نصيب الأصنام ، وإذا وقع فى نصيبه شىء من نصيبها ردوه إليها .

وعن الحسن : إن خرج حرث نصيب الله أجود ردوه للأصنام ، وإن خرج نصيبها أجود أقروه لها ، قال : وإذا اختلط من الأنعام ما هو من نصيب الله بنصيب الصنم تركوه ، ولا يزرونه ، وإذا اختلط من نصيب الصنم لنصيب الله وميز ردوه للصنم ، وإن لم يميز ذبحوا مما لله للصنم ، أو ذبحوا شيئا مما للصنم فى مستوٍ من الأرض ، وذبحوا مما لله فى موضع مشرف حتى يصل دمه دم ما ذبحوا للصنم .

(سَاءَ ما يحْكُمونَ) إذ جعلوا لله نصيبا ، وجعلوا للصنم نصيبا ، وإذا كان ما يصل للصنم من نصيب الله تركوه ، وما وصل من نصيب الصنم لنصيب الله ردوه ، فجعلوا للصنم نصيبا ولا نفع فيه ولا مضرة يضرهم بها ، ولا يقدر على شىء ، ومع هذا رجحوا جانب الأصنام والحق الرغبة فى توفير ما لله فيصرفونه للفقراء ، ومن احتاج وترك الأصنام بلا نصيب وإبطالها وإبطال عبادتها ، وما اسم أى ساء حكم يحكمونه أى يثبتونه ، أو ساء الحكم الذى يحكمونه أى يثبتونه ، أو مصدرية أى بئس حكمهم والمخصوص بالذم محذوف ، أى هذا الذى يفعلونه أو يحكمونه أو هذا الحكم .

(وكذلِكَ زَيَّن لكثيرٍ مِنَ المشْركينَ قَتْل أوْلادِهم شُركاؤهم) الإشارة إلى ذلك الحكم ، وشركاؤهم فاعل زَيَّن أى شركاؤهم فى المال ، أو شركاء العبادة ، والمعنى كما زين الشيطان لهم هذا الحكم الذى هو جعل نصيب لشركائهم تقربين به إليها ، وكون نصيبها لا يصل إلى الله ، ونصيب الله يصل إليها زين لهم شركاؤهم أن يقتلوا أولادهم ، والعطف على « وجعلوا لله » ويجوز أن يراد أن التزيين هكذا كما ذكره لكم ، فليس تنبيها بما سبق ، وقَتْل مفعول زين مضاف لأولاد إضافة مصدر للمفعول ، وإسناد تزيين القتل إلى الشركاء وهى الأصنام مجاز ، لأنها لا لسان

لها ولا عقل ، ولكن تزيينها قتل الأولاد إنما هو بلسان حالها ، لأنه من كان معبوداً يتقرب إليه ، فمن شأنه أن يشرع الحكم ويأمر وينهى ، وهذا تهكم كقوله تعالى : « أصلاتك تأمرك » هذا ما ظهر لى تقرير ، وقيل : شركاؤهم شياطين شركائهم كانت لشركائهم شياطين يتكلمون لهم من أجوافها ، يأمرونهم تقتل أولادهم .

وقال مجاهد : شركاؤهم الشياطين الذين يوحون إليهم بالوسوسة وبالكهانة ، يأمرونهم بقتل أولادهم ، وسماهم شركاء لأنهم أشركوا فى العبادة ، وقد كانوا يعبدون الجن ، وأيضا إذا أمروهم بقتلهم فأطاعوهم فى المعصية فقد أشركوهم فى الطاعة بالله ، وقال الكلبى : شركاؤهم سدنة أصنامهم وهم الذين كانوا يزينون للكفار قتل الأولاد ، واختلفوا فيما ذا يقتلونهم ؟ فقيل : مخافة الفقر إذا ضاق العيش قتلوا بناتهم ، ومخافة أن تأتى بعيب فيعيرون بها ، ومخافة أن لا تزوج عليهم إذا كانت عليهم جميلة ، وذلك بالدفن .

وقيل : ينحرون أولادهم لآلهتهم ، وقال الكلبى : الآية فى قتل الرجل ولده الذكر ، يقول الرجل منهم على أيدى سدنة الصنم : لئن ولد لى كذا ولد من الذكور لأنحرن أحدهم ، كما حلف عبد المطلب : ئن كمل لى عشرة لأذبحن آخرهم ، تعالى الله على الكعبة .

وقيل قال : لأنحرن آخرهم عليها لله ، فلما كمل عشرة أخبرهم بنذره فأطاعوه وكتب كل واحد اسمه فى قدح فخرج على عبد الله ، فأخذ الشفرة لينحره ، فقامت قريش من أنديتها فقالوا : لا تفعل حتى ننظر فيه ، فانطلقوا به إلى الكاهن فقال : قربوا عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها القداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى

ربكم ، وإذا خرجت على الإبل فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ، فقربوا عشراً فخرجت على عبد الله ، فزادوا عشراً فخرجت عليه ، وهكذا إلى مائة فخرجت القداح على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « أنا ابن الذبيحين » يريد أباه وإسماعيل عليه السلام ، وقال له أعرابى : يا ابن الذبيحين فتبسم .

وقرأ ابن عامر ببناء زين للمفعول ، ورفع قتل على أنه نائب الفاعل ، ونصف أولاد على انه مفعول لقتل وجر شركائهم على إضافة قتل إليه فقتل مصدر مضاف لشركاء مفعول عنه بمفعول له المنصوب به ، وذلك قليل وارد فى الشعر ، وبسطه فى النحو لكنه لم يقرأه من عنده ، فإن القراء يسندون قراءتهم إلى أن تصل رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عامر أقدم السبعة قرأ على أبى الدرداء وأبى وائلة بن الأسقع ، وفضالة بن عبيد ، ومعاوية بن أبى سفيان ، والمغيرة المخزومى ، قيل : وعثمان نفسه ، فتقول هذه القراءة أخذها عن بعضهم فلا نقول : اعتمد فى هذه القراءة على مجرد مصحف الشام الذى أرسله عثمان حيث فيه شركائهم بالياء ، بل أخذ القراءة نقلا ، وكانت على وفق هذا الرسم ، وسهلها أن المصدر المضاف لمعموله مقدر بأن والفعل ولا سيما إذا نصب معموله الآخر ، أو رفع معموله الآخر فإنه أشد قرباً من الفعل ، فضعفت جهة الإضافة ، لأن الفعل لا يضاف حتى قال بعض : إن إضافة المصدر إلى معمولة لفظية ، فكأنه فصل عن مفعوله المنصوب بفاعله المرفوع ، وعن فاعله بمفعوله فلم يضر الفعل بين المضاف والمضاف إليه .

وحمل السكاكى فى المفتاح هذه القراءة على حذف المضاف إليه من الأول ، وحذف المضاف من الثانى ، أى قتلهم أولادهم قتل شركائهم ، وقيل : الثانى بدل من الأول ، وقرىء بالبناء للمفعول وجر أولاد على

الإضافة ، ورفع قتل على النيابة عن الفاعل ، ورفع شركاء على أنه فاعل لزين مقدرا مبنيا للفاعل كأنه قيل : من زينه لهم فقيل شركاؤهم وبسطت الكلام على مثل هذا فى النحو ، ويأتى فى سورة النور إن شاء الله الرحمن الرحيم .

(ليردُوهم) ليهلكوهم بالإغراء ، واللام متعلق بزين كما تعلق به لكثير ، وإنما صح تعلق جر فى جر بفعل واحد بلا تبعية معنييهما ، لأن لام لكثير للتعدية ، ولام ليردوهم للتعليل ، وإذا جاء ما اتفق معناه من ذلك فاجعل الثانى قيداً للفعل وللأول ومدخوله لا للفعل وحده ، وإنما تكون الثانية للتعليل إذ قيل : المزين الله بالخذلان أو الشيطان بالوسوسة ، وإن كان المزين السدنة ، أو الكهان فهى لام الصيرورة لأنه ليس غرضهم الإرداء ولبس دينهم ، ولا مانع من لبس الله دينه عليهم بمعنى خذلانهم لا غير باختيارهم ، وقد بين لهم ولم يقبلوا .

(وليَلبسُوا علَيهم دِينَهم) أى ليخلطوا عليهم دين الله الواجب عليهم الذى يجب أن يكون ديناً لهم بغيره وهو دين الضلال ، أو ليخالطوا عليهم دينهم الذى كانوا عليه وهو دين إسماعيل عليه السلام ، وهو دين إبراهيم عليه السلام بغيره من الضلال ، وبهذا الوجه يقول ابن عباس رضى الله عنهما : وقال ليدخلوا عليهم الشك فى دينهم .

(ولوْ شَاء اللهُ) أن لا يفعلوه (ما فعَلُوه) أى ما فعلوا ماذكر من قتل الأولاد ، وجعل النصيب للأصنام وإقرار ما وصل إليه من نصيب الله ، ولكن شاء فعله ففعلوه ، ومن زعم أنه لا يشاء المعصية زعم أن المعنى لو شاء إجبارهم عن المعصية لم يفعلوها بأن يجبرهم عنها ، والواو للمشركين من العرب ، أو لشركائهم المزينين لهم ، ففى هذا الوجه يكون

ما فعلوه هو القتل ، فترجع الهاء للقتل ، ويجوز عود الواو للمشركين وشركائهم فيشمل الهاء القتل فى جنبهم وجنب الشركاء ، وشمل جعل النصيب وإقرار ما لله فى نصيب الأصنام فى جنب المشركين .

(فَذَرهُم وما يفترُون) لتركهم وافتراءهم فما مصدرية ، أو ذرهم والكذب الذى يفترونه ، أى يوقعونه فهى اسم موصول ، والآية تهديد لهم وعذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن قد بلغ ، ومن زعم أنه بمعنى لا تقاتلهم قال نسخ بالسيف .

(وقالُوا هَذه أنعامٌ وحَرثٌ) إشارة إلى الأنعام والحرث التى جعلوها نصيبا لشركائهم (حِجْرٌ) بمعنى محجورة عمن يأكلها ، محرمة كالذبح بكسر الذال بمعنى المذبوح ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والمفرد والتثنية والجمع ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات ، وقرأ الحسن وقتادة بضم الحاء والمعنى واحد ، وعن ابن عباس حرج بكسر الحاء المهملة وتقديم الراء على الجيم ساكنة ، أى ضيقة على من يأكلها ، أى محرمة ، وأصله حرج بفتح الحاء وكسر الراء نقلت كسرتها للحاء فكانت ساكنة .

(لا يَطعَمُها) لا يأكلها (إلاَّ مَن نَشاءُ) خبر ثالث ، والثانى حجر ، والأول أنعام وحرث ، وإنما أفاد بالثانى والثالث (بزَعْمهم) يتعلق بقالوا أى قالوا ذلك بمجرد اعتقادهم الباطل الذى لا دليل له من الله فيه ، أو بزعمهم أن الله عز وجل أمرهم بذلك (وأنعامٌ حرِّمت ظُهورهَا) عطف على أنعام ، وحرمت ظهورها نعت لأنعام ، والمراد الحامى والبحيرة والوصيلة عند من يجعل الوصيلة من الإبل والسائبة ، ومرَّ بيانهن فى سورة المائدة ، وأنهم يحرمون ركوبها والحمل عليها ، وقال مجاهد فى قوله تعالى : « هذه أنعام » هى الحامى والبحيرة والوصيلة

والسائبة لا تؤكل ، وقال فى قوله تعالى : « وأنعام حرمت ظهورها » أنها هذه الأربعة أيضا ، وصفها الله عنهم بأنها محرمة الأكل وأنها محرمة الظهر ، وما ذكرته أولا أحق .

قال أبو عمر وعثمان بن خليفة :

البحيرة : الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، فإن كان الخامس ذكراً نحروه وأكله الرجال والنساء ، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها أى شقوها ، وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها ، فإذا ماتت حلت للنساء .

والسائبة : البعير يسيب بنذر يكون على الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزله أن يفعل ذلك فلا يحبس عن رعى ولا ماء ولا يركبه أحد .

والوصيلة : من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكرا ذبح ، فأكل منه الرجال والنساء ، وإن كانت أنثى تركت فى الغنم ، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبح لمكانها ، وكان لحمها حراماً على النساء ، ولبن الأنثى حراماً على النساء إلا أن يموت منها شىء فيأكله الرجال والنساء .

والحامى : الفحل إذا ركب ولد ولده ، ويقال إذا نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء .

(وأنعامٌ لا يَذْكُرونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْها) معطوف على أنعام الأول ، وجملة لا يذكرون اسم الله عليها نعته ، ويجوز أن يكون أنعام

مبتدأ ، وحرمت ظهورها خبر ، وأنعام مبتدأ ولا يذكرون خبره ، والمسوغ التنويع ، والمراد أنعام يذبحونها ولا يذكرون اسم الله عليها ، بل أسماء آلهتهم إذ يذبحونها لها ، وقال قوم : كانت لهم سنة فى الأنعام ما أن لا يحجوا عليها فكانت تركب فى كل وجه إلا فى الحج ، ولعلها أنعام يعينونها لأصنامهم ، ولزم من الحج على الإبل ذكر الله عليها بنحو التلبية فنفى الحج عنها بنفى لازمه وهو الذكر لله عز وجل ، وقيل : لا يركبونها للعمل خير ، وجرت العادة بذكر الله جل وعلا على فعل الخير ، فنفى فعل الخير عنها بنفى لازمه وهو ذكر الله تعالى ، وعن الحسن : أنعام لا يذكرون اسم الله عليها وهو ما استحلوه من الميتة ونحوها •

(افْتراءً عليهِ) مفعول مطلق ناصبه قالوا ، لأن قولهم افتراء أى كذباً لأن المعنى قالوا على الله هذه أنعام ، وعليه متعلق بقالوا أو بمحذوف نعت لافتراء ، وإن قلنا افتراء مفعول لأجله أو حال أى مفترين ، أو ذوى افتراء ، أو هم أنفسهم افتراء بطريق المبالغة ، أو فعلية متعلق به أو بمحذوف نعت لافتراء ، ويجوز تعليقه بافتراء محذوفاً ناصبا لافتراء على المفعولية المطلقة •

(سَيَجْزِيهم بما كانُوا يفْتَرُون) سيعاقبهم بالنار بسبب ما كانوا يفترونه ، أو بسبب كونهم يفترون ، أو سيعوضهم النار بدل ما كانوا يفترونه ، أو بدل كونهم يفترون •

(وقالُوا ما فى بُطُون هَذه الأنعام خالصةٌ لذكُورنا ومحرَّمٌ على أزْواجنا) ما واقعة على الأجنة التى فى البطون عند الفراء ، ولذلك جاء الخبر مؤنثاً وهو خالصة ، ولذكورنا متعلق ، وذلك من الحمل على المعنى ، وحمل بعد ذلك على اللفظ فى قوله ومحرم ، ومثل هذا مرجوح .

والراجح العكس بالنسبة إليه ، وإنما قلت بالنسبة لأن الراجح مطلقا اعتبار اللفظ أولا وآخراً ، وقد يجاب بأنه ليست التاء فى خالصة للتأنيث ، بل للمبالغة كرجل رواية أى كثير الرواية للشعر أو للنسب أو غيره ، يقولون : فلان راوية الشعر ، أو هو مصدر ، وبه قــال الكلبى ، والمصدر إذا أخبر به أطلق بما فيه من تذكير ولو على مؤنث ، أو من لفظ تأنيث ولو على مذكر من المصادر التى بوزن فاعل ، كما قيل فى عاقبة وعافية ، فإذا كان مصدراً أول هنا باسم فــاعل مذكر أى خــالص ، إذ لا يخبر بالحدث عن الجنة ، أو بتقدير مضاف لذلك أيضا ، أى ذو خالصة أى ذو خلوص ، أو بالكون على طريق المبــالغة ، كان ما فى بطون هــذه الأنعام نفس الخلوص لذكورهم .

وقرأ ابن مسعود كما رسم فى مصحفه خالص بالرفع وإسقاط التاء وهو ظاهر لا خفاء فيه ، وقرىء خالصاً بالنصب وإسقاط التاء ، فيكون لذكورنا خبر ، وخالصا حال من المستكن فى قوله : « فى بطون » لا حال من المستكن فى لذكورنا ، لأنه ليس فى لذكورنا لفظ الفعل ، فلا يتقدم حاله عليه ، وقيل بجــواز ذلك ، وأجازه ابن مالك قليلا ، ولا حال مــن ذكور ، لأن الحال لا تتقدم على صاحبها المجرور بحرف غير زائد ، وقيل بالجواز ، ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى خلوصا ، فيكون مفعولا مطلقا مؤكداً أى خلص خلوصا ، وقرأ ابن عباس خالصه بضم الصاد بعده هاء الضمير بلا نقطة ولا تنوين ، فيكون خالصهُ بدلا ومضافاً إليه ، والمبدل منه ما أو مبتدأ ثان ومضاف إليه ، والخبر لذكورنا ، ومعنى خالصة فى هذا القراءة حية أى ما كان حيا مما فى بطون هذه الأنعام ، والمراد بالأنعام عند ابن عباس وقتادة والشعبى السائبة والصيلة والبحيرة ، وقيل : مــا لأصنامهم مطلقا ، يعنون أن أجنتها حلال لذكور بنى آدم إن ولدت حية ثم ماتت أو ذبحت ، ومحرم على أزواجنا أى على الإناث ، لأن الإناث

صالحة لأن تكون أزواجا ، فالمراد تحريمه على الإناث كن أزواجا أولا فتأول بعموم المجاز على الجمع بينه وبين الحقيقة ، وذلك إن ولد حياً ثم مات أو ذبح .

ودل على اشتراط الحياة قوله تعالى : (وإنْ يكُنْ ميْتةً) أى وإن يكن ما فى بطونها ميتة حين خروجه (فَهُمْ) أى ذكورنا وأزواجنا فيه شركاء فيه متعلق بشركاء ، وإنما أنث خبر يكن مع أن اسمه مذكر معتبر فيه لفظ ما ، لأن ميتة يطلق على المذكر والمؤنث ، وهذه قراءة الجمهور ، وعليها عاصم فى رواية حفص عنه ، وروى أبو بكر عن عاصم : تكن ميتة بالتاء الفوقية برد الضمير المستتر فى تكن إلى ما باعتبار وقوع ما على الأجنة ، وميتة بالنصب فى ذلك كله خبرا ليكون ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر بالفوقية ، ورفع ميتة فذلك فعل وفاعل ، ولا خبر ليكون ، أى وإن حصلت ميتة مما فى بطونها ، والميتة ولو وقعت على مذكر ويجوز تأنيثها ، فلوقوع ميتة صالحا لمذكر أو مؤنث اعتبر التذكير لأنه الأصل ، فقال : « فهم فيه » ولم يقل فيها ، ولو فى قراءة من قرأ تكن بالفوقية ، ونصب ميتة أو رفعه .

وأما أن نجعل خالصة فى قراءتى التذكير بمعنى لبن خالص فيتعطل بقوله : « وإن يكن ميتة » فيتكلف له أن المعنى إنما فى بطونها من اللبن حلال للذكور فقط ، وأن ما فيها من الجنين إن ولد ميتاً فهم شركاء فيه ، والأخص به الذكور أيضا ، فيعود ضمير يكن لما بالاعتبار أنه لبن ، بل إنه جنين ، وهذا استخدام ، أو يختص هذا التفسير بقراءة رفع ميتة .

(سَيَجْزِيهم وصْفَهم) سيجزيهم بوصفهم بالنار ، أى بجزاء وصفهم ، أو سيجزيهم جزاء وصفهم ، والمراد وصفهم ما يفعلونه من

تلك الجهالات ، لأنه من الله كما فى : « وتصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام » (إنهُ حكيمٌ) فى صنعه ومنه عقابه العصاة (عليمٌ) بكل شىء فيجازى عليه ، ومنه تحليلهم ما لم يحل الله ، وتحريم ما لم يحرم الله .

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا) وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد التاء للتكثير ، لأن الموءودات كثيرات لا للتعظيم ، لأن القتل لا يتفاوت ، اللهم إلا أن يعتبر بما زاد تعذيباً ولا يحتمل الحياة (أولادَهُم سَفَهاً بِغَيْرِ علمٍ) سفهاً مفعول مطلق لخسر ، لأن السفه خسران ، أو لمحذوف أى سفهوا سفها ، والجملة بدل من الأولى بدل مطابق ، أو سفها مفعول لأجله ناصبه خسر ، أو حال أى ذوى سفه أو سفهاء أو هم سفهاء مبالغة ، ويدل للحال قراءة بعضهم سفهاء جمع سفيه ، وبغير علم نعت سفهاء ، والسفه خفة العقل والجهل ، ويجوز إطلاقه على الخسران ، لأن الخفة والجهل سبب الخسران ، والمراد الذين يقتلون بناتهم مخافة أن لا تزوج فى التزوج إن كانت ذميمة ، أو مخافة الفقر والسبى أو الغيرة بشىء تأتيه ، وربما أخذت أحدهم الغيرة أن توطأ ابنته .

والمذكور فى القرآن القتل خوف الفقر لقوله تعالى : « من إملاق » وصفهم الله بالخسران إذ خسروا الجنة ، وخسروا أولادهم ، وهم نعمة من الله لهم فى النفع ، وزيادة العدد ، وصفهم بالسفه إذ جهلوا لأنهم آكلون للرزق لا رازقون ، فرزقهم ورزقهن عند الله ، وكان قتل البنات فى ربيعة ومضر ، وجمهور العرب لا يفعلون ذلك ، وقيل فى ربيعة ومضر وبعض العرب ، وكان أيضا فى بعض غير العرب ، وكانوا يقتلونهن بالدفن وبالإلقاء فى بئر بعيدة القعر ، وقد تفعل المرأة ذلك بقهر زوجها لها على ذلك بالظهار ، وذلك عندما تلدها ، وظل وجهه مسوداً ، تلدها مثلا فى

الغدو ، فيقول لزوجته الوالدة لها : أنت عليَّ كظهر أمي إن رجعت في الزواج ولم تئديها ، فتحفر لها حفرة فترسل إلى نسائها فيجتمعن عندها ، ثم يتداولنها بينهن ، فإذا أبصرنه راجعا دستها في حفرتها وسوت عليها التراب .

وروى أنه كان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال مغتما بين يديه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مالك تكــون مخزونا ؟ » فقال : يا رسول الله إني قد أذنبت ذنباً فأخاف أن لا يغفر لي وإن أسلمت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخبرني عن ذنبك » فقال : يا رسول الله إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لي بنت فشفعت إليَّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء ، فخطبوها فدخلت على الحمية فلم يحملني قلبي على أن أزوجها أو أتركها في البيت بلا زوج ، فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا في زيارة أقاربي فابعثيها معي ، فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلي ، وأخذت عليَّ المواثيق بأن لا أخونها ، فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر ، فالتزمتني ، يعني التصقت بي تضرعاً كالمصافح المعانق ، وجعلت تبكي وتقول : يا أبتي أي شيء تريد أن تفعل بي ، فرحمتها ثــم نظرت في البئر فدخلت عــلى الحمية فالتمزتني وجعلت تقول : يا أبتي لا تضيع أمانة أمي ، فجعلتُ مرة أنظر إلى البئر ، ومرة أنظر إليها فأرحمها ، فغلبني الشيطان فأخذتها فألقيتها في البئر منكوسة وهي تنادي في البئر يا أبي قتلتني ، فمكثت هناك حتى انقطع صوتها ، فرجعت ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال : « لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك بما فعلت » وكانوا يقولون للملائكة : بنات الله ، فألحقوا البنات به ، فكانوا يقتلون إلحاقا به بالموت .

(وَحَرَّموا ما رَزَقهمُ اللهُ) من الحوامى والسوائب والبحائر والوصائل ، ونصيب الأصنام من الحرث والأنعام (افْتراءً عَلى اللهِ) إذ قالوا : حرمها الله وهو مفعول مطلق للتحريم ، لأنه منه أو تعليل له أو حال ، أى ذوى افتراء أو مفترين ، أو نفس افتراء مبالغة (قَدْ ضَلّوا) عن الحق فى ذلك (وما كانُوا مُهْتَدينَ) فيه إلى الحق ، أو ضلوا بذلك وليسوا قبله بمهتدين .

قال ابن عباس : من أراد أن يعلم جهالة العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام : « قد خسر الذين قتلوا » إلى « وما كانوا مهتدين » ذمهم الله جل وعلا بالخسران والسفاهة وعدم العلم ، أو تحريم ما رزقهم الله ، والافتراء على الله والضلال وعدم الاهتداء .

(وهُوَ الَّذى أنشَأ) خلق بإبداع (جنّات) من بين الكروم (مَعْرُوشاتٍ) مرفوعات الكروم على بناء يبنى لها ، أو على نحو خشب تغرز أو تمدها فتكون عليها (وغيرَ معْرُوشاتٍ) غير مرفوعات لم يبن لها ذلك ، ولم يغرز فتكون منبسطة على الأرض ، يقال عرّشت الكرم أعرشه بالتخفيف وبالتشديد إذا جعلته عريشا ، أى سقفاً على ما غرز له أو بنى ، أو رفعته على سقف سابق ، واعترش الكرم صار عريشاً على غيره أى سقفاً ، أو على سقف فالجنات المعروشات ، وغير المعروشات ، كلها من الكروم ، وذلك قول الضحاك ومجاهد ، ويسمى الكرم عريشاً .

وقال ابن عباس والكلبى : المعروشات كل ما ينفرش على الأرض ولا ساق له ، فيكون كسقف عليها كالكروم والقرع والبطيخ ، وفيه نظر ، فإنهُ لا يعهد نحو نبات القرع والبطيخ فى جنات ، وغير المعروشات ما لا يكون كالسقف على الأرض ، لأن له ساقاً يرفعه كالنخل والزرع

وغير ذلك ، ونسب أيضا لابن عباس القول الأول ، وقيل : المعروشات ما من شأنه أن يعرش عرش أو لم يعرش وهو ما فى البساتين المتخذة عند القرى والأمصار من الكروم وغيرها ، وغير المعروشات ما كان فى البرارى والجبال من الكروم وغيره ، فإنهُ لمن شأنه أن لا يعرش ، وفيه نظر ، لأنهُ لا تعهد تسمية الشجرة الواحدة أو اثنين جنة ، ولا تعهد الكثرة والاتصال فى البرارى إلا أن يعد شجر البرارى المثمرة ، وقيل : المعروشات الكروم ، وغير المعروشات ما ينبت على الأرض ينبسط عليها •

(والنخْلَ والزَّرع) ذكرهما بالعطف على الجنات إذا لم يدخلا فى المعروشات وغير المعروشات وعلى دخولهما ، فذكرهما لأنهما المقصود الأصلى ، وكذا ذكر الزيتون والرمان والزرع وكلما يحرث كالبر والشعير ونحوهما ، وكاللفت والجزر ونحوهما •

(مُخْتلفاً أكُلُه) حلاوة وحموضة ، وجودة ورداءة ، وهيئة وقدرا ولونا ، والهاء للزرع والنخل وغيرهما ، بتأويل ما ذكر ، ولذلك أفرد ، أو أفرد باعتبار فرد فرد على العموم البدلى ، أى أكل كل واحد أو الهاء لأقرب مذكور وهو الزرع ، ويعلم الباقى بالقياس عليه ، قيل : أو للنخل والباقى يحمل عليه ، واختص لأنه أول بالنسبة للزرع ، فهو كالعمدة مع فصله عما بعده ، ومختلفا حال مما عادت إليه هاء أكله وهى مقدرة لا مقارنة ، لأنه حال الأنشأ ليس فيه ما يؤكل ، فضلا عن أن يختلف هذا الذى يؤكل ، والأكل بضم الهمزة ما يؤكل وهو ثماره ، لكن الضم منقولٌ عندنا للتنوين •

(والزَّيتُون والرُّمان مُتشابهاً وغيرَ مُتشابهٍ) يتشابه بعضه مع بعض ، ولا يتشابه بعضه مع الآخر لوناً وطعماً ، وقدراً وهيئة ، وورقاً

وثمراً ، ومر كلام فى ذلك عند قوله : « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات » الآية فإن هذه الآية وتلك ســواء ذكر فيهما أنواعاً خمسة ، ولكن اختلف الترتيب بينهما ، ذكر هنالك الحب والنخل أولا لكونهما العمدة ، وذكر هنا العنب أولا لكونه ألذ مع ما زاد من تطريته بتنويعه إلى معروش وغيره ، إذا قلنا : إنه العنب ، وذكر هنا متشابهاً مرتين ، وهنالك الأول مشتبها ، والأخير متشابها لزيادة التأكيد هنا ، فإن متفاعلا أبلغ من مفتعل ، لأن التفاعل للمسابقة أظهر ، وما للمسابقة يشتد التفاوت فيه ، واختص المبالغة بما هنا لأنه ثان بالنسبة لما هنالك ، وهكذا كما مترفاً تزداد تشديداً وكالمبالغة بثم فى قوله : « كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون » دالة على ازدياد الإنذار والتشديد فيه ، وقال هنالك : « انظر إلى ثمره » قصداً للاستدلال على الوجود والوحدانية والقدرة التامة ، فالآية سبقت فى ذلك وقال هنا :

(كلُوا من ثَمره إذا أثمرَ) وقرىء بضم الثاء والميم قصداً إلى ذكر الانتفاع والامتنان به ، والدلالة على وجود الله ، والقدرة التامة والوحدانية أحق بالتقديم ، لأن هذا هو المقصود بالذات ، أعنى مــا ذكرته من الوجود والقدرة والوحدانية ، وهاء ثمره كهاء أكله ، ومعنى الأمر بالأكل من ثمره الأمر بالأكل منه ، ولو لم يدرك ، أو إباحة الأكل منه ، ولو قيل إيتاء حقه دفعاً لما يتوهم من تحريم الأكل منه ، لأن فيه حقا لأهله وهم المساكين ، وضمير أثمر عائد إلى ما عادت إليه الهاء لا إلى ثمره ، أى كلوا من ثمره إذا أخرج ثماراً ، وقد يعود إلى ثمره على معنى الإدراك ، أى إذا كمل ذلك الثمر بأن أدرك ، كمــا ضيقوا عــلى أنفسهم بتحريم البحائر ونحوها ، وتحريم نصيب من الحرث والأنعام يجعلونه للأصنام وغير ذلك ، ويكون الأمر للإرشاد إذا كان أثمر بمعنى كمل ثمره بأن أدرك .

(وآتُوا حقَّه يَوم حَصَادِه) أوصلوا حقه الواجب فيه إلى أهه أعطوهم إياه وهم المساكين يوم قطعه ، والحصاد فى الآية أصل لقطع ثمر النخل وحقه والزكاة إذا بلغ ثمره خمسة أو ساق كما بينته السنة ، وكان الحب ثمراً أو براً أو شعيراً أو زبيباً أو ذرة أو سلتاً كما جـاءت الآثار عندنا ، وقيل : بالزكاة فى جميع الحبوب والثمـار حتى الرمـان والزيتون والتين والفول ، بتقدم عموم الجنات ، وعموم الزرع ، وقيل : بوجوب الزكاة ولو فى القليل لعموم الآية ، وليس كذلك ، لأن السنة قد بينت .

ومنها ما روى أنه صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً إلى اليمن فأمره أن يأخذ الزكاة من التمر والزبيب والبر والشعير والذرة ودخل السلت ، أما فى البر أو الشعير فقال صلى الله عليه وسلم : « ليس فى الخضروات زكاة » وذلك الحق هو العشر فيما يسقى بلا علاج ، ونصفه فيما يسقى كالسقى على الناضح وغيره من الدواب ، وكالسقى بالدولاب والبابور ، ويعتبر الفرض يوم الحصاد ، فكلما حصد وجب فيه إذا جمع عرمة أو عرمات فلا يأكل منه إلا بحساب ، ولكن إن ضاع قبل الدوس والتصفية بلا تضييع لم تغرم فيه ، وإن جف ونقص عن النصاب وجبت بالقدر الذى هو حال الحصاد ، وذلك يوجب تحزيراً كما قيل أيضا : تجب إذا أدركت فلا يأكل فى هذا القول إذا أدركت إلا بحساب ، وقيل : تجب بالإدراك ويؤدى على الموجود فقط إذا دوس إذا أمرنا بالأكل منه إباحة وأمرنا بالإعطاء منه إذا حصد ، وذلك على الإمكان منه ما يمكن الإعطاء ، والكيل منه بمجرد القطع كالتمر .

ومنه ما يحتاج للتصفية ، وعلى هذا فقال : « يوم حصاده » تعجيلا وإنشاطا وترغيبا ، ولقربه حينئذ من التصفية ، فيوم بمعنى زمان ،

ووقت حصاده وتصفيته زمان واحد متصل يحمل الإعطاء على قدر الإمكان وهو يمكن إذا صفى ، ومسائل الزكاة مبسوطة فى الفقه ، وحمل الآية على الزكاة الواجبة المعهودة هو قول ابن عباس ، وأنس ، وطاووس ، والحسن ، وجابر بن زيد ، وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن الحنفية ، وقتـــادة .

والزكاة مشروعة فى المدينة ، ففى هذا القول نزلت هذه الآية فى المدينة ، وجعلت فى هذا الموضع من الأنعام وهى محكمة ، وقيل : ليست الآية فى الزكاة المذكورة ، بل المراد صدقة واجبة فى مكة عند الحصاد لا قبله ، ولا يؤخر فنسخت بآية الزكاة ، وعن ابن عباس : نسخت آية الزكاة كل صدقة فى القرآن ، فإن كانت هذه غير الزكاة فقد نسخت بأول آية نزلت فى الزكاة ، وإن كانت هذه فى الزكاة فهى ناسخة لكل صدقة غير الزكـــــاة .

وقيل : إن هذه غير الزكاة الواجبة المعهودة الآن ، وإنما غـــير واجبة ، فليست منسوخة بالزكاة ، بل بقى استحبابها ، وبه قال سعيد بن المسيب فى رواية عنه ، وهو قول مجاهد قال : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم منه شيئا قبل لقط السنبل ، فإذا دوسته وذريته فاطرح لهم منه ، وإذا عرفت كيله فاعزل زكاته عشره أو نصف عشره ، وهذا بيان الحق المندوب إليه ، وكذا بيانه على القول بأنه حق واجب غير الزكاة ، فإنه هو الذى ذكره من الطرح فى الوقتين ، ولكن لفظ الحق أنسب بالوجوب فقد وجب ، ثم نسخ بالزكاة ، وأنسب بأن يكـــون هو الزكاة ، لكن يضعفه لزوم إيجابه فى كل ما يخرجه ، وفى كل غـــلات الشجر المتخذ حتى الرمان .

وقيل فى بيان الحق المذكور : إنه غير الزكاة واجبا أو مندوبا إليه على القولين أنه إطعام من حضرك ، وترك ما سقط من الزروع والتمر لمن يلقطه ، وهو رواية عن الحسن ، وعطاء ، ومجاهد ، وحماد ، وعن ربيعة : هو السنبل ، وعن مجاهد : كانوا يلقون العذق عند الصرام فيأكل منه من مر ، وقيل : كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيعلقونه فى جانب المسجد فيضربه بعصاه ، فما سقط أكله ، واتفقوا أن لا واجب من ذلك بعد نزول الزكاة ، قال صلى الله عليه وسلم للأعرابى القائل بعد ذكر الزكاة : هل علىَّ غير ذلك ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » والحديث فى صحيح الربيع بن حبيب ، وقرأ غير الأخوين والحرمين بفتح حاء حصاده وذلك لغتان .

(ولا تسْرفوا) لا تجاوزوا ما حده الشرع بأن تنفقوا فى المعصية ولو قليلا كالنفقة على الصنم ، وتحريم نحو البحيرة وسهم الصنم ، أو تضيعوا أو تمنعوا الزكاة أو بعضها ، أو يأخذ السلطان الزكاة مما لم تجب فيه ، أو يأخذ أكثر مما وجب ، أو يعطوا ما لهم ويبقوا يتكففون الناس ، أو يحتاج عيالهم : « ولا تبسطها كل البسط » قال سفيان : ما أنفقت فى غير طاعة الله فهو سرف ولو قليل ، قال مجاهد : لو أنفقت درهماً أو مداً فى معصية الله كنت مسرفاً ، قالا : وما أنفقت فى طاعة الله فلا سرف ولو كان أباقبيس ذهبا إذا أبقى لنفسه ولعياله .

ولما صرم ثابت بن قيس بن شماس خمسمائة نخلة فقسمها فى يوم واحد ، ولم يترك لأهله شيئا ، نزلت فيه : « ولا تسرفوا » فهى مدنية ، ولعله فعل ذلك ، وقرأ له رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « ولا تسرفوا » وذلك لأنه لم يترك لعياله ، وكذا قال السدى : الإسراف أن تعطى مالك وتقعدَ فقيراً ، قال الزجاج : إن أعطى ولم يوصل لعياله

شيئا فقد أسرف ، وقد جاء فى الحديث : « ابدأ بمن تعول » وعن سعيد : الإسراف هنا منع الزكاة لأنه مجاوزة الحد .

(إنَّه لا يحبُّ المسْرفينَ) لا يعد لهم ما يعد الحبيب لحبيبه ، بل يعاقبهم إذ لم يرض عن إسرافهم .

(ومِنَ الأنعْام حَمولةً وفرَشاً) من الأنعام متعلق بأنشأ السابق بواسطة تسلطه على حمولة ، وفرشا بالنصب على المفعولية بواسطة عطفهما بالواو على جناب ، ومن للابتداء أى من جنس الأنعام ، أو يتعلق بمحذوف حالا من حمولة وفرشا ، فتكون من للتبعيض أو للبيان ، والمعنى أنه أنشأ الحمولة والفرش لأبيكم آدم ، فهى تتوالد حتى وصلتكم بالولادة وأنشأها لكم بمعنى أنه لم يقطع توالدها عنكم ، بل صيرها تلد لكم ، وقيل : يقدر أو أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا ، والحمولة ما يحمل على ظهره وهو الإبل ، وإنما كانت فيه التاء مع أنه فعول بمعنى فاعل ، لأنه اسم خارج عن الوصية ، وأصله أن يكون وصفا والفرش ما دونه من الأنعام وهو البقر والغنم ، شبهت لقربها من الأرض لصغرها بالنسبة إلى الإبل بما يفرش على الأرض .

والفرش مصدر سمى به البساط المفروش على الأرض ، ثم أطلق على البقر والغنم بالتشبه ، والحمل ولو كان قد يكون على البقر وعلى كبش الراعى الذى يحمل عليه الشىء اليسير ، لكن ذلك قليل غير مطرد ، فوجب التيسير بالمطرد وهو الإبل .

وقال الربيع ابن أنس : الحمولة الإبل والبقر ، والفرش الغنم ، وذلك باعتبار من اعتاد الحمل على البقر ، وقيل : الحمولة الإبل الكبار ،

والفرش الصغار من الإبل وهو رواية عن ابن عباس رضى الله عنه ، وعن ابن مسعود وابن عباس والحسن : الحمولة ما يحمل وهو الإبل الكبار ، والبقر الكبار ، والفرش الإبل الصغار ، والبقر الصغار ، والغنم •

وعن ابن عباس : الحمولة الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، وكلما يحمل عليه ، والفرش الغنم ، وفى هذا تسميته غير الإبل والبقر والغنم أنعاماً مثلهن ، وقيل : سمى الصغار من ذلك فرشا لقربه من الفرش الذى هو اسم للأنعام ، أو قيل : لأنه يضطجع على الأرض فيكون كالفرش إذا أريد ذبحه ، وقيل : لأنه يتخذ من صوفه وشعره ووبره ما يفرش على الأرض •

(كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ) وهو تلك الأنعام والحروث وغيرها ، لا تحرموا منه شيئا كالبحيرة وأخواتها ، وما تجعلون للأصنام ، والجملة مفعول لحال محذوف ناصبه أنشأ المذكور أو المحذوف ، أى قائلين كلوا وهى محكيته إن قيل الإنشاء غير إنشاء أولها ، أو أنشأها الأول ، أو ما بعده باعتبار آدم ومقدرة إن قلنا الإنشاء الذى قبل آدم ، أو الجملة معترضة كلام بلا تقدير قول ، ومعلوم أن الله لا يسمع الحرام ، فالمعنى مما رزقكم الله وكان حلالا ، فالرزق يطلق على الحلال والحرام عندنا ، لا كما قالت المعتزلة : إنه لا يطلق على الحرام ، زعموا هنا أن الله أمر بأكل الرزق ومنع بعد من اتباع خطوات الشيطان ، ومنها أكل الحرام ، ولا يتعين ذلك ، بل الآية أنسب بما قلنا بأن أباح الرزق ونهانا عما حرم منه وهو الحرام •

(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) وساويسه فى تحريم البحيرة وأخواتها ، وأعنى بأخواتها السائبة والوصيلة والحامى ، وفى تحريم

ما يجعل للأصنام ونحو ذلك ، فشبه وساويسه بآثار القدم ، لأنهما شىء قد أثبته لهم ولمن قبلهم ، فمتبعه كمتبع آثار القدم ، وقرىء بضم الطاء اتباعا للخاء وبفتحها تخفيفا عن الضم ، وأما الإسكان فعلى أصله المفرد .

(إنَّه لكُم عدوٌّ مبينٌ) تعليل جملى أى لأنــه لكم عدو ظــاهر العداوة ، أو مظهرها لكم غير مخفيها ، فكيف تتبعون من يريد إهلاككم ؟ ! مبين حق ، أبان بمعنى ظهر أو أظهر .

(ثَمانيةَ أزْواجٍ) بدل من حمولة ، وفرشا ، بدل مطابق إذا قلنا : إن الأنعام لا تطلق على غير هذه الثمانية ، وإن الحمولة والفرش لا تخرج عنها ، أو مفعول به لكلوا ، فتكون جملة ولا تتبعوا خطوات الشيطان معترضة ، وعلى الأول وهو الراجح يكون ، وغيره مما يأتى مفعول كلوا محذوفاً أى كلوا ما شئتم وحل لكم مما رزقكم الله ، أو مفعول لكلوا محذوفا دل عليه المذكور ، أو حال من ما أى كلوا منه حال كونه متعدداً مختلفا لا قليلا تضيقون عنه ولا شيئا واحداً تسيمونه ، والزوج أحد كل شيئين مقترنين ، فاثنان زوجان ، والواحد زوج ، وإطلاق الزوج على اثنين لغة ضعيفة ، وقيل : تحريف ، ولو كان الزوج اثنين فى الآية لكان الحاصل ستة عشر ، وإنما الحاصل ثمانية كما ذكر الله ، الذكر والأنثى من كل نوع من الأنواع الأربعة من الأنعام ، والذكر زوج ، والأنثى زوج أيضا بلا تاء ، وورد الأنثى أيضا بالتاء قليلا فى غير القرآن .

(مِنَ الضَّأنِ اثْنيْن) كبش أو نعجة ، والضأن صاحب الصوف من الغنم ، ومن الضأن حال من اثنين ، واثنين بدل من ثمانية بدل مطابق باعتبار ما يعطف بعد أيضا ، أو مفعول لأنشأ محذوفا يتعلق بــه مــن الضأن ، والضأن جمع ضائن كصاحب وصحب ، وتاجر وتجر ،والمشهور

فى هذا ونحوه أنه اسم جمع ، ويقال أيضا : ضائبة وضأن ، وتاجرة وتجر ، وصاحبة وصحب ، وقيل : الضأن اسم جنس يطلق ولو على الواحد ، وقرىء بفتح همزة ضأن جمع ضائن كخادم وخدم ، وحارس وحرس بفتح أوائلهن ، وقرىء اثنان على لغة قصر المثنى فهو منصوب ، أو على أنه مبتدأ خبره من الضأن •

(وَمِنَ المَعز اثْنَيْن) ذكر ويسمى التيس ، وأنثى وتسمى العنز ، والمعز ما له شعر من الغنم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بفتح العين جمع ماعز ، واسم جمع كصاحب وصحب ، وقرأ أبى المعزى جمع ماعز أو اسم جمع كبيت العروض لامرىء القيس :

إذا ما لم تكن إبل فمعزى
كأن قرون جلتها العصى

« ومن المعز اثنين » وقوله : « ومن الإبل اثنين » وقوله : « ومن البقر اثنين » كإعراب قوله : « من الضأن اثنين » لكن بالعطف عليه لا بتقدير عامل •

(قُلْ آالذَّكريْن حَرَّم أم الأُنثيَيْن) قلْ يا محمد لهم إنكاراً وتوبيخاً أحرّم الله الذكرين : ذكر الضأن وذكر المعز ، أم حرم الانثيين : أنثى الضأن وأنثى المعز ، وقدم المفعول للحصر ، وكذا فى قوله بعد : « قل آ الذكرين » •

(أمَّا اشْتَمَلت عَليه أرْحامُ الأُنثَيَيْن) أنثى الضأن وأنثى المعز ، أى أحرم الله الذكرين فقط : الكبش والتيس ، أم الأنثيين فقط :

النعجة والعنزة ، أو حرم جميع ما يكون فى رحم النعجة من نعجة وكبش ، وما يكون فى رحم العنزة من عنزة وتيس ، لا تجدون الله حرم شيئا من ذلكم ، سواء أكان على صفة ما تجعلونه بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حامياً أو لم يكن ، وسواء جعلتموه نصيبا للأصنام وكفرتم بذلك أم لم تجعلوه ، فما تحريم ذلك إلا من عندكم تبعا لعدوكم الشيطان ، فإن كان فى تحريم ذلك وحى من الله أو حجة عقل صحيح فهاتوه ، فإن الصنم لا ينفع ولا يضر ، وليس ما تجعلونه نحو بحيرة مستوحيا لذلك ، وإنما هو مسخر للانتفاع ، ولذلك خلقه الله بلا حد يحده كما قال (نبِّئُونى) أى أخبرونى (بعِلْمٍ) صحيح فى تحريمهن ، أى بأمر معلوم الصحة ، أو بما يعد علماً لا جهلا (إنْ كنتم صادِقينَ) فى قولكم إنها محرمة ، أو قولكم إن الله حرمهن .

(ومِنَ الإبِلِ اثْنيْن) جملا وناقة (ومِنَ البَقَرِ اثْنيْن) ذكراً وأنثى (قلْ آلذَّكريْن) ذكر الإبل وذكر البقر (حرَّمَ) أى أحرم الذكرين فقط (أم الأنثييْن) فقط أنثى الإبل وأنثى البقر ، وأنت خبير أن الأنثيين فى الموضعين جاء على معنى الحصر ، إذ عطف على المحصور فيه وأريد فيه الحصر ، ولو تأخر إذ عطف على محصور فيه للتقديم ولا حصر فى أمَّا اشتملت الخ ، لأن فيه الذكر والأنثى جميعا ، من النوعين وكذا فى قوله : (أمَّا اشْتَملت عليْه أرْحام الأنْثَييْنِ) أنثى الإبل وأنثى البقر ، أى أم حرم ما فى رحم الناقة من ناقة وجمل ، وحرم ما فى رحم البقرة من ذكر وأنثى ، لا تجدون الله حرم شيئا من ذلك ، سواء أكان على حال ما تحرمون أم لم يكن ، ولا حجة عقل صحيح ، بل الله أمر بالانتفاع بذلك كما حد وأمر بالشفقة على ذلك كله وعلى غيره ، ونهى عن مجاوزة الحد فيه بقدر ما لا تطيق ، وعن تعذيبها ، وشق أذنها ،

تعذيب بلا فائدة ، وإهمالها إضرار لها ، فقد تجوع أو تعطش ، ولا تهتدى إلى مرعى أو ماء ، كما قال فى عدم دليل من الله على جواز ذلك .

(أمْ كُنتُم شُهداءَ إذ وصَّاكم اللهُ بِهَذا) بهذا الذى تفعلونه من تحريم بعض الإبل والبقر ، وهذا نظير قوله : « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » والتحريم فى الموضعين شاهد للتحريم المطلق ، وللتحريم على النساء فقط ، على حسب ما مر من التفصيل فى تحريمهم ، وأم فى هذا الأخير وحده بمعنى بل وهمزة الإنكار ، أى بـل كنتم شـهداء أى حاضرين حين وصى الله بتحريم بعض الإبل والبقر ، فإن الحجة العقلية الصحيحة غير موجودة فى ذلك ، ولا وحى لكم فى ذلك ، بل قد أنكرتم الوحى فلم يبق إلا شاهدة التوصية من الله ، ولا توصية بذلك من الله .

ولقد فرغت وسعى فى إيضاح الآية وهو ما رأيت ووافقت فيـه بعض ما قيل قبلى ، والحمد لله ، ومحصل ذلك أن الله عز وجل قال : من أين لكم ، إنما تجعلون الشىء به بحيرة أو وصيلة أو نحو ذلك ، ومـا تجعلونه نصيبا للأصنام حرام لا حجة لكم فى ذلك ، وزاد الفخر وجهاً آخر هو أن الأنعام أربعة كما ذكر الله ، فلم خصصتم البحيرة والوصيلة والسائبة والحامى بالإبل ، أو هذا على القول بأنهم جعلوا ذلك الإبل فقط .

وأما ما ذكروا من أن مالك بن عوف الجشمى وهو خطيبهم قال : يا محمد بلغنا أنك تحرم أشياء كان أباؤنا يفعلونها ؟ فقال له صلى الله عليه وسلم : « قد حرمتم أصنافاً من النعم على غير أصل وإنما خلق الله الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها فمن أين جاء هذا التحريم ؟ مِنْ قِبَل الذكر أم من قبل الأنثى ؟ » فسكت مالك بن عوف وتحير ولم يتكلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مالك يا مالك ألا

تتكلم ؟ » قال : بل أنت تتكلم وأسمع منك ، فارجع إلى ما فسرناها به من أنهم لا يجدون التحريم عن الله فى الذكر من ذلك ، ولا فى الأنثى ولا فيهما ، أى لا يجدون الله حرمها من قبل إنها ذكور أو إناث •

فقوله : « أمن قبل الذكر » هو معنى قوله تعالى : « قل آ الذكرين » وقوله : « أم من قبل الأنثى » راجع لقوله : « أم الأنثيين » وذلك فى الموضعين ، فإنه لو كان الذكر محرما لقيل جاء التحريم من قبل الذكر أى من جهته ، إذ حرم هو لا الأنثى ، ولو كان الأنثى محرمة لقيل : جاء التحريم من قبل الأنثى أى من جهتها إذ حرمت هى الذكر ، فقد علمت أن قوله : « من قبل الذكر » ليسه تعليلا بالذكورة ، وكذا قوله : « من قبل الأنثى » ليس تعليلا بالأنوثة لا كما قال عامة من تقدمنى من المفسرين من أن ذلك تعليل للتحريم بسبب الذكورة فيحرم كل ذكر من الأنعام ، أو الأنوثة فيحرم كل أنثى من الأنعام ، إذ لو كان ذلك لجاء لهم الجواب سهلا بأن يقولوا : ليس بالأنوثة والذكورة ، بل لكون الجمل قد جاء من صلبه عشرة أبطن ، ولكون الناقة كان منها خمسة أبطن ، وغير ذلك مما يجعلون به الأنعام وصيلة أو سائبة على ما مر هذا ما ظهر لى فى تحريم المقام ، وإذا دخل ذلك البيان من الله أسماعكم •

(فَمَنْ أظْلم ممَّن افْترَى عَلى الله كذباً) مَّا فيدخل فيه ذلك الكذب الذى هو نسبة تحريم تلك المحرمات إلى الله ، أو أريد ذلك الكذب فقط هنا ، ونكر تعظيما فى شأنه أو تحقيرا فى أنه لا يخفى بطلانه عن عاقل ترك التقليد ، والاستفهام للنفى ، والمراد بمن افترى على الله كذباً كل من قرأ عليه نحو فى البحيرة ونصيب الصنم أو غير ذلك ، أو من افترى ذلك من كبرائهم وأقره ، وقيل : المراد عمرو بن لحى بن قمعة ،

وهو أول من غير دين إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وبحر البحائر ، وسيَّب السوائب ، وفعل أمثال ذلك ، والتعميم أولى .

(ليُضِلَّ النَّاسَ) عن الحق (بغيْرِ علمٍ) متعلق بيضل ، أى يجهل أو حال من المستتر فى يضل ، أى ثابتاً بغير علم ، أو يجعل الحال كون حاضر أى ملتبسا بغير علم (إنَّ الله لا يهْدِى القومَ الظَّالمينَ) أى لا يهديهم ، أى لا يهدى من افترى عليه ، أو هؤلاء الكفرة من قريش أى لا يوفقهم فوضع الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالظلم ، أو لا يهدى الظالمين مطلقا ، وفسر المعتزلة الهداية هنا بالهداية إلى الثواب ، ولست أعنى أنه لو قال : لا يهديهم لم يكن سبيل إلى وصفهم بالظلم ، لجواز مجىء الحال منه ، أى لا يهديهم ، بل المراد ترك الاقتصار على الإضمار لا لذلك أنه لا يوجد الوصف بالشىء إلا مع تركه ، قيل : قالوا : فما المحرم ؟ فنزل الأنعام وفيها قوله :

(قُلْ لا أجِدُ فِيما أوحِىَ إلىَّ محرَّماً) أى حيواناً محرما الآن (علَى طَاعمٍ) آكل (يطْعَمه) يأكله (إلا أن يكون) الحيوان (ميتةً) بأن زالت حياته بغير ذكاة شرعية ، ودخلت فيه : الموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إن لم تدرك حياته ، وإنما قدرت حيوانا محرما وقد قدر غيرى إلا أن يكون الطعام ، لأن معظم الكلام فى الحيوان ، والكلام المتصل به هو الحيوان ثمانية الأزواج ، فلا يشكل ما حرم من غير ذلك كالطعام والشراب الذى نجس ، وكمال الناس ، وما يؤخذ فى المعصية من الزنى والكهانة ، وخرج بقولى : الآن ما حرم بعد ذلك كذى مخلب ، وذى ناب من السباع ، والحمر الأهلية ، قيل : والهدهد والنملة والصرد والضفدع والنحلة ، فإنها حرمت بعد .

وأما الخمر والربا فخرجا بذكر الحيوان فى التقدير ، وأيضا إنما حرما فى المدينة فلم تتشكل الآية ، ولما ذكر أبو داود عن ابن عباس أنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد ، أخذ منه بعض العلماء كالخازن تحريم أكلهن ومثلهن الضفدع ، وقيل : المراد بالنهى عن قتلهن إنما هو قتلهن إفساداً أما الأوليان فلا فائدة فى قتلهما أصلا ، وأما الهدهد والصرد والضفدع فيجوز ذبحهن للأكل والمنفعة ، والأول أحوط ، ويقال : لو كان التمسك لتحريم القتل حجة تحريم اللحم ولو مع ذبح لكان الأمر بالقتل حجة فى تحليل اللحم ، فيلزم أن يحل لحم الفواسق : الحية والعقرب والفأر والحدأة والعنكبوت والوزغ والكلب العقور والغراب ، وفيهن خلاف ، وفى ذات المخالب والأنياب والحمير الأهلية ، وذوات السموم ، وما يستقذر فقيل : مكروه ، وقيل : حرام ، وقيل : حلال .

وعن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تعذراً ، فبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأنزل كتابه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو وتلا : « قل لا أجد فيما أوحى إلىَّ » الآية ، نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، ونهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية وألبانها وأذن فى الخيل ، ونهى عن أكل الهر وأكل ثمنه ، وقيل : النهى فى ذلك بالتحريم ، وقيل : بالكراهية ، وقيل : منع من الحمر الأهلية يومئذ ، وليحمل على ظهرها ، وحرمها لذلك ، وحلت بعده ، وقيل : حرمها لأنها لم تخمس وقال : « ألا لا يبلغن أحدكم عنى حديثا وهو شبعان متكىء على أريكته فيقول : الحلال ما حلل القرآن والحرام ما حرمه ، وما لم يذكر فيه حل ، إلا أنى أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ،

ولا لقطة معاهد إلا ان يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم ولم يقروه فله أن يأخذ منهم مثل قراه » .

فقيل : أراد أيضا بقوله : لا يحل الكراهة والظاهر التحريم ، وما ثبت تحريمه بعد نزول الآية لا يشكل ، كما علمت أن المعنى « لا أجد الآن فيما أوحى » الآية ، وقد يقال أيضا : الحصر فى الآية إضافى منظور فيه إلى ما حرموه من البحيرة ، وما يذكر معها ، فالحصر إخراج لها لا لغيرها ، ويقوى هذا التأويل قوله فى البقرة : « إنما حرم عليكم » الآية ، ومثله فى المائدة ، وهما مدنيتان ، بل المائدة من آخر ما نزل ، وقد ورد فى السنة تحريم أشياء على الظاهر ، كذى مخلب وذى ناب من الوحش قبل نزول المائدة ، بل نزلت الأعراف فى مكة وفيها : « ويحرم عليهم الخبائث » فقيل : الخبائث ما استقذره غالب العرب ، وعد بعض منها الضفدع ، وقيل : الخبائث الميتة وما ذكر معها ، وأما النحل فمكية ، وفيها : « إنما حرم عليكم الميتة » الآية وقال أيضا فى النحل بآية أخرى على ما فى الأنعام ، والأظهر التأويل فى الكل بأن المراد بالحصر إخراج ما حرموه عن التحريم ، والتقبيح عليهم بنحو قوله : « تصف ألسنتهم الكذب » ويبعد القول بنسخ عموم الآيات بخبر واحد فى نحو : ذى مخلب وذى ناب ، وفى بعض الرواية كل ذى ناب من السباع ، وذى مخلب من الطير حرام .

وذكر بعض إنما ورد من التحريم ، واضربت فيه ألفاظ الحديث ، واختلفت فيه الأمة مع ذلك كذى ناب ، فوجه الحكم أن التحريم قد يسوغ فى الكراهية ، وما لم تضطرب فيه التحق بالخنزير ، وقرأ حمزة وابن كثير : « إلا أن تكون ميتة » بتاء التأنيث ، ولو عاد اسم الكون لمذكر ، لأن الخبر مؤنث ، فجاز التأنيث ، وقرأ ابن عامر : « إلا أن يكون

ميتة » بالتحتية ورفع ميتة على الفاعلية ، ولا خبر له ، ثم إن الاستثناء منقطع فى جميع تلك القرآت فلا تغفل ، لأن المستثنى الكون ، وليس الكون حيوانا ولا طعاما ، وتباح المبولة ولو لم تغسل ، ودم القلب وحياء الناقة نحوها ، والذكر ولو طرفه خارجا ، وكل ما يكره من الذبيحة بهذه الآية ، وكان محمد بن الحنفية إذا سئل عن ذلك قرأ الآية ، وكان صلى الله عليه وسلم يكره حياء الناقة ونحوها ، ومسائل المبولة ودم القمل مشهورة فى الفقة .

(أَو دَماً مسْفوحاً) مصبوبا من محله ، وكانت العرب تشـويه وتأكله ، فحرمه الله عز وجل ، وهو من الطعام فشمله الطعام فى قوله : « إلا أن يكون » أى الطعام ، وعلى أن يكون المعنى إلا أن يكون الحيوان فلا إشكال على أن المراد بحيوان ما فيه حياة ، سواء كان حيوانا مستقلا أو حيوانا غير مستقل كالدم ، فإنه فى محاله حى ، أو يقدر إلا أن يكون الحيوان أو نحوه ميتة ، فدخل بقولى : ونحوه الدم ، وخرج بالمسفوح الكبد والطحال ، فإنهما دم حلال الأكل كالجراد والسمك ميتتان يحل أكلهما ، وحل دم العروق كما قال أبو مخلة وعكرمة وإبراهيم النخعى وغيرهم ، ولو كان نجسا حراما لوجب تتبعه من العروق فى اللحم الكون فى جميع القرآت كما مرّ ، ومتصلا بالنسبة إلى الدم فى قراءة رفع ميتة على الحكم بأنه حيوان ، ومنقطعا بالنسبة إلى الدم على الحكم بأنه غير حيوان وهو الظاهر ، ومتصلا بالنسبة إلى لحم وفسقا ، فى قراءة رفع ميتة ، وأما فى قراءة نصبه فهو فى الكل منقطع .

(أَوْ لَم خِنْـزِيرٍ فإنـّه) أى لأن الخنزير كله لحمه وشحمه وشعره وجلده وجميع أجزائه (رِجْسٌ) نجس حرام الأكل والثمن ، وخص اللحم أولا بالذكر لأنه معظم ما يقصد ، فحرم لحمه أولا ، وحرمه كله

ثانيا ، ويجوز أن يكون الهاء للحم لأنه المقصود ، فإذا حرم اللحم تبعه غيره فى الحرمة ، فالحل والحرمة يضافان للحم أصالة ولغيره تبعاً ، لا كما زعم بعض أن الهاء للحم ، وأن غير اللحم من شحم وجلد وشعر وعظم وعصب حلال ، واحتج بأن الضمير لأقرب مذكور ، ويعترض بأن هذا فى غير المضاف إليه ، لأن الأصل فى الضمير أن يعود إلى المضاف لا إلى المضاف إلى ، ومن حجج عوده إلى المضاف إليه هنا هو قيام الدليل على حرمته كله كقوله صلى الله عليه وسلم : « بعثت بقتل الخنزير » فلــو كانت الذكاة تؤثر فى شىء منه لم يهدره كله ، وفى السؤالات : وإن أكل الدم وهو جامد أو الميتة وهى ممدودة أو ميتة الخنزير فقد هلك ، لأنهم قالوا : لا ينفعه ذلك كل هذا الوصف والخنزير يقطع منه ويشوى ولا يذبح ، وقيل : يذبح ، قال أبو محمد النصيرى رحمه الله : قال بعضهم : يجوز أن يأكل ميتة الخنزير بالمخمصة .

(أو فِسْقاً) عطف على ميتة أو لحم أى دابة من الأنعام فسق بها أى خرج بها ذابحها عن دين الله لذبحه لها للصنم وسماه فسقاً مبالغة كأنها نفس الخروج عن دين الله ، أو يقدر مضاف ، أى ذات فسق ، أى آلة فسق بها ذابحها لغير الله بذبحها لغيره ، أو بمعنى مفعول أى مفسوقا بها إذا ذبحت لغير الله تعالى وقوله .

(أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) نعت فسقاً ، والهاء عائدة إليه رابطة ، ويجوز أن يكون فسقا باقيا على المعنى المصدرى ، فيكون مفعولا لأجله وناصبه أهِلَّ فيكون جملة أهِلَّ لغير الله معطوفة على يكون ، فتكون الهاء عائدة إلى ما عاد إليه ضمير يكون ، أى إلا أن يكون ميتة أو أهلَّ به لغير الله لأجل الفسق ، ومعنى أهلَّ به لغير الله رفع الصوت به لغير الله عند ذبحه ، وكانوا يقولون : باسم اللات أو العزى أو نحوها ، ومر كلام على ذلك فى المائدة .

(فمن اضطُرَّ) إلى الأكل من الميتة وما بعدها لشدة جوعه مع فقد حلال يأكله ، أو لشوقه إليه بأن يكون حاملا تشتهى شيئا إن لم تأكله أسقطت وهذا زدته من خارج ، ولفظ الآية صالح له بالعموم ، لكن الآية الأخرى المماثلة لها قد ذكرت المخمصة فيها ، فيكون نتيجتها بذلك داخلا فى هذا العموم أو مقيساً على المخمصة وهى أحق بالتنجية من مقهور بالسيف على الأكل ، فالمذهب عندنا أنه لا يأكل ، لأن شدة اشتهائها نوع من جوع البطن فهى أقرب إلى المخمصة ، قال عبد الله ابن عون : دخلت على الحسن فإذا عنده كتاب فقال : هذا كتاب سمرة لولده ، فإذا فيه يجزى من الضرورة أو من الضارورة صبوح وغبوق .

(غَيْرَ باغٍ) فى اضطراره ، فخرج لمن بغى على مضطر مثله فنزع منه ذلك ، أو منعه عنه ولمن سافر فى معصية (ولا عادٍ) اسم فاعل عدا يعدو بمعنى جاوز الحد ، أو مجاوز للحد فى أكله بأن أكله أكثر مما يمسك رمقه ، وتقدم كلام فى ذلك ، أو المعنى مجاوز الحلال الموجود عنده إلى ذلك (فإنَّ ربَّكَ غَفورٌ) لأكله (رَحيمٌ) به إذ أباح له ذلك ، أعنى أنه لم يبقه على التحريم كما يتوهم لو لم يجز الله تعالى ذلك ، ولا أعنى أنه يجوز له أيضا ترك الأكل ، فإن الأكل واجب منه ذلك . قال بعض السلف : من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ومات دخل النار .

(وعَلَى الَّذين هادُوا) أى على اليهود وهو متعلق بقوله : (حرَّمنا) وقد للحصر (كلَّ ذِى ظُفُرٍ) لحمه وشحمه واجزاؤه ، وهو ما لم يفتروه ما يلى الأرض ويطؤها به من الأرجل كالإبل والنعام والإوز والبط من الدواب والطير قاله ابن عباس ، كأنه قيل : ما لرجله ظفر واحد ، وقال الكلبى : كل ذى مخلب من الطير وذى برثن من الوحش ، والبرثن آلة السباع فى الاصطياد ، فتدخل فى التحريم أنواع السباع

والكلاب والسنانير ، وقيل : كل ذى مخلب من الطير ، وكل ذى حافر من الدواب ، واستبعده الفخر بأن تسمية الحافر ظفراً مجاز ، أى فيكون الظفر مستعملا فى مجازه وحقيقته ، وبأن الغنم والبقر لها حافر وهما حلال لهم إلا شحومهما .

والجواب : أن لا يسمى ظلفهما حافراً ، وهذا القول الأخير قول عبد الله بن مسلم ، وكان بعض ذوات الظفر حلالا لهم ، ولما ظلموا حرم عليهم ، فكان كل ذى ظفر حراماً عليهم « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » وعن مجاهد : النعامة والبعير ، ولعله تمثيل للقول الأول المذكور عن ابن عباس لا تقييد ، ومن كلام علىّ ذلك فى آل عمران ، وقرىء بضم الظاء وإسكان الفاء تخفيفا من الضم ، وقرىء ظفر بكسر الظاء والفاء ، وقرىء بكسر الظاء وإسكان الفاء تخفيفا من الكسر .

(ومِنَ البَقَرِ والغَنَمِ حرَّمنا عَليهم شُحومَهُما) من للابتداء متعلق بحرَّمنا ، أو أضيف الشحوم إلى ضمير البقر والغنم لزيادة الربط لأنه يعلم أن شحوم البقر والغنم ولو لم تضف لضميرهما كقولك : من الله أتتنا رحمته ، وتقديم البقر والغنم على قوله : « شحومهما » واجب ، لئلا يعود الضمير إلى متأخر لفظا ورتبة ، لأن المفعول المنصوب أحق بالسبق من المفعول الموصول بحرف غير زائد ، ويكفى فى تقديمه أن يكون بعد قوله : « عليهم » أو بعد قوله : « حرَّمنا » ولكن قدم على حرمنا للحصر ، أى لم تحرم الشحوم وحدها إلا من البقر والغنم ، ويجوز أن يكون من للتبعيض فتعلق بمحذوف حال من الشحوم ، وفيه زيادة ربط آخر ، لكن لا يستقل شحومهما بلا ذكر للبقر والغنم ، ولا ذكر البقر والغنم بلا ذكر شحومهما ، والمراد شحم الكليتين وشحم التروب ،

وحل غير ذلك وشحومهما كما حل شحومهما كما ذكر الشم عاماً ، وخص به بعضا إذ قال :

(إلا ما حَمَلت ظُهُورهما) من الشحم فوق الجنب ، ودخلت الشحوم المختلطة باللحوم التى ليست على عظم ، لأن الظهر قد حملها لتعلقها به ، وعن قتادة إلا ما حملت ظهورهما ما علق بالظهر والجنبين من داخل بطونهما ، ولعله أراد بداخل بطونهما ما يلى الأرض ، وهو فى معنى ما ذكرت ، ودخل شحم الألية فى تلك لاتصاله بالمعصعص المتصل بالظهر ، واتصاله بالذنب الذى حمله الظهر إذ تعلق به ، ولكن هذا فيما له ألية خاصة وهو الغنم بل الضأن منه ، وربما كان فى بلاد غربية بقر بألية ، وذلك نادر ، ولك إدخال الألية فى قوله : « أو ما اختلط بعظم » لاختلاطها بعظم العصعص وعظم الذنب ، وقد أدخل أبو صالح والسدى الألية فيما حملت ظهورهما .

(أو الحَوايَا) جمع حوية بفتح الحاء وكسر الواو وتشديد الياء ، كوصية ووصايا ، وهدية وهدايا ، أو جمع حاوية ، وأصله فواعل ، أو جمع حاوياء كقاصعاء وقواصع ، قلب كسر ما بعد ألف الجمع فتحا ، وما بعد هذا المكسور ألفا ، وعلى كل حال هو من حوى يحوى بمعنى اشتمل وهى المباعر عند ابن عباس والكميت بمعنى موضع الأمعاء ، وتسمى مباعر لأنها مواضع البعر أو آلة للتبعر .

وقيل : تسمى أيضا مصارين ، والمصارين جمع مصران والمصران جمع مصير بمعنى صيرورة الطعام أى يصير ، فحذفت ياء مصير وهو عين الكلمة ، يعنى مَصر بوزن فَعل فجمع على مصران ، والمراد المصران الذى فيه الشحم وهو المتصل بالدبر لا الذى لا ينبت فيه الذى يكون

أملس إلى صفرة ، والعطف على ظهور أى أو ما حملت الحوايا من الشحم ، فإنه حلال لهم أيضا ، وأما ما ينبت عليه الشحم فحلال بالأولى ، لأنه ليس شحما ، أو معطوف على ما ، أى أو إلا الحوايا بجملتها نفسها ، والشحم النابت عليها هو حلال أيضا ، ونفسها ولو لم يكن شحما لكن صح استثناؤه من الشحم فى هذا التأويل تغليبا لأن أكثره شحم ، وظاهره شحم ، أو هو فى نفسه شحم صلب ، وإذا عطف على ما فهو منصوب ، وإذا عطف على ظهور فهو مرفوع ، وإذا عطف على ظهور فأو للتنويع أو التقسيم باعتبار ما يعينه الإنسان ، أى إلا ما قلت أيها الإنسان حمله الظهر ، أو ما قلت إنه حمله الحوايا ، أو هى بمعنى الواو ، وإذا عطف على ما فأو بمعنى الواو .

(أو ما اخْتَلطَ بعظْمٍ) أى ما اختلط بعظم متصلا به أو بواسطة لحم تحته ، فتدخل فى شحوم العظام كلها والألية على ما مر ، فكل شحوم البقر والغنم حلالا لهم إلا التروب وشحم الكليتين فمحرمة ، وذلك قبل بعثة رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأما بعدها فحل لهم جميع ذلك ، لأنه بعدها كلفهم بما كلف به المسلمين ، وقيل : الحوايا معطوف على شحومهما ، فتكون اللحوم والحوايا محرمة عليهم ، فأو بمعنى الواو فيه ، وما اختلط بعظم معطوف على ما فهو حلال أيضا ، ولو على هذا القول ، وهذا القول ضعيف .

قال جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة : « إن الله حرم بيع الخمر والميتة والأصنام والخنزير » فقيل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى به السفن ، ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس : فقال : « لا هو حرام » ثم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله اليهود إن الله لما حرم عليهم الشحم حملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه » أى أذابوه .

(ذَلِكَ جزيْناهُم بِبَغْيِهِم) ذلك مفعول ثانٍ لجزينا كذا ظهر لى ، ثم رأيته لبعض الترك أو ذلك مبتدأ خبره جزيناهم ، أى جزيناهم إياه ، وحذف هذا الرابط قليل ، لأنه يوهم أن المبتدأ مرفوع ، أو جزيناهم به أو ذلك مبتدأ وببغيهم خبره ، وجزيناهم حال من المبتدأ لأنه إشارة ، ورابط الحال ضمير المحذوف أى إياه أو به ، والباء فى بغيهم على كل حال سببية ، وبغيهم هو قتلهم الأنبياء ، ومن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأخذهم الربا ، واستحلال أموال الناس بالباطل ، والإشارة إلى الجزاء أو إلى التحريم وهو أولى لأنه المذكور قبل (وإنَّا لصَادِقُون) فى الإخبار عن بغيهم وجزائهم بالتحريم وعن تحليل ما حللنا لهم ، وفى كل ما أخبرنا به من الغيوب ، وفى الوعد والوعيد .

(فإنْ كذَّبوكَ) أى فإن كذبك اليهود فيما أخبرناك به من بغى وجزاء وتحريم ، ومن تحليل ، وقد كان تكذيبك تكذيبا لنا ، وقيل : الضمير لمشركى قريش والأول أظهر .

(فقُلْ ربُّكم ذُو رحمةٍ واسعةٍ) بالإمهال لكم ولأشباهكم من العصاة ، وبالرحمة الدنوية لكل أحد ، وبالجنة لمن تاب ولم يصر (ولا يُرد بأسُه) عذابه إذا جاء فى الدنيا أو فى الآخرة ، وقيل : نفخة الموت (عَنِ القومِ المجْرمينَ) بتكذيب الأنبياء أو قتلهم أو بالشرك أو ما دون ذلك من الكبائر ، وأنتم منهم ، فلا يرد بأسه عنكم إذا جاءكم ، فهذا وعيد لهم على طريقة البرهان ، ووضع الظاهر موضع المضمر ، ليصفهم بالإجرام ، أى ولا يرد بأسه عنكم ، وفى تقديم ذكر الرحمة وسعتها

وعدم التصريح بإجرامهم تلطف فى دعائهم إلى التوبة ، ولكن قد أشار إليهم أن لا يغتروا برحمته ، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أن المشركين سيحجون لتصويب ما هم عليه من شرك وتحليل وتحريم وشرك فقال :

(سيقُولُ الَّذينَ أشْركوا) مشركو قريش والعرب (لو شاءَ اللهُ) أن لا نشرك نحن وآباؤنا ولا نحرم شيئا (ما أشْركْنا ولا آباؤنا) شيئا بالله تعالى ، وعطف آباؤنا على الضمير المرفوع المتصل لفصله بلا (ولا حَرَّمْنا) نحن وهم ، فهذا الضمير لهم ولآبائهم (مِنْ شىءٍ) أى شيئا كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى •

ووجه احتجاجهم اغترارهم برحمة الله بالإمهال فقالوا : لو كان الله ما شاء إشراكنا وتحريمنا لم يمهلنا ، بل يعجل بإهلاكنا ، فالمشيئة فى هذا الوجه من كلامهم بمعنى الإباحة ، ويجوز أن يكون وجه احتجاجهم أنهم جعلوا قضاء الله إجباراً وسلبوا عن أنفسهم الاختيار ، أى هو الذى قضى علينا بالإشراك والتحريم ، فكيف تخرج عما قضاه علينا ؟ فهم فى هذا الوجه قدرية إجبار لما أشركنا وحرمنا علمنا أن الله أجبرنا على ذلك ، ولو شاء الله أن يجبرنا على ترك الإشراك والتحريم لفعل فلم نشرك ولم نحرم فلا عقاب علينا ، أو إنَّا على حق لا على باطل ، ولو كنا على باطل لأزالنا عنه ، فهذه الآية رد على المجبرة المشركين وغير المشركين كالمعتزلة •

والجواب : أن الله شاء كفر الكافرين ومعصيتهم بمعنى قضاها وخلقها ، وفعلوا هم باختيارهم ، ولولا ذلك لما أمر ونهى بالوحى والكتب والأنبياء والرسل ، وأثاب وعاقب ومدح وذم ، وكلهم يقرون بذلك فى الجملة ، ولو أنكر المشركون القرآن والله تعالى مريد لجميع الكائنات ، وشاء لها ولا عذر لأحد فى إرادة الله تعالى ومشيئته ، وإنما قدرت مفعول

شرط أو من جنس الجواب ، لأن ذلك هو الغالب فيها ، ولم أحتج إلى تقديره بالرضا مع ذلك لما علمت من أن شاء فى كلامهم بمعنى أباح وهو نفس الرضا ، أو من أنهم يثبتون المشيئة بمعنى الإجبار ، والله عز وجل عاب عليهم ما زعموا من ذلك ، فتحمل من عيبه إياهم على ذلك أنه لم يبح الإشراك والتحريم ، أو لم يشأهما مشيئة إجبار .

وبعد ما قررت الآية رأيت بعضا قدر لو شاء الله أن لا نشرك ولا نحرم مع رضاه بعدم الإشراك والتحريم ، ولا حاجة لذلك ، لأن ما ذكرته غنى عنه ، ولا ينافى عدم إمكان تفسير المشيئة بالإباحة فى قوله تعالى : « ولو شاء لهداكم أجمعين » تفسيرها هنا بالإباحة ، لأن آية الأنعام هذه من كلامهم لا من كلامه تعالى ، ولو قال قائل : لو شاء الله ما فعلت كذا من المعصية والطاعة ، بمعنى لو قضى عليه بذلك لم يخرج عما قضى ، بل ييسر لما قضى عليه باختياره لكان مدحاً لله تعالى ، وحقا واجباً ، ومما يرد به عليهم أن يقال لهم : إنكم تحجون وتفعلون بعض مكارم الأخلاق ، وتحبون أن يمدحكم الله على ذلك ويثيبكم فى الدنيا ، وتتقربون إليه بالأصنام ، وتقولون تقربنا إلى الله زلفى ، فإن كان ما فعلتم من ذلك إجباراً من الله فلا مدح لكم ، ولا يثيبكم فى الدنيا ، كما لا يثيبكم فى الآخرة ، وأنتم أنكرتموها ، وإن لم يكن إجباراً منه فكيف تقولون : إن الله أجبركم على الشر ولا يجبر على الخير .

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم) كما كذبوك فى قولك إن ، إن الله لم يحرم هذه الأشياء التى حرموها ، وقولك إنه تعالى حرم الشرك كذب المشركون قبلهم أنبياءهم ورسلهم فيما يأمرونهم به ، وينهونهم عنه كالشرك ، وهذا يناسب قولى عنهم : لو كنا على باطل لأزالنا عنه وهو تفسير المشيئة فى كلامهم بالإباحة ، لأنه صلى الله عليه وسلم يقول

لهم : لم يبح الله لكم ما تفعلونه فكذبوه ، وأما ما قلت من الوجه الآخر عنهم من أنهم أرادوا أنهم مجبرون على ما فعلوه فلا يناسب ما قبله ، لأنه لم يقل صلى الله عليه وسلم قبل هذه الآية : إنكم لستم مجبرون حتى يكذبونه فيه ، ولو كان قد قاله لهم فى الجملة ، ومع ذلك أثبت هذا الوجه الأخير ، لأن ذكر العقاب لهم على أفعالهم وتسميتهم من المجرمين أو مجرمين كالتصريح بنفى الإجبار عنهم .

وكذلك يناسب قولى عنهم : لو كنا على باطل إلى آخر قوله تعالى بعد ذلك : « قد علم شهداءكم » لأنه صريح فى أنهم يقولون : إن الله هو الذى حرم ما حرمنا ، وإنا على حق ، لكن لا يمنع الوجـه الآخر بهذه الآية لجواز أن الله يريد أن حجة الإجبار داحضة ، ولم يبق إلا أنكم مختارون ، وأن تقولوا إن ذلك التحريم حق من الله فأتوا بمن يشهد لكم على أنه حق منه تعالى .

(حتَّى ذاقـُوا بـَأسـَنا) الذى أنزلناه عليهم لتكذيبهم ، فاحذروا أن ينزل بكم مثله لتكذيبكم كما كذبوا ، وقرىء يكذبوا بكسر الذال مخففة .

(قـُلْ هـَلْ عنـْدكم من علم ٍ) تعجيز وإنكار أن يكون لهم علم صحيح من الله ، يدل على أن الشرك وتحريم البحيرة وما معها حق من الله ، وعند متعلق بمحذوف خبر العلم ، أو رافع لعلم على الفاعلية لاعتماده على الاستفهام (فـَتـُخرجـُوه لنا) تظهروه ، والنصب فى جواب الاستفهام إن كان لكم علم فأظهروه لنا فى صحة شرككم وتحريمكم ، كما أظهرنا لكم خطأكم ببرهان نقلى وعقلى .

(إنْ تتبـَّعـُون إلا الظنَّ) تحسبون أنكم على حق ، وأنتم على

باطل لما رأوا أنهم أمهلوا ظنوا أنهم على صواب (وإنْ أنتم إلا تخْرصُون) تكذبون أو تحذرون ، واتباع الظن لا يجوز ولا سيما فى الأصول وهى التوحيد ، وما يتصل به ، وأما المذاهب فى الفروع فظنية بالاجتهاد •

(قلْ) يا محمد قد تبين أنه لا حجة لكم ولا علم (فَللّهِ الحجةُ البالِغةُ) فالعطف على ما قدرت من قولى قد تبين ، ويجوز العطف على « إن أنتم إلا تخرصون » وقدره بعض : قل أنتم لا حجة لكم فالله الحجة البالغة ، ويجوز العطف على : « هل عندكم من علم » لأنه لا علم لكم ، وقيل : جواب لمحذوف ، أى إن كان الأمر كما زعمتم من أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فلله الحجة البالغة •

ومعنى الحجة البالغة الدليل البالغ غاية القوة ، أو يبلغ به صاحبه دعواه من الحج بمعنى القصد ، كأنها تقصد إثبات الحكم وتطلبه ، قاله القاضى وهى بالرسل والكتب والعقل ، وذلك أنهم ادعوا الإجبار بالقضاء من الله ، وأنهم لا يطيقون الترك ، أو أنه أباح لهم ما يدعون ، والله سبحانه حجته قاطعة لذلك ، لأنه خلق لهم قوة الجوارح والعقل ، ومكنهم من إدراك الحق والعمل به ، فلا إجبار والعقل يوجب أن الله جل وعلا لم يبح لهم ذلك ، وأفعال الخلق كلها واقعة على وفق قضائه تعالى ومشيئته ، فليس مغلوبا فى المعصية ، لأنه لم يجبرهم على الطاعة وعلى المعصية فيعصى مغلوبا ، وليس من الحكمة الإجبار لإبطاله حكمة التكليف ، فلله الحجة عليهم لا لهم ، فالتقديم للحصر لا حجة لهم عليه لا بالغة ولا غير بالغة ، وهذا النعت للمدح لا للاحتراز والتقييد ، لأن حجة الله عليها بالغة ، وإن قلنا : الحجة البالغة لما نصبت له فهى له وحده ، لأن لهم حجة لا تبلغ دعواهم ، فيكون النعت للتقييد •

(فلو شَاءَ) هدايتكم (لهدَاكُم) بالتوفيق (أجْمعينَ) لا بالإجبار إذ ليس من الحكمة ، ولكن أراد خذلان قوم وتوفيق آخرين ، ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها .

(قُلْ هَلُمَّ شُهداءكُم) أى أحضروهم أو هاتوهم أو قربوهم ، وهى متعدية لأنها بمعنى ما يتعدى ، وكذا لو فسرناها بأدنوهم أمراً من أدنى بالهمزة أو بأجمعوهم ، فإن ذلك كله جائز ، وأما هلم إلينا فلازمة بمعنى أقبل أو ادن أمراً من دنا بلا همز ، أو تقرب وأقبل ، وهذا لأن اسم الفعل يتعدى إذا كان بمعنى المتعدى ، ويلزم إذا كان بمعنى اللازم ، وهى اسم فعل عند الحجازيين لفظها واحد فى الإفراد والتذكير وغيرهما ، وعند تميم فعل أمر تلحقها الضمائر ، ثم قيل هى هاء التنبيه ولم يضم الميم ، وفتح الميم أمر من لم يفتح اللام يلم بضمها حذفت ألف هاء التنبيه للتخفيف ، أو لعدم الاعتداد بالعارض ، لأن حركة اللام عارضة من الميم المدغمة ، أو دخلت على الميم بضم همزة الوصل او بُدِىء بما حذفت للدرج ، فحذف ألف هاء التنبيه للساكن بعدها وهو اللام ثم نقلت ضمة الميم الأولى باللام فأريد الإدغام ففتحت الميم الثانية ليمكن الإدغام ، ولا يلتقى ساكنان ، واختير الفتح للتخفيف .

ومعنى لم يلم جمع الله شملنا وما تفرق منا ، فضمنت أحد المعانى التى فسرتها بها ، أو هى بمعنى أجمع كما مر أيضا ، وقيل : معنى لم يلم الثلاثى بمعنى نزل ، ثم ضمن أحد المعانى المذكورة ، ويقال فى اللازم : هلم إلينا ، أى احضر بنفسك إلينا أو لم وإذا اعتبرت أجمع نفسك إلينا فكأنها متعدية ، وليست كذلك ، والقولان لجمهور البصريين ، والأول للخليل وسيبويه ، وفى كليهما حذف ألف هاء التنبيه ، ونقلَ حركة الميم والإدغام ، ولا يختص النقل بالآخر كما قيل ، وقال الفراء

وغيره من الكوفيين : مركبة من هل التى للزجر ومن أم بمعنى قصد ، فضم الهمزة مبنيا للمفعول نقلت ضمة الهمزة للام ، وحذفت الهمزة وضمن أحد المعانى السابقة ، وأما أن يقال : هل دخلت على أم بضم الهمز أمراً ، فلا يصح ، لأن همزة الأمر الثلاثى وصل لا حركة لها فضلا عن أن تنقل إلا أن يدعى أن اللام اختير لها ما للهمزة من الحركة لو ثبت ، وليس نقلا ، وهل الاستفهامية لا تدخل على الأمر ، وعبارة الفراء هل التى للزجر •

(الَّذينَ يشْهدُون أنَّ الله حرَّم هذا) أى المذكور فى التحريم من البحيرة ونحوها ، ونصيب الأصنام ، والأمر بإحضار الشهداء هو على ظاهره إذا قلنا إنهم رؤساؤهم ، أمرهم أن يستحضروهم ليذكر لهم حجة بطلان دينهم ، وإن كان المراد من يشهد لهم على صحة ما دانوا به من ذلك ، ويحتج لهم بحجة صحيحة ، فالأمر للتعجيز والتبكيت ، إذ لا يجدون حجة صحيحة عند أحد ، والأول أظهر وأنسب فى اللفظ ، لأنه قيد الشهداء بالإضافة التى تفيد التعريف العهدى ، شهداء مخصوصون منتسبون إليهم ، ووصفهم بعمل آخر وهو أن لهم دعوى كدعواهم ، وهى أن الله حرمها هذا لو كان القصد أمرهم أن يتكلفوا عدداً ما من الرجال يشهدون لهم ، هلم شهداء يشهدون لكم أن الله حرم هذا ، ولكن مع ذلك يصح الوجه الثانى لجواز أن يضاف الشهود لمن يشهدون له ، ولو لم يعهدوا ، ويقال : ائت بالشهود الذين تنفعكم شهادتكم ، ووجه ذلك أن المدعى من شأنه أن يستشهد من يشهد له وهذا مفهوم •

(فإن شَهِدوا فلا تَشْهد مَعَهم) يا من يمكن للشهادة ، أو يا محمد لفظا ، والمراد غيره معنى ، لأنه لا يشهد ، وهذا مما يدل على الوجه الأول ، لأن الشاهد بحق لا ينهى عن الأخذ بشهادته ، ولا يلزم

هذا ، لجواز أن يكون المعنى ليأتوا بمن يشهد لهم على دعواهم بالحق كائنا من كان ، فإن جاءوا بمن يزعمون أنه محق يشهد لهم فشهد لهم ، فإنه كاذب لا تتبعه فى شهادته ، إذ لا يجدون شاهدا لهم شهادة حق ، فمن شهد بكذبه وبين له بطلان شهادته لأنه مبطل البتة ولا تسكت ، وإنما أخذت ذلك من حيث إنه إذا طلبهم إن جاءوا بشهادة فأتوا ، فسكت فهموا أهم وغيرهم أنه أذعن لها وشهد بها على صدقها .

(ولا تتَّبـِع أهْواء الَّذين كذَّبوا بآياتِـنا) أى لا تتبع أهواءهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر ليصرح بأنهم على الهوى ، وأن كل مكذب بآيات الله متبع لهواه ، وإن كل من تتبع الحجة ولا يكابر عقله لا يكون إلا مصدقا بآيات الله .

(والَّذينَ لا يؤْمنُونَ بالآخـِرة) أنكروا البعث ، وهم المذكورون أيضا الذين يكفى عنهم الضمير ، ولكن أظهر لهم ليصفهم بعدم الإيمان بالبعث ، وهم عبـدة للأوثان كما قـال : (وهُم بربِّهم يعْدِلون) أى يسوون الأصنام بربهم فى العبادة .

(قُلْ تـَعالوْا) أمر من التعالى وهو تفاعل للعلاج ، وثلاثيه علا يعلو ، وأصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن كان فى أسفل ، أى عالج الصعود إليه ، ثم استعمل لمطلق طلب الإتيان والحضور من أسفل إلى علوّ ، أو من علو إلى أسفل ، أو من أحد مستويين إلى الآخر ، وأصل ذلك الأصل أن يقال : تعال عالج الصعود إلى مكان علىّ ، سواء كان القائد فى المكان العالى المطلوب الصعود إليه أو فى غيره من عال ، أو منخفض ، ثم اعتبر لأن بقوله : من كان فى عال لمن أراده أن يصعد إليه ، ثم فى طلب الإتيان مطلقا .

ولام الكلمة فى تعالوا محذوف واو الجمع المذكورة فيه ، قال كعب الأحبار : والذى نفس كعب بيده إن مفتتح التوراة « بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم عليكم ربكم » إلى آخر الآيات التى فيها ذكر التحريم ، قال ابن عباس : اجتمعت الشرائع على هؤلاء الآيات ولم تنسخ قط ، وقد قيل : إنه العشر الكلمات التى نزلت على موسى ، وقال : من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار . وعن ابن مسعود : من سره أن ينظر إلى الصحيفة التى عليها خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فليقرأ « قل تعالوا أتل » إلى قوله : « تتقون » .

(أَتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم) أتل مجزوم فى جواب الأمر بمعنى اقرأ وهو مضارع للمتكلم الذى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما اسم موصول ، أى النوع الذى حرمه ربكم ، أو نكرة موصوفة أى أشياء حرمها ربكم عليكم ، أو مصدرية ، أى أتلوا تحريم ربكم ، والتحريم لا يتلى لأنه معنى فيقدر مضاف ، أى ألفاظ التحريم ، لأن المتلو ألفاظ القرآن الدالة على التحريم لا المحرمات أنفسها ، ولذا لم أُأَوّل التحريم بالمحرمات كما فعل بعض العلماء ، ويجوز أن تكون ما استفهامية مفعولا مقدما لحرَّم ، وجملة حرم ربكم مفعول لأتلو ، سوغ نصبه الجملة الاستفهام ، أى أتلو أى شىء حرم ربكم عليكم ، وعليكم يتعلق بحرم ويقدر مثله لأتل ، أو أو يعلق بأتل ويقدر مثله لحرم .

(ألاَّ تشْركوا به شيئاً) إن حرف تفسير ، ويجوز أن تكون مصدرية عند من يجيز دخول المصدرية على النهى والأمر ، ولا حرف نهى فيفسر نفس التحريم بنفس النهى عن الإشراك ، والأمر فى قوله : « وبالوالدين إحساناً » معطوف على هذا النهى ، فيكون مفسراً للتحريم ، لكن باعتبار ضده ، وهو الإساءة إلى الوالدين ، فإنها هى المحرمة من حيث إن الأمر

نهى عن تركه مضمونه ، فإن معنى أحسنوا بالوالدين لا تتركوا الإحسان إليها إلى الإساءة ولا إلى حال ليست بإحسان ، ولا بإساءة ، ولذا لم أقل الأمر هنا نهى عن ضده الذى هو الإساءة ، لإنه لم ينه عن الإساءة فقط ، بل عن البقاء بلا إحسان ، ومن جعل أن ناصبة ولا نافية جعل عليكم اسم فعل ناصبا لقوله : « ألا تشركوا » أى الزموا عدم الإشراك ، فيكون مبتدأ تفسير التحريم من قوله : « عليكم » فيكون عطف الأوامر والمناهى بعد على عليكم .

ويجوز أن تكون لا صلة للتأكيد ، والمصدر بدل مما أو من عائدها المحذوف ، أى حرمه أو على التحريم على أنها مصدرية ، ويجوز بقاء لا على النفى ، ويقدر لام الجر والتعليم ، أى لئلا تشركوا وتعلق بأتل ، ويجوز تعليقه لحرم ، ويجوز إبقاؤها على النفى ، ويكون ذلك خبر المحذوف ، أى المتلو ألا تشركوا ، أيجوز أيضا على جعل لا ناهية عند مجيز الإخبار بالنهى ، وإدخال أن المصدرية على النهى ، ويجوز جعل لا صلة للتأكيد ، ويقدر المبتدأ هكذا : المحرم أن تشركوا ، وشيئا مفعول به ، أى ألا تشركوا بالله صنما ولا شيطانا ولا غيرهما ، أو مفعول مطلق أى لا تشركوا به إشراكاً ، ويجوز تقدير وبالوالدين إحسانا إخباراً ، أى وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً فيجعل ألا تشركوا غير نهى فيعطف عليه ، ودخل فى الإشراك الرياء ، فمن رائى أحداً فقد أشركه بالله تعالى .

(وبالوَالديْن إحسْاناً) وأحسنوا بالوالدين إحساناً أو وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً ، فإحساناً مصدر نائب عن فعله فى الوجه الأول ، ومصدر مؤكد على الثانى ، فالوجه الثانى تخريج على القول بجواز حذف عامل المصدر المؤكد ، أتبع حق الوالدين حق الله لأنهما سبب وجود الإنسان ومربياه بحفظ وشفقة .

(ولا تقتُلوا أولادكم من إملاقٍ) من فقر ، وقيل : جوع ، ومن للتعليل متعلق بتقتلوا ، ويقدر مضاف أى من خشية إملاق ، كما قال فى الآية الأخرى : « خشية إملاق » وظاهر الآية عموم الأولاد ، والمنقول أنهم يقتلون الإناث ، وذكر فى الآية الأخرى أنهم إما أن يمسكوا الإناث على هون أو يدسوهن فى التراب ، فلعل القتل للإملاق يقع فى أولادهم الذكور والإناث ، وزادت أولادهم الإناث بأنهم يقتلونهن لدمامتهن ، أو خوف عيب يلحقهم بهن أو غير ذلك مما مر ، وقال الله فى قتل الإناث من الأولاد : « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » .

(نحنُ نرزقكُم وإيَّاهُم) رد الله عليهم السبب الذى يقتلون أولادهم به وهو خوف الفقر ، نحن نرزقكم بأن الله جل وعلا يرزقهم ويرزق أولادهم ، تكفل برزق الجميع ، وجعل لكل منهم رزقا على حدة ، وليس الرزق لهم فقط فشاركهم أولادهم فيه ، وما على الوالد من رزق ولده شىء ، بل تربيته والمحافظة عليه والتسبب ، قال القشيرى : خوف الفقر قرينة الكفر ، وحسن الثقة بالرب سبحانه وتعالى نتيجة الإيمان .

(ولا تقربُوا الفَواحِشَ) كبار الذنوب أو الزنى ، والأول أولى لعمومه ، يدخل فيه الزنى الذى قيل : هو سبب النزول ، ولا يمنع خصوص لسبب النزول تعميم اللفظ ، إذ كانوا يكرهون الزنى علانية ، ولا يرون به بأسا إذا كان سراً فحرمه الله كله ، أو كل الكبائر ما كان علانية وما كان سراً فقال :

(ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ) وترك المعصية ظاهرا فقط عابدة للمخلوق لا للخالق ، كفعل العبادة ظاهراً فقط ، وقال الضحاك : ما ظهر الخمر وما بطن الزنى ، ولعله تمثيل لما يظهر وما يبطن ، لا تخصيص ، والأولى

التعميم كما علمت ، ونسب القول بأن ما بطن الزنى سراً بالمخادنة ، وما بطن الزنى ظاهراً إلى ابن عباس الكلبى ، والنهى عن القرب من فعل أبلغ من النهى عن فعله ، وما بدل من الفواحش به لا مطابق باعتبار ما عطف عليه ، وذلك على أن المراد بما ظهر وما بطن نفس الفواحش ، وإن أريد جزاء كل فاحشة ظهرت ، وجزاء كل فاحشة بطنت ، وإذا نهى على الجزاء نهى عن الكل بالأولى ، فيكون نهى عـن للكل مرتين : مرة بالتصريح ومرة بالإفهـام ، وإن أريد بما ظهر منها ومـا بطن أحوالها وسائلها فبدل اشتمال .

(ولا تقتُلُوا النَّفس التى حرَّم الله إلا بالحقّ) إلا مقترنين بالحق فى قتلها ، أو إلا قتلا مقترنا بالحق فى قتلها ، كقتلها قصاصا ، وقتل المرتد ، ورجم المحصـن ، وقتل البـاغى ، وقتل النفس داخل فى الفواحش ، وخص بالذكر إعظاماً له ، وليصح الاستثناء منه لما كـان بالحق ، إذ لا حق فى الفواحش يستثنى ، وخص ذكر الأولاد قبل هذا العموم ، لأن قتل الإنسان ولده أفظع قتل ، لأنه أيضا قطع رحم أشد قربا ، ولأنه لا ذنب إذ هو غير مكلف ، ولأنه ضعيف لا ناصر له لضعفه ، ولكون قاتله هو أشد الناس اتصالا به ، وأشدهم موالاة لأمره ، ومخاطبة به ، كذا ظهر لى ، وإن قلت : كيف يستثنى ما كان قتله حقا مما كان قتله قد حرمه الله ؟

قلت : وجهه أن الله حرم قتل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فمن كان هكذا حرم قتله ، إلا أن يأتى بما يحق به قتله كما قال ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : زنى بعد إحصان ، وقتل النفس التى حرم الله ، والارتداد » .

(ذَلكُم) أى ما ذكر من النهى عن الإشراك وقتل الأولاد وغيرهم ، وقرب الفواحش ، والأمر بالإحسان للوالدين (وصَّاكُم به) أمركم به أمراً عظيما ، التوصية أعظم من الأمر ، لأنها أمر تضمن أمر محافظة ، فإما أن يكون ما مر من الأمر والنهى وصية ، ولا نعلم من مجرد اللفظ أنه وصية ، فأخبرنا الله بهذا أنه أمرنا به توصية ، وإما أن يكون غير وصية ، ولكن إنشاء الإيصاء بقوله : « وصاكم به » وإنما أن يكون سمى ما أكل به الكلام كله أيضا ، لأنه أكله بذكر : قل وتعالوا وأتل وحرم وربكم وعليكم ، وأكد لا تشركوا به شيئا نكرة فى سياق النفى إذ لم تذكر معرفة وأحسنوا بـ « إحساناً » وناب عنه ، أو تحسنوا بإحسانا ، وأكد « لا تقتلوا أولادكم من إملاق » بنحن نرزقكم وإياهم ، والزجر عن الفواحش بلا تقربوا ، وبما ظهر منها وما بطن ، والزجر عن قتل النفس بقوله : « حرم الله » إذ لو قيل يعدلون ولا تشركوا به ، وأحسنوا بالوالدين ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، ولا تفحشوا ولا تقتلوا النفس إلا بالحق لكفى ، ومعنى التوصية بما أمر به ونهى عنه التوصية بالمحافظة عليهما بفعل المأمور به ، واجتناب المنهى عنه •

(لعلَّكم تعْقِلُون) لتفهموا ما فى ما وصاكم به من المصالح ودفع المضار ، أو ليكمل عقلكم الغرزى بالاكتساب ، أو لترشدوا وتخرجوا عن حد السفه أو لتتدبروا •

(ولا تَقْرَبُوا مالَ اليتيم إلاَّ بالتى هِيَ أَحْسَنُ) إلا بالفعلة التى هى أحسن كالسعى فى حفظه جدًّا ، وفى انمائه بتجر وسقى ونحو ذلك ، وإخراج الزكاة منه ، حرم الله بهذا تضييعه وخيانته بأخذه أو أخذ بعضه ، أو إعطاء بعضه فيما لا يجب فيه ، ولا يعود نفعه عليه ، ولكن لا يتصدق منه ، وقيل : يتصدق منه بقليل على اليتيم

فيكــون حفظا لماله ، ونموًّا لــه ، وفى الحــديث : « اتجروا بمـــال اليتيم لا تأكله الزكاة » وفسر مجاهد التى هى أحسن بالتجر فيه وفسره الضحاك بأن يسعى فيه ولا يأخذ من ربحه شيئا إن كان غنيا ، وإلا أكل بمعروف ، وأحسن اسم تفضيل على بابه ، أى أحسن ما يحفظ به المال وينمو ، وأحسن مما يحفظون به أموالكم وتنموها به •

(حتَّى يبلُغَ أشدَّهُ) قوته بدنا وعقلا بأن يبلغ ويؤنس رشده ، وهو مفرد كآنك أو جمع شدة كنعمة وأنعم بكسر أول المفرد أو جمع شد بكسره أيضا ، والكل بمعنى القوة ، فإذا بلغ أشده فأوصلوه يده •

(وأوفُوا الكيْلَ والميزانَ بالقِسْطِ) بالعدل بأن لا ينقص الذى يعطى من ماله ، ولا تتجاوز الذى يأخذ إلى زيادة بأن يطلب من يعطى أن يزيد ، أو يزيــد هــو بأن يبيح لــه من عليـــه الحق أن يكيل أو يزن هو ، والخطاب لمن يكيل ويزن ، ومن يكال له ويزن له فبالقسط حال مؤسسة باعتبار الذى يأخذ ، أى يقتصر على إيفاء الحق ممن عليه الحق له ، لا يتعدى إلى زيادة ، ومؤكدة باعتبار من عليه الحق ، ولا مانع من مجىء الحال مؤكدة باعتبار ، ومؤسسة باعتبار آخر ، وإن جعلنا الخطاب لمن عليه الحق لأنه الذى يكيل ويزن أصالة فهى مؤكدة •

(لا نُكلِّفُ نفساً إلا وُسْعَها) لما كان الكيل والوزن مما لا طاقة لأحد على الوقف على حدهما بلا زيادة ولا نقصان ، كما ذكره الشيخ إسماعيل رحمه الله ، قال تعالى : لم ألزمكم فيهما إلا جهدكم إلى إلا ما تسعه طاقتكم ، ولا تقدر على سواه من العدل ، فالوسع ليس هنا ما تسعه طاقتك وتسع أكثر منه مما هو عدل ، والحاصل أن المراد أقصى طاقتكم ، وما وراء ذلك من زيادة من يكيلَ أو يزن من مقال غيره أو من نقص من

يكيل أو يزن من ماله معفو عنه ، كما ندب الذى له الحق أن ينقص قليلا حوطة ، لأنه إذا استقصى فى حقه فقد تعرض للشر بأن يزيد ، وندب الذى عليه الحق أن يزيد حوطة من غير أن يلزم من عليه الحق أن يزيد ما عسر عليه ، أو من له الحق أن ينقص ما يعسر عليه ، ثم إنه يجوز حمل قوله : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » على أن يعود إلى الايفاء بالكيل والوزن بالقسط ، وإلى قوله : « لا تقربوا مال اليتم إلا بالتى هى أحسن » أو إلى ذلك وجميع التكاليف .

(وإذا قُلْتم) تكلمتم فى القضاء بين الناس أو فى أداء الشهادة ، أو فى الأمر والنهى ، أو فى حكاية ما تحكون أو أداء الرسالة والتوسط بين الناس كالصلح ونحو ذلك (فاعْدِلُوا) فى قولكم (ولَوْ كانَ) المقول له ، أو عليه (ذا قُرْبَى) فإن كان المقول له ذا قربى فلا تزد فى نفعه عما له ، كما لا تنقص ، وإن كان المقول عليه ذا قربى فلا يثبت له الحق ، وليس له كما قال ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .

(وبِعَهْدِ اللهِ أوفُوا) أوفوا بما عهد إليكم أى بما أنهى إليكم وأعلمكم بوجوبه أو حرمته من الأحكـام الشرعية ، ومنه هذا العـدل المذكور ، وقيل : المراد بالعهد النذر والوعد الذى يجب الوفاء به .

(ذلكُم) أى ما ذكر من النهى عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط والعدل فى القول ، ولو فى ذى قربى ، والإيفاء بعهد الله (وصَّاكُم به) الكلام فيه كالكلام فى الذى قبله ، ولا يخفى التأكيد بلا تقربوا وبـ « بالقسط » وبلو كان ذا قربى ، وبعهد الله ، فإن العهد مما يوثق به فى معنى التوصية به الأمر بالمحافظة عليه .

(لعلَّكُم تتذكَّرونَ) لتتعظون فتأخذوا بذلك ، وقرأ حمزة والكسائى

وحفص تذكرون بتاء واحدة وإسكان الذال وضم الكاف ، حيث وقع فى القرآن بالتاء ، والباقون فى جمع القرآن بالتشديد للدال •

(وأنَّ هذا صِراطِى مُسْتقيماً) لا عوج فيه ، ويوصل للجنة ، والباء لله أو لرسوله ، فإن صراطه صراط الله ، والإشارة إلى ما ذكر فى السورة من أولها إلى هذه الآية من التوحيد والنبوة ، وبيان الشريعة ، أو إلى ما ذكر فيها كلها من ذلك لجواز الإشارة إلى مستقبل ولو وحده ، فكيف مع ماض ، أو إلى ما ذكر من قولـه : « ألا تشركوا » إلى هـذه الآية ، ومستقيما حال من الخبر ، نصبها المبتدأ وصحت له ، لأنه اسم إشارة ، وقرأ حمزة والكسائى بكسر إن على أن الواو للحال أو للعطف على « ذلك وصاكم به » أو على المجزوم الأول أو الأخير ، وصح الكسر باعتبار ما فى التأويل أو التحريم من القول •

وقرأ ابن عامر ويعقوب بالفتح والتخفف ، واسمها ضمير الشأن على هذه القراءة ، وقرأ الباقون بالفتح والتشديد ، ووجه الفتح مع التشديد والتخفيف والعطف على معمول أتل أى أتل ما حرم ، وأن هذا ، أو على تقدير لام التعليل المتعلقة باتبعوه بعده على أن الفاء فيه صلة للتأكيد ، وقرأ ابن عامر صراطى بفتح اليـاء ، وقرأ الأعمش وهـذا صراطى ، وقرأ ابن مسعود كما فى مصحفه وهذا صراط ربكم ، وقرىء وهذا صراط ربك •

(فاتَّبِعُوه) اعملوا به (ولا تتَّبِعُوا السُّبُل) الأديان ظـاهرة المختلفة والطرق التابعة للهوى ، فالأديان المختلفة أديان المشركين وأهل البدع فى الدين ، وكذا فى الفروع إذا كانت فى الفروع مذاهب ظاهرة البطلان ، متعمق فيها ، وأما الطرق التابعة للهوى فهى ما لم يدينوا به ، لكن اتبعوه تشهياً •

(فتفرَّق بكُم) أى تتفرق بكم ، أى تميل بكم هذه السبل ، والنصب فى جواب النهى ، وإحدى التاءين محذوفة ، والباء للتعدية أى فتفرقكم .

(عَنْ سَبَيلهِ) صراطه المستقيم المؤيد بالوحى والبرهان ، وهو سبيل واحد ، لأن مقتضى الحجة واحد ، وأما ما كان من ديانة ، بل حجة صحيحة أو من تشبه فمتعدد لاختلاف العادات والطبائع ، ولذلك قال : « ولا تتبعوا السُّبل » جمع سبيل ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الله سبحانه جعل طريقه طريقا مستقيما ، طرفه محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرعه ونهايته الجنة ، وتشعب منه طرق ، فمن سلك الجادة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار ، وقال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال : « هذا سبيل الله » ثم خط عن يمين ذلك وعن شماله خطوطا وقال : « هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ، واقرءوا : (وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) » وفى رواية : ثم قرأ هذه الآية .

(ذلكُم) أى ذلكم المذكور من الاتباع لصراطه المستقيم ، والانتهاء عن اتباع السبل المأمور به بالنهى عن اتباعها (وصَّاكُم به) بالمحافظة عليه (لَعلَّكُم تتَّقُون) التفرق عن دينه ، والدخول فى الضلال ، أو أو تتقون السبل .

(ثم آتيْنا مُوسَى الكِتَاب) عطف على وصَّاكم وثم ، إما بمعنى الواو مجازاً استعمالا للمقيد فى المطلق ، وإما باقية على التراخى ، وفيه وجهان :

الأول : أن التراخى باعتبار الإخبار أى وبعد ذلك أخبركم أنا اتينا موسى •

والثانى : تراخى الرتبة ، أى ذلك وصاكم به قديما وحديثا من لدن آدم ، وأعظم من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب متضمنا لتصديقك فيما قلت يا محمد من ذلك وغيره ، ويجوز أن يكون للتراخى الزمانى ، وفيه وجهان :

الوجه الأول : أن يعطف قول ناصب لقوله : « آتينا موسى » إلى « يؤمنون » بثم على قل من قوله : « قل تعالوا » أى ثم قل عنّا يا محمد آتينا موسى ، وإنما قدرت القول للطول ، ولك أن لا تقدره بل تعطف ما بعد ثم على محكى القول الأول •

الوجه الثانى : أن يجعل الخطاب فى وصّاكم لبنى آدم مطلق كلهم وآدم ، أو لمن فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم ، على أن تكون توصيتهم على عهد آدم عليه السلام فى جملة من وصى على ما مرّ من أن ذلك كله مما وصى به آدم وأولاده إلى يوم القيامة ، فتكون التوصية به متقدمة من لدن آدم ، وآتينا موسى الكتاب متأخر الزمان متراخ •

وأغرب من قال معطوف له إسحاق قبل انتصاف السورة والكتاب التوراة •

(تماماً) مفعول من أجله وهو اسم مصدر ، ومعناه الإتمام وفاعل الإتمام هو الله تعالى فيتحدد فاعله وفاعل ناصبه وهو الفاعل فى آتينا ، ولو جعلناه بظاهره صدر تم الثلاثى ، لكان فاعله الكتاب ، أو مصدر مفعول مطلق أى تم الكتاب تماما ، أو حال من الكتاب أى ذا تمام أو تاما أو هو نفس

التمام مبالغة أو اسم مصدر حال من نا ، أى ذوى تمام أو متمين أو هو مفعول مطلق لآتينا ، لأن إيتاء موسى الكتاب إتمام .

(على الَّذى أحْسَنَ) أى عليه ، أى على موسى ، فوضع الظاهر وهو الذى موضع الضمير ليصفه بالإحسان ، أى أحسن فى قوله واعتقاده وعمله وتبليغه الرسالة .

وقال مجاهد : الذى للجنس كأنه قيل : على من أحسن ، أو الفريق الذى أحسن ، ويدل له قراءة ابن مسعود : على الذين أحسنوا أى إتماما للكرامة على موسى ، أو على كل من أحسن فى عمله من قومه ، أو مطلقا مَنْ ، ويجوز وقوع الذى على العلم ، فالرابط محذوف لا الضمير المستتر فى هذا الوجه ، أى على العلم الذى أحسنه ، أى أجاده ، أى زيادة على علمه بالشرائع ، وقيل : الذى حرف مصدر ، أى على إحسان موسى ، أى على إحسان الله ، ولا نسلم مصدرية الذى ، وقرأ يحيى بن يعمر : أحسنُ بالرفع ، فيكون اسم تفضيل خبر المحذوف ، وهو صدر صلة حذف صدر صلة ، غير أنى بلا طول على القلة ، أى الذى هو أحسن ، والذى فى هذا الوجه واقع على الذين ، أو على الوجه ، فيكون تماماً على الذين الذى هو أحسن ، أو تاماً على الوجه الذى هو أحسن ما تكون عليه الكتب ، وهذا الأخير هو معنى قول الكلبى : أتم له الكتاب على أحسنه وتفضيل دين موسى أو كتابه إنما هو بالنسبة إلى غير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بل دين الأنبياء كلهم دين الإسلام .

(وتَفْصيلا لِكلِّ شىءٍ) يحتاج إليه فى الدين لا لكل شىء مطلقا ، وهو معطوف على تماما ، أى ولأجل التفصيل أو ومفصلين أو وفصّلنا تفصيلا ، وكذا العطف فى قوله : (وهدًى ورحْمةً) أى هدى من

الضلالة وإنعاماً (لَعَلَّهم) أى لعل بنى إسرائيل كما دل عليه موسى وكتابه (بلقَاءِ ربِّهم) بالبعث للجزاء •

(يؤْمنُونَ * وهذا) أى القرآن (كتابٌ أنزلناهُ) نعت كتاب أو خبر ثان (مُبارِكٌ) نعت أيضا أو خبر آخر ، ومعنى مبارك كثير النفع والخير ، ولا يتطرق إليه نسخ (فاتَّبِعُوه) اعملوا به (واتقُوا) مخالفته أو اتقوا (اللهَ لعلَّكُم ترْحَمونَ) ارجو الرحمة ، أو لكى ترحموا باتباعه •

(أنْ تقُولُوا) مفعول لأجله على حذف مضاف ، أى كراهة أن تقولوا ، هذا مذهب البصريين ، ووصف الله بالكراهة جائزة • قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله كره لكم ثلاثا » وقال الكوفيون : هو على تقدير لام الجر والتعليل والنافية ، أى لئلا تقولوا وهو ضعيف من حيث إنه مشتمل على حذف لا النافية فى غير موضع حذفها ، والخطاب لأهل مكة ، وقيل مفعول به لاتقوا ، والجملة بينهما معترضة ، أى اتقوا أن أن تقولوا •

(إنما أُنزل الكِتابُ) جنس الكتاب ، والمراد التوراة والإنجيل ، أو مع ما أنزل الله على موسى كله أو غيره من بنى إسرائيل (على طائفتين) اليهود والنصارى ، والحصر إضافى أى إنما الكتاب على طائفتين (من قَبْلنا) لا علينا ، هذا ما ظهر لى وهو أولى مما قيل : إن الحصر حقيقى وإن لم يبق من كتب السماء إلا كتب اليهود والنصارى حين قالوا ذلك ، فلم يعرفوا سواها فنفوه •

(وإنْ كنَّا) إن مخففة بدليل اللام بعد ، وهى مهملة عند التخفيف ،

وقد تعمل قليلا ، وقيل : بقيت على الإعمال واسمها ضمير الشأن كما حذفت نون يكن فى الجزم ، وعملت مع ذلك كما قال ابن الحاجب فى الكافية ، وهى نثر شرحه الرضى ، وقد اتصل بيدى ، وقيل : بمعنى قد فى مثل ذلك ، وعلى كل حال فاللام فارقة بين النفى والإثبات والمشهور الأول ، وقيل : نافية واللام بمعنى إلا (عَنْ دِراسَتِهِمْ لغَافِلِينَ) أى لغافلين عن دراستهم ، أى قراءتهم لا نعرف معناها ، ولا عهدنا لفظها ، لأنها بلغتنا ، أو لغافلين عنها خالين عن مثلها لو كان لنا مثلها وعرفناه لآمنا به واتبعناه ، ولم يقل عن دراستهما مع أن الضمير للتثنية وهى الطائفتان مراعاة للمعنى ، لأن كل طائفة منهما جمع ، ولو رجع الضمير إليهما بصيغة التثنية لجاز .

(أو تَقُولُوا) عطف على تقولوا الأول ، وقرىء يقولوا بالياء التحتية فى الموضعين (لو أنَّا أُنزل عَلينا الكِتابُ) لو ثبت أنا أنزل علينا الكتاب حقيقة كتاب ، أى كتاب ما من الله ، فأل للحقيقة ، ويجوز أن تكون للعهد هو الكتب التى أنزلت على الطائفتين اليهود والنصارى ، أى لو أنزل علينا ما أنزل عليهم وعرفناه كان بلغتنا .

(لكنَّا أهْدى مِنْهم) من الطائفتين لحدة أذهاننا ، وثقابة أفهامنا ، فإن يهود الحجاز واليمن يومئذ ولو كانوا فصحاء بعض فصاحة بالعربية ، لكن ليسوا راسخين فيها ، ولا أصولا فيها ، بل تعرضوا لها ، وقد تلقفنا فنونا من العلم كالقصص والأشعار والخطب وإنا أميون ، فكيف لو عرفنا الكتابة والقراءة ونزل علينا الكتاب كما عرف هؤلاء الكتابة والقراءة ، ونزل عليهم الكتاب .

(فَقَدْ جَاءكُم) جاء على طريق الالتفات من الغيبة فى قراءة

يقولوا بالتحتية ، قيل : وهى أحسن (بيِّنَةٌ مِنْ ربِّكم) هى القرآن بلغتكم ، نزل على رجل منكم ، تعرفون صدقه وتسمونه الأمين ، وجاءكم مع ذلك بمعجزات كثيرة ، فالقرآن بيِّنة بمعنى حجة واضحة تعرفونها ، فلا عذر لكم يوم الموت ويوم القيامة فى الكفر الذى كفرتم فى الدنيا (وهُدًى) من ضلالتكم (ورحمةٌ) إنعام عليكم بتلاوة ألفاظه والعمل بما فيه لو تأملتم ، والفاء فى جواب شرط محذوف ، أى إن صدقتم فيما كنتم تعتذرون عن أنفسكم فقد جاءكم ، أو إن كنتم كما تزعمون أنكم إذا أنزلنا عليكم كتابا تكونون أهدى من اليهود والنصارى فقد جاءكم .

(فَمن أظْلم ممَّن كذَّب بآيات الله) أى لا أظلم ممن كذب بها بعد أن عرف صحتها أو لم يعرفوا صحتها ، لكنهم متمكنون من معرفتها (وصَدَفَ) أعرض هو بنفسه أو صرف الناس (عَنْها سنجزى الَّذين يَصْدِفُون عَن آياتنا سُوءَ العذابِ) شدته (بما كانُوا يَصْدِفُون) بكونهم يعرضون ، أو يصرفون غيرهم ، والباء للسببية .

(هلْ ينْظُرون) أى ما ينتظر أهل مكة (إلا أنْ تأتيهم الملائكةُ أو يأتىَ ربُّك أو يأتى بعْضُ آياتِ ربِّك) أى إتيان الملائكة أو إتيان ربك أو إتيان بعض آيات ربك المنتظر للشىء عارف به ، مقربه ، يحبه أو يكرهه ، ويكون نصب عينيه مترقبا له ، وهم ليسوا مترقبين لذلك ، ولا جاعليه نصب أعينهم ، ولا قائلين : إنا إذا جاء ذلك آمنا فيؤخر إيماننا إليه لما كان ذلك يلحقهم ، ولا بد شبههم بمن ينتظره ، بل هم ينكرون العذاب إذا توعدهم به ، وينكرون قيام الساعة ، بل تكون عندهم مستمرة لا تزال ، وبعضهم يؤمن بها وينكر البعث ، والمراد بإتيان الملائكة إتيان ملائكة العذاب ، وقيل : إتيان ملائكة الموت ملك الموت وأعوانه ، وقرأ حمزة والكسائى : يأتيهم الملائكة هنا وفى النحل بالتحتية ، والمراد بإتيان ربك

إتيان أمره بالعذاب ، أحد الأوامر ضد النهى ، أو إتيان أمره وهو العذاب أحد الأمور ، وهذا الأخير إذا فسرنا إتيان الملائكة بإتيان ملائكة الموت .

وقيل : المراد بإتيان ربك إتيان كل آياته وهى آيات يوم القيامة ، والعذاب والهلاك الكلى لقوله : « أو يأتى بعض آيات ربك » فقابل ذلك ببعض الآيات ، وقيل : إتيان ربك إتيان حسابه بعد البعث ، وإنما كرر يأتى مرتين بعد الأول ، وكرر لفظ ربك مرة بعد الأول ، وكررهما أيضا بعد ذلك ، إذ قال : « يوم يأتى بعض آيات ربك » للتأكيد والإرهاب ، ولم يقل : الله أو الجبار ، مع أن المراد الانتقام لا التربية والإحسان ، لأن المضاف إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لا هم ، ولو كان يلقيه إليهم لأنه إذا ألقاه إليهم وجدوا إضافة ما يشعر بهما إليه لا إليهم ، أو لأن المحسن جدا وغاية يكون عقابه على كفرانه عظيما ، ولولا ذلك والله أعلم لقال : إلا أن تأتيهم الملائكة أو ربك أو بعض آياته .

والمراد بإتيانه بعض آياته أشراط الساعة ، كطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والدجال ، والخسف ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من عدن ، والجمهور : أنها طلوع الشمس من مغربها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا رآها الناس آمنوا جميعاً » وفى رواية : « وإذا رآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا » وكلتا الروايتين عن أبى هريرة .

وروى أبو سعيد عنه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « أو

يأتى بعض آيات ربك » « طلوع الشمس من مغربها » وفى رواية عن أبى هريرة مرفوعة : « من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه » وفى رواية خلف : المغرب باب للجنة يسير الراكب فى عرضه أربعين أو سبعين للجنة أو خمسمائة عام مفتوح للتوبة إلى أن تطلع الشمس منه ، وقيل : بعض آيات ربك •

روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ضحى ، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا » وقيل : بعض آيات ربك : طلوع الشمس من مغربها ، والدابة ، والدجال ، لرواية أبى هريرة عنه صلى الله عليه وسلم : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » وهذا الحديث ظاهره أن الثلاث الأول الآيات ، وأن أولى الثلاث مبهم •

وكـذا روى ابن مسـعود أن أولاهن إحـدى الثلاث مبهم ، أو قال : التوبة معروضة على ابن آدم ما يخرج إحـدى ثلاث : الدابـة ، وطلوع الشمس من مغربها ، أو يأجوج ومأجوج ، وكذلك قالت عائشة : إذا خرجت إحداهن طرحت التوبة ، وحبست الحفظة ، وشهدت الأجساد على الأعمال ، وقد علم بعد ذلك أن الشمس والدابة قبل الدجال ، وقيل : يأجوج ومأجوج كما مر أنهما أول ، ثم بعد ذلك علم أن أولاهما الشمس كما مر فى الحديث ، ومما يدل أن بعض آيات ربك هو طلوع الشمس من مغربها ما رواه ابن مسعود : « تصـبحون والشمس والقمر من هاهنا

من قبل المغرب كالبعيرين المقورين فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » .

وما رواه أبو ذر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يوما : « أتدرون أين تذهب الشمس ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « إنها تذهب إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، فلا تزال كذلك حتى يقال ارتفعى من حيث جئت فتصبح طالعة حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارتفعى من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها لا ينكر الناس منها شيئا حتى تنتهى فتخر ساجدة فى مقرها تحت العرش فيقال لها : اطلعى من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون أى يوم ذلك ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذلك يوم لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » .

وما روى أبو ذر رضى الله عنه إذ قال : كنت يوما رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على حمار ، فنظر إلى الشمس حين غربت فقال : « إنها تغرب فى عين حميئة تنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش حتى يأذن لها ، فإذا أراد أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول : يا رب إن مسيرى بعيد ، فيقول لها اطلعى من حيث غربت ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل » .

وما روى ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عشية من العشيات فقال لهم : « عباد الله توبوا إلى الله قبل أن يأتيكم العذاب ، فإنه يوشك أن تطلع الشمس من قبل المغرب ، فإذا طلعت حبست التوبة ، وطوى العمل » فقال الناس : هل لذلك من آية يا رسول الله ؟ فقال صلى

الله عليه وسلم : « إن آية تلك الليلة أن تطول كقدر ثلاث ليال فيسبقه الذين يخشون ربهم ويصلون له ، ثم يقضون صلاتهم والليل مكانه لم ينقص ، ثم يأتون مضاجعهم فينامون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه ، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدى أمر عظيم ، فإذا أصبحوا أو طال عليهم رأت أعينهم طلوع الشمس ، فبينما هم ينظرون إذ طلعت عليهم من قبل المغرب ، فإذا طلعت لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل » .

وعن ابن عمر : إذا كادت الشمس تغرب ضربت بالعمد لتأخرها تقول : يا رب إذا طلعت عبدت دونك ، ثم تغرب ولا تزال كذلك تتجه إلى الله أى تستأذن فلا يؤذن لها ، قيل : الحكمة فى طلوع الشمس من مغربها أن الملحدة والمنجمين ينكرون ذلك ، فيريهم الله قدرته ، وقيل : بعض آيات ربك أن يرى المحتضر ملك الموت أو أمرا من أمور الآخرة ، وقيل : أول الآيات ظهور الدجال ، ثم نزول عيسى عليه السلام ، ثم خروج يأجوج ومأجوج فيقتلهم الله بالنقف فى أعناقهم وهو داء يقتل الدواب ، ويموت عيسى عليه السلام ، فيكثر الإحداث والفسوق ، فتخرج الدابة فتميز المؤمن من الكافر ، ويمهلون ويصرون ، وتطلع الشمس من مغربها فلم تقبل توبة مشرك ولا فاسق ، وتقوم الساعة قريبا .

وعن حذيفة : كنا جلوسا بالمدينة فى ظل حائط وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غرفة فأشرف علينا فقال : « ما يجلسكم ؟ » فقلنا : نتحدث ، فقال : « فى ماذا ؟ » فقلنا : عن الساعة ، قال : « إنكم لا ترون الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات : أولها طلوع الشمس من مغربها ، ثم الدخان ، ثم الدجال ، ثم الدابة ، ثم ثلاث خسوفات : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وخروج

خروج عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج، وتكون آخر ذلك نار تخرج من اليمن من حفرة عدن ، لا تدع أحدا إلا سوقه إلى المحشر » ففى هذا نص على أن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها ، وكذلك رواه البراء ابن عازب ، لكن ليس فى روايته ذكر المدينة والظل والإشراف من الغرفة ، وكذا رواية مسلم عن حذيفة ليس فيها ذلك ، وذلك الدخان غير الدخان الواقع فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن قيل : كيف ينزل عيسى بعد طلوع الشمس ، وهو يؤمر بقتل اليهود والنصارى ، ولا يقبل منهم إلا الإسلام والتوبة لا تقبل يؤمئذ ؟

قلت : لعله يؤمر بدعائهم إلى الإسلام ، ولو كان لا ينفعهم تعبد ، فإما أن يؤمنوا ولا يقبل عنهم ، وإما أن يقتلهم ، ويحتمل أن يكون عدم قبول التوبة مؤجلا ، ينزل عيسى فإذا نزل قبلت توبة من تاب على يديه ، ويحتمل أن يتأخر للمؤمنين نزوله حتى يموت من شاهد طلوعها من المشركين .

(يَوْمَ يأتى بعضُ آيات ربِّك لا ينْفَعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أو كَسَبتْ فى إيمانهم خيراً) يوم متعلق بينفع ولا صدر للا النافية غير العاملة عمل إن أو كان ، وقرىء برفع يوم على الابتداء ، والخبر لا ينفع نفسا إيمانها ، والرابط محذوف ، أى لا ينفع نفسا إيمانها فيه ، أو لا ينفع نفسا إيمانها بعد حضوره ، وبعض آيات ربك هو بعض آيات ربك المذكور قبل ، فالإضافة للعهد الذكرى ، وقيل : بعض آيات ربك هو جميع آيات الساعة أولا ، وبعض آيات ربك آخراً هى التى لا تقبل بعدها توبة ، وجملة لم تكن آمنت نعت لنفس ولو فصل بالفاعل ، لأن عاملها واحد ، أو حال من ضمير الخفض فى إيمانها ،

ولو كان مضافا إليها ، لأن المضاف مصدر والمصدر يعمل كالفعل ، وجملة كسبت معطوف على آمنت ، فهو يسلط عليه النفى ، أى لم تكن آمنت من قبل إتيان بعض آيات ربك ، أو لم تكسب فى إيمانها خيرا ، وقد آمنت فإذا ظهرت الآية لم تقبل توبة المشرك ولا توبة الفاسق ، وهو حجة لنا فى كون الفاسق لا يكفيه إيمانه إن مات مصرا ، سواء جعلنا الآية معاينة ملك الموت أو أمرا من أمور الآخرة أو جعلناها طلوع الشمس .

أما اذا جعلناها المعاينة فظاهر ، وإذا جعلناها الطلوع فالعبرة بعموم اللفظ ، سلمنا أنه لا عموم ، فالعبرة بالعلة ، فإن العلة فى عدم قبولها بعد الطلوع أن التوبة هناك ، والإيمان كالإيمان ، والتوبة قهراً وإلجاءً ، وهذه العلة موجودة فى المعاينة ، كما لا ينفع إذا عاينوا العذاب « إلا قوم يونس لما آمنوا » الآية ، لأنه ليس إيمان اختيار ولا توبة اختيار ، فكيف يثاب عليها ؟ وإلا قبلت من ميت ، ومن وافى المحشر ممن لا تباعة مخلوق عليه ، أو ممن عليه تباعته ، فيخلص الله عليه ، ولو أتيت فى الدنيا ، ويتعذر عليه الخلاص فيها ، وليس ذلك واقعا .

وإن قلت : أو فى ساق النفى بمعنى الواو ، فيكون المعنى لا ينفع الإيمان نفسا جامعة بين عدم الإيمان وعدم كسب الخير فى الإيمان ؟

قلت : هذا لو سلم ، فإنما هو مع قيام دليل كقوله تعالى : « ولا تطع منهم آثما أو كفوراً » ولا دليل هنا ، فيجب إبقاء أو على أصلها ، بل قام الدليل على إبقائها مثل ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، فلم يكن معنى الآية لم تؤمن ولم تكسب خيراً ، فلم يكن معنى الآية نفسا جمعت بين عدم الإيمان وعدم كسب الخير ، فضلا عن أن يقال : يفهم منه أن التى خلت عن عدم كسب الخير فقط ، ولم تخل عن الإيمان ينفعها إيمانها ،

مع أن الإيمان إذا انتفى لزم انتفاء كسب الخير ، لأنــه لا خير مــع شرك ، فكيف يقال : جمعت بين عدم الإيمان وعــدم كسب الخــير فى الإيمان ، فما هــذا إلا بسط كــلام وتصريح باللازم ، وإبهــام أن ثم إيمانا ، لكن لا كسب خير فيه ، مع أن فرض الكلام فى عدم الإيمان ، لكن مراد القائل أنه لا إيمان ، ثم فضلا عن كسب الخير فيه ، فالحاصل أن ذلك تطويل بنفى الشىء تصريحا ، ثــم نفيه التزاما ، مع أنه قــام الدليل على انتفاء الحاجة لذلك ، والتكلف له .

وما أكثر فى القرآن آمنوا وعملوا الصلحات وأكثر به ، ولو قيل كسب معطوفا على لم تكن فلا يكون منفيا ، فيكون المعنى نفسا لم تؤمن أو آمنت بعد ظهور بعض الآيات ، كما قدر يرتكب الخصم لم تخلص ، لأن علة عدم نفع إيمانها وكسبها خيرا إليه ، وقع عن إلجاء لظهور الآية ، وهذا علة مطردة لا تختص بمن أسلم بعد ظهورها ، أو كسب خيرا بعد ظهورها ، وأيضا لنا قول ابن عباس معنى الآية : لا ينفع مشركا إيمانه عند الآيات ، وينفع أهل الإيمان إن كسبوا خيرا قبل ذلك .

فهذا نص فى مذهبنا ، وتصريح بأن الظرف المقدر فى قوله : أو كسب هو لفظ قبل كما ذكر قبله فى الآية لا لفظ بعد ، وكذا قال الضحاك والكلبى من آمن من شرك أو تاب من معصية بعد ظهور بعض الآيات لم يقبل عنه ، لأنه تاب إلجاءً بمعاينة الأهوال ، فمن لم يكلف فى حال طلوعها لجنون ، أو لم يبلغ ، أو لم يولد ، فله بعد ذلك التوبة والله أعلم ، وقرأ ابن سيرين : لا تنفع بالفوقية تأنيثا للإيمان لإضافته لمؤنث ، يعنى عنه الذكر ، لأنك تقول : لا تنفع نفس نفسها بشىء .

(قُلْ) يا محمد لأهل مكة (انْتَظِرُوا) بعض الآيات (إِنَّا

مُنتظِرونَ) له ، لأن لنا الفوز بالثواب إيمانا وكسبنا الخير ، ولكم الويل بشرككم ، وذلك وعيد لهم ووعد للمؤمنين ، وذلك أن الله أوعد الكفار العذاب يوم القيامة ، وقيل : قبله فى الدنيا ، وقيل بعد الموت فى القبر وعند الموت ، وقيل : ذلك وعيد للمشركين كلهم إلى يوم القيامة ينتظرون عذاب يوم القيامة فى الدنيا ، وبعد موتهم إلى أن يوافسوه بالبعث وينتظروه ، كل منهم عند الموت وبعده ، وقيل معنى الآية الأمر بترك القتال ، فتكون منسوخة بآية القتال ، وهو خلاف الظاهر ، وأيضا هى على هذه الدعوى كالتأجيل والمصرح ، فله بالأجل المعين أو المبهم لا يكون منسوخا يحاول الأجل ، وإنما النسخ فى الذى مؤجل عند الله ولم يقل لنا إنه مؤجل .

(إنّ الذينَ فرّقوا دِينَهم) أى الذين يجب أن يتبعوه فينسبوا إليه كلهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، فكانوا فرقا بسبب تفريقهم الدّين ، أو المعنى اختلفوا فى دينهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها فى الهاوية » وروى : « فى النار وكذا فيما بعد إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة وهى التى على ما أنا وأصحابى عليه » .

ويروى « سيخرج من أمتى قوم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله الهوى » أى يجرى معهم الأهواء لتفارقهم كالكلب لا يفارق صاحبه ، فالآية فى أهل الكتاب أو سائر المشركين وأهل البدع من هذه الأمة ، وقال الحسن فى المشركين : بعضهم عبدوا الأصنام وقالوا : شفعاؤنا عند الله ، وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا : إنهم بنات الله ، وبعضهم عبدوا الكواكب . وقال مجاهد :

اليهود ، وقال ابن عباس وقتادة والسدى والضحاك : اليهود والنصارى ، وقال أبو هريرة : هم أهل الضلالة من هذه الأمة رواه مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ، وليسوا منك ، هم أهل البدع ، وأهل الشبهات وأهل الضلال من هذه الأمة » والآية حث للأئمة على أن تجتمع على كلمة الحق •

وقال عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة » وقرىء : فارقوا دينهم ، لأن من ترك بعض دينه فقد فارقه كله إلا كل شىء ذاهب منه بعضه ببيتين وهى قراءة حمزة والكسائى ، وبمفارقته يكونون أيضا قد فرقوا •

(وكانُوا شِيعاً) جمع شيعة كل شـيعة تتبع امامها أى تتبعـه والشيعة الجماعة المتبعة لآخر (لسْتَ منْهُم فى شىءٍ) أنت برىء منهم وهم براء منك ، فكيف يتصـل متبع الآباء والأهـواء بمن يتبع البرهان من الله جل وعلا ، ومنهم متعلق بمحذوف خبر ليس ، وفى شىء يتعلق بذلك المحذوف أو يمنعهم لنيابته عنه ، ولا تستبعد هذا ، وقد عرفت أن الظروف ترفع الفاعل إذا تعمدت ، وشىء نكرة فى سياق السلب ، فهى تعم بالنص ولو لم تكن فيها من الاستغراقية أو بالمبادرة لعدم من فشى يعلم السؤال عنهم وعن تفرقهم وعن عقابهم والشفاعة للفسقة منهم ، فالآية نص أو كالنص فى أن لا شفاعة لأهل الكبائر ، أى أنت برىء منهم على كل وجه •

وقد علمت فى رواية عمر وأبى هريرة أن الآية فى أهل البدع من

هذه الأمة ، وكذا قالت أم سلمة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذا إذا كانت فيهم وفيمن لا شفاعة لهم بالإجماع ، وهم المشركون أهل الكتاب أو غيرهم ، وإن قيل : هى فيمن لا شفاعة له بالإجماع ، فاللفظ عام والعبرة بعمومه ، والعلة التفرق فليدر معها الحكم ، وقيل : المعنى لا تقاتلوا المشركين فننسخ بآية القتال وهو ضعيف .

(إنَّما أمرُهم إلى الله) هو الذى يلى عقابهم ، وليس المعنى أمرهم إليه إن شاء غفر لهم وإن شاء عاقبهم ، بدليل قوله : (ثمَّ ينبئُهم بما كانُوا يفْعَلون) لأن مثل هذا إنما هو فى القرآن بمعنى أنه لم يخف عنه ما فعلوا ، وأنه يخبرهم به فيعاقبهم ولا يفوتونه ، وأما دعوى أن الآية فى الفسقة مبالغة لا تحقيق فلا دليل لها .

(مَنْ جاء بالحَسَنة فله عَشْر أمثَالها ومَنْ جاء بالسَّيئة فلا يُجْزى إلا مِثلَها) أى من جاء إلى الله بالحسنة لم يفسدها فى الدنيا فله عشر حسنات أمثالها ، أى جزاء عشر حسنات أمثالها ، كأنه عمل عشرا بلا تضعيف ، كتب الله ذلك رحمة منه ، كما سامح الفقير ، فضرب له مالا عظيما على شىء من العمل لا يسوى شيئا من ذلك المال رحمة له وشفقة ، ثم إنه لا يسمى ذلك إلا أجرة له ، ولا يسمى الفضل إلا ما لم يجعله فى مقابلة ذلك العمل ، بل رحمة الله أعظم ، لأنه أيضا الخالق لعمل العبد الموفق له ، وذكر الله العشر لأنه لا بد منها فى قضائه لكل من جاء بالحسنة ، وعلى هذا الذى لا به منه .

جاء أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ويل لمن غلبت آحاده عشراته » وذلك إذا جاء يفعلها وأما إن نواها وعلم الله منه الصدق ، فإنه يكتبها له بلا تضعيف ، وأجرة الله لنا لا تقصر على العشر ، وقد يأجرنا

بعشرين وخمس وعشرين وبسبعين وبمائة وسبعمائة وبألف ، وأقل من ذلك فوق العشرة وأكثر من ذلك ، وبلا حساب ، ولذلك قيل : العشر فى الآية التمثيل للكثرة مهما دق العدد ، وقد نظر لأنه تذكر فى الأحـاديث أعـداد بعد عشر ودون التمثيل ، فى الكل تكليف ، والله عطاء لم يجعله فى مقابلة عمل يسميه فضلا ، لكن يبين على الوفاء بالدين والكل أيضا فضل ، وسقطت التاء من عشر مع أنه أضيف المذكر وهـو أمثال ، لأنـه اعتبر موصوف أمثال وموصوفه مؤنث ، أى عشر حسنات أمثالها ، وقرأ يعقوب بتنوين عشر ورفع أمثال ، على أنه نعت عشر ، وأضاف عشر إلى حسنات محذوف ، ومن جاء بالسيئة لم يمحها بالتوبة جوزى بواحدة .

وقال صلى الله عليه وسـلم : « إذا أحسن أحدكم إسـلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سـيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله تعالى » وهذا الحديث يدل على أنه تجمع الحسنات والسـيئات ، فيحكم بالأكثر وقيل : كلما عمل حسـنة محيت سيئة إذا لم يصر ، وكلما تاب محيت السيئة التى تاب عنها بشروط التوبة ، وإن مات مصراً على سيئة واحدة محت حسناتها كلها ، وهذا مذهبنا .

وجاء فى الحديث : « أنه من هم بسيئة فعملها كتبت له بواحدة أو أحقر ، وإن لم يعملها لم تكتب عليه وإن هم وعزم عليها كتب عزمه وهو ذنب أقل منها ، وإن تركها من أجل الله كتب له حسنة » والخلود فى الجنة والنار بالنيات ، لأن المؤمن ينوى الطاعة أبداً ، والمشرك وسائر المصرين ينوون المعصية أبداً . قال ابن مسعود : الحسنة لا إله إلا الله ، والسيئة الشرك ، والصحيح العموم .

(وهُم لا يُظْلمون) الضمير عائد إلى الجائين بالحسنات والجائين بالسيئات ، لأن من فى الموضعين للعموم ، ومعنى لا يظلمون لا ينقص من ثواب الجائين بالحسنات ، ولا يزاد فى عقاب الجائين بالسيئات ، ولا تكتب السيئة حتى تعمل •

(قل إننّى هَدانى ربّى إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ) دين صحيح وهو دين الإسلام ، أو الحجج والتنكير للتعظيم (دِيناً) حال من صراط لنعته بمستقيم ، وهو مؤكد ومفعول لمحذوف ، أى هدانى ديناً كقوله : « وهديناهما الصراط المستقيم » وقوله : « اهدنا الصراط المستقيم » وقوله : « ويهديك صراطاً مستقيما » أو علمنى دينا قيما ، أو بدل من صراط ، لأنه فى نية النصب لصلوح إسقاط إلى ونصب فى الفصيح كما رأيت •

(قِيماً) صفة مشبهة من قام يقوم ، وزنه فيعل ، أصله قيوم بإسكان الياء قلبت الواو وبعدها ياء وأدغمت الياء فى الياء ، وقيل : فيعل بكسر العين ، أصله قويم قدمت الياء على الواو ، وقلبت وأدغمت الياء فى الياء ، والحاصل أن فيه ما فى سيد من الخلاف ، وقد ذكرته فى غير هذا ، وعلى كل حال هو أبلغ من قائم مستقيم ، لأنه لا يدل على الحدوث ، وهما يدلان عليه ، وقيل : قيم أبلغ من قائم لزيادة حروفه ، ولا تلزم زيادة المعنى لزيادة الحروف فى كل موضع ، وقيل : معناه تقوم به أمور معاشى ومعادى ، وقراءة أبى عامر وعاصم وحمزة والسدى قيما بكسر القاف وفتح الياء غير مشدد على أنه مصدر نعت به ، وهو أبلغ من قيما فى القراءة الأولى ، لأنه كأنه نفس القيام فى هذه القراءة أو أول فى بالوصف ، أو بتقدير مضاف ، والقياس فى هذه القراءة بقاء الواو بلا قلب كعوض دخوله ، لكن أعلت بالقلب ياء كما أعلت فى فعله

الماضى بالقلب ألفا ، وفى مضارعه بنقل حركته أو إسكانها ، وبالقلب ياء فى القيـام .

﴿ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ ﴾ عطف بيان على دينا ولو اختلفا تعريفا وتبيينا ، وصح أن يعطف بيانا مع أن الملة والدين بمعنى واحد ، لأن مفهوم الملة الإملاء ، أملاه جبريل على إبراهيم عليهما السلام ، ومفهوم الدين الجزاء أو الطاعة أو الخضوع به لمن شرعه ، ولو اتحدا ما صدقا ، ولأن الملة قد أضيفت إلى إبراهيم ولم يضف إليه المعطوف عليه .

﴿ حَنِيفاً ﴾ مائلا عـن دين الضلال إلى دين الله ، وهو حال مـن إبراهيم ، ولو كان مضافا إليه ، لأن المضاف يحجزه من إبراهيم ، ولكن لا يظهر أن يقال هدانى الله إبراهيم ، ويراد هدانى دينه ظهوراً مثل الظهور فى « اتبع ملة إبراهيم » لو قيل : اتبع إبراهيم لظهر ظهوراً بيناً أن المراد اتبع دينه ، والعرب تسمى كل من حج أو اختتن حنيفا تنبيها على أنه مال كما مال إبراهيم .

﴿ ومـا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ فمن أين يكـون قريش واليهود والنصارى على دينه ، وهم مشركون ، ومعظم الرد هنا على قريش .

﴿ قُلْ إنَّ صَلاتِى ونُسُكِى ﴾ عبادتى كلها أو قربانى أو حجى ، قال الزجاج : النسك كلما يتقرب به إلى الله ، إلا أن الغالب عليه فى العرف الحج أو الذبح ، وأراد أن معناه هنا العبادة كلها ، لكنه بين الغالب ، قال جماعة : النسك العبادة أى عبادتى كلها ، نسك فلان فهو ناسك إذا تعبد ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والسدى : النسك فى الموضع الذبيحة فى الحج والعمرة ، وكذا عن ابن عباس ، وقـال مقاتل :

نسكى حجى ، والنسك أيضا سبائك الفضة ، فيمكن أن تشبه عبادة المخلص نسيكة تشبيها لها بنسيكة الفضة فى خلاصها وصفائها ، وسواء فى ذلك قصد إلى العبادة كلها أو الحج أو الذبيحة ، فإنه مع ما خلص من حج أو ذبيحة فهو كالسبيكة ، والعابد ناسك أى متخلص من دنس الآثام .

(ومَحْيايَ ومماتى) مصدران ميميان واسما زمان ، أى وحياتى وموتى أو لزمانهما قرأه نافع بالإسكان للياء فى محياى ، ولو التقى ساكنان لما فى الألف من المد القائم مقام الحركة ، أو لإجراء الوصل مجرى الوقف ، ولم يكن ميتا لعدم الكسرة ، بل تقدمت الألف وتقدمت الفتحة قبلها ، وقرأه الباقون بالفتح وهو رواية عن نافع أيضا وقرىء بكسرها .

(لله ِ ربِّ العَالمينَ) أى صلاتى ، وما كان منى من العبادة ، وحياتى وموتى ، أو كان من مدة حياة وموت ثابتان لله رب العالمين (لا شَرِيكَ له) فى خلقهن وملكهن وقضائهن ، وقدرهن وثبوتهن .

(وبذَلكَ) أى وبذلك الإقرار الذى أقررت أنهن لله رب العالمين خلقا وملكا وقضاء وقدراً ، قدم على متعلقه وهو قوله : (أمِرْتُ) للحصر ، وقيل : المعنى إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله خلقاً وقضاء أو قدراً وملكا لا شريك له فى صلاتى ونسكى ، وقيل : أراد بالمحيا والممات ما يقارن حياته وموته ، أو ما يكون فى زمانهما من العبادة هو لله وحده طاعة خالصة ، فسمى الفعل باسم زمانه ، أو سمى الفعل باسم مجاوره وهو الحياة والموت ، والنسك فى هذا القول ليس عاماً بل حج أو ذكر ، لأن العموم فى محياى ومماتى ، وذلك أن الطاعة تضاف للحياة وزمانها لوقوعها

فيها ، وللممات باعتبار الموت وهو متصف بها ، أو باعتبار ما يلتحق بعد الموت كالصدقة الجارية بعده والوصية والتدبير ، فتكون الإشارة إلى إثبات الطاعة لله وإخلاصها ، أى وأمرت بالإخلاص لله تعالى ، وقيل : المعنى أن عبادتى وصلاتى فى حياتى لله وجزائى بعد موتى من الله •

(وأنا أوَّلُ المسْلمينَ) بالنسبة إلى أمتى أى أول المسلمين الذين هم المسلمون من أمتى ، لأن كل نبى سابق لأمته باعتبار ما يوحى إليه فيهم ، ولا يولد ولا ينشأ إلا مسلماً ، وغيره يولد على الفطرة ثم يكفر ، ويجوز أن يراد أول المسلمين لأن نوره أول المخلوقات ، والمسلمين بمعنى المؤمنين ، وقيل : معناه الخاضعون لقضاء الله وقدره على حد ما مر فى تفسير مــا قبله •

(قُلْ أغَيرَ الله أبْغى) أطلب (ربًّا) إنكار لادعائهم إياهم إلى عبادة غير الله ، إشراكه بالله تعالى فى العبادة ، وتقدم إعراب مثله •

(وهُو ربُّ كلِّ شيء ٍ) الجملة حال تفيد تقليل الإنكار ، أى لا يصح منى أن أعبد سواه ، لأنه رب كل شيء ، فكل ما سواه مربوب لا رب ، قال ابن عباس رضى الله عنه : كان الوليد بن المغيرة يقول : اتبعوا سبيلى أحمل عنكم أوزاركم ، فنزلت سورة الأنعام وفيها جوابه والرد عليه بقوله تعالى :

(ولا تَكْسِبُ كلُّ نفس ٍ) ذنباً هــذا كلية لا كــل ، وجميع لا مجموع ، وعموم سلب لا سلب عموم ، ولو تقدم النفى على كل ، ومفعول تكسب محذوف ، أى ولا تكسب نفس ما مــن النفوس ذنباً

(إلا عَلَيْها) متعلق بتكسب ، ولا ينفع عبادتكم غير الله ، ولا يكـون ضرها إلا عليكم •

(ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخْرَى) أى تذنب نفس مذنبة ذنب نفس أخرى ، أى لا ينسب إليها إلا ذنبها فتنسب إليه ، ومن ذنبها أن تسن ذنبا أو تدعو إليه ، أولا تحمل ثقل نفس أخرى نفس ثقيلة ، والثقيل بالذنب ، أو لا تتصف نفس ذات ذنب ذنب غيرها ، فكل ما رأى من ذنب على نفسه فإنما هو ذنبها لا ذنب غيرها ، ولا تذنب نفس ممكن أن تذنب ذنب نفس أخرى •

وحاصل ذلك أنه لا تجازى بذنب غيرها ، وقيل جواب الوليد قوله تعالى : « ولا تزرُ وازرةٌ وِزر أخرى » وعبادة النقاش أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ارجع يا محمد إلى ديننا واعبد آلهتنا واترك ما أنت عليه ، ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها فى دنياك وآخرتك ، فتنزل : « قل أغير الله » الآية •

(ثمَّ إلى ربِّكُم مرجِعُكم) أى رجوعكم بالبعث بعـد المـوت للجزاء (فينبئُكُم بما كُنتم فيهِ تختلفُونَ) من الحق والباطل ، يميز لكم أن ما أنتم عليه باطل ، وأن ما أنا عليـه حق ، أو يخبر بمـا كنتم تقولونه فى رسوله صلى الله عليه وسلم من أقوال مختلفة كقولهم : ساحر ، وقولهم : مجنون ، وقولهم : معلم ، وقولهم : شـاعر ، وقولهم : مسحور وساحر يخبركم بذلك فيجازيكم عليه •

(وهُوَ الَّذِى جَعَلَكم خَلائفَ الأرْض) الخطاب لأمة سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم ، أمة الإجابة ، أعنى أمة التوحيد ، وإنما يتقبل الله من المتقين ، جعلهم الله خلائف فى الخير عن الأمم الماضية ، قال الحسن : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » ويروى : « أنتم آخرها وأكرمها على الله عز وجل » أو الخطاب لحضور المتقين من هذه الأمة ، وقيل : الخطاب للمؤمنين والمشركين الذين فى زمان رسول الله صلى الله عله وسلم ، وبعده سماهم خلائف ، لأنهم آخر الأمم ، وعليهم تقوم الساعة ، وقيل : الخطاب لمن فى زمانه ، بمعنى أنهم خلف من مات قبلهم ، وكذلك يموتون ويخلفهم غيرهم .

(ورَفَعَ بعْضكم فَوقَ بعْضٍ درجاتٍ) بالعلم والورع ، والشرف والجاه ، والشجاعة والغنى والعز والحسن والقوة ، تفاوتوا فى ذلك ، وتفاوتوا به وبأضدادها (ليبْلُوكم) يعاملكم معاملة المختبر وهو عالم (فيما آتاكم) من تلك الخيرات ، هل تشكرون الله عليها وترحمون من دونكم فتربحوا نعم الدارين أولا فتعاقبوا ، عافانا الله (إنَّ ربكَ سَريعُ العقابِ) لمن يكفر نعمته ، ومعنى سرعة العقاب قربه حتى كأنه حاضر أو أنه إذا أراده لم يتأخر (وإنه لغفُورٌ) للتائبين (رَحيمٌ) لهم بالجنة ولهم ولغيرهم بنعم الدنيا ، والآية ترهيب وتودد ، قال الشاذلى : من أراد أن لا يضره ذنب قال : رب أعوذ بك من عذابك يوم تبعث عبادك ، وأعوذ بك من عاجل العذاب ، ومن سوء الحساب ، فإنك لسريع الحساب ، وإنك لغفور رحيم .

ربِّ إنى ظلمت نفسى ظلما كثيراً فاغفر لى ، وتب علىَّ ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

اللهم ببركة هذه السورة ، وببركة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم اخْزى النصارى والمشركين كلهم ، وغلّب المسلمين والموحدين عليهم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

وبانتهاء تفسير [سورة الأنعام]

انتهى القسم الأول من الجزء السادس

بفضل الله ومنه

ويليه القسم الثانى إن شاء الله بتفسير [سورة الأعراف]